في ذكرى انقضاء خمسمائة عام على محنة الأندلس ...

تداعيات رحالة

في زمن الانكسار

الدكتور أحمد محمد الأصبحي

مؤسسة الرسالة

دار الأعلام

تداعيات رحالة

في زمن الانكسار

الطَّبْعَة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٦/٣/٣٢٠)

رقم التصنيف	: ٨١٨،٠٣
المؤلف ومن هو في حكمه	: أحمد محمد الأصبحي
عنوان المصنف	: تداعيات رحالة في زمن الانكسار
رؤوس الموضوعات	: ١- الآداب
	٢- المذكرات الأدبية
رقم الإيداع	: (١٩٩٦/٣/٣٢٠)
الملاحظات	: عمان : دار البشيــــر

* تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة الرسالة / بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ ص.ب ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

دار البشير
ص.ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)
هاتف: (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢)
فاكس: (٦٥٩٨٩٣) تلكس (٢٣٧٠٨) بشير
مركز جوهرة القدس التجاري / العبدلي
عمان - الأردن

Dar Al-Bashir
For Publishing & Distribution
Tel: (659891) / (659892)
Fax: (659893) / Tlx. (23708) Bashir
P.O.Box. (182077) / (183982)
Jerusalem Jewel Trade center Al-Abdali
Amman - Jordan

في ذكرى انقضاء خمسمائة عام على محنة الأندلس ...

تداعيات رحالة

في زمن الانكسار

الدكتور أحمد محمد الأصبحي

مؤسسة الرسالة دار البشير

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحيـــل القســـري

حلقت نسور الإباء، وعقبان الجهاد، مـن عليـاء كبريائهـا فـي شامخات جبال البشرات، والجبل الأحمر (جبل عمار)، خافقةً بأجنحةٍ مهيضة منهكـة بين فجـاج الرحيل القسـري، أسـراباً، أسـراباً إلـى ديـار العـدوة المغربيـة.... هرباً مـن بطـش طغـاة الأسـبان، وبحثـاً -لحظـة الضيـق والمطاردة- عن مأمنٍ بين الأهل والعشير في النسب القريب إنْ وجد، وفي البعيد الموجود....

وكانت أسرتي من بين تلـك الجمـوع المتدافعـة عقدت العزم علـى النجاة بأفرادها، والعودة إلى جبال الريف المغربية موطن قبيلتنا بني زيّـات الزّناتية، فيممتْ شطر مدينة ((المريّة)) التـي وصلـتْ إليهـا، عند ظهـر يـوم قائظ من أيام صيف، لا تطاق حـرارة شمسـه الحارقـة، ورطوبتـه الخانقـة، وهواؤه الساكن....

وقد أَلْقَتْ بنا شدّةُ الإعياء في جامعها الأسير، ولم يكن لنا من بُد إلاَّ أنْ نسكنَ إلى بيت الله، نلتقط فيه أنفاسنا، ونستعيد بعضـاً مـن عافيتنـا التـي سلبتها أشهر الحصار، الذي أحكمه علينا الطاغيـة فردينـاند وزوجُـهُ الملكـة إيزابيللا....

غير أنَّ مرأى الأُسرة الأليم، وعضّةَ الجـوع الشـديدة، ألقيا بظـلال بؤسهما على كاهل أبي المسكين، الذي هبَّ لتوه خـارج الجـامع، بحثـاً عـن الزاد فأبت أمي إلاَّ أنْ ترافقه، وهي تحمل أختي الصغيرة في جنبها...

ومضينا ندفع بخطانا المكدودة دفعا، حتى لم تعد لنا قوى تحملنا،.... وأمسك كلٌّ منا بالآخر يَجْتَذِبُه، ويستنِد عليه....

وعند شجرة ((النارنج)) الحزينة، تولّينا إلى ظلها، مستسلمين لإغفاءة الإعياء، التي ما أيقظني منها إلاّ الزفرات الغاضبة والآهات الحبيسة، يطلقها والدي متسارعةً، متصاعدةً .... ففزعتُ لحاله، وخشيتْ أنَّ مصيبةً جديدةً حلَّت، وأسرعتُ أسأله عن الأمر.

قال :

- تهونُ كل مصيبة، بعد مُصيبَةِ الأندلس!....

قلت:

- ولكن مصيبة الأندلس ليست جديدة، فنحن نتلظى بنارها....

قال:

- وكلما نَضَجتْ الجلودُ، بُدِّلَتْ جلوداً غيرها لنذوق العذاب!.... يا بني لقد نُكِبْنا، أرضاً، وإنساناً.... قِيَماً، وعُمْرَاناً......

وشَدَّني من يدي، ومضينا في أزقة المدينة، وهو مستغرقٌ في حديثه عن مدينة المرية، وسائر المدن الأندلسية.

وبحزن بالغ قال:

- أنظر إلى ما حولك.... حدِّق في وجوه الناس.....

أَلاَ ترى البُؤْسَ، والمرضَ، والفقْرَ، والخَراب؟!...

ومضى مسترسلاً في الحديث:

- ما كان هذا معروفاً في ((المريَّة)) التي كانت ملء سمع الدنيا، وبصرها: هَنِيَّةً، مريَّةً، بَحْرِيَّةً، بريِّة، وثغراً باسماً تزهو بها الأندلس....

وكانت أَهَمَّ قواعدها البحرية، والحرْبِيَّة، ومهوى التجار، وموئل العلماء، وأرض الرَّخاء، ومعْدن المال، ومعقل الشّموخ، وتعدد الصنائع، والفنون والعلوم، وحجة الناظر المفتون بكثرة الأعناب والزيتون....

وجعل يجولُ ببصره في ما حوله... ويرجعه الكرَّة تلو الكرَّة، فيرتد حسيراً .... ويلتفت إليَّ وهو يفرك يده بانفعال، وألم، ويقول:

لا عجب، ولا غرابة في ما أرى .....

فسقوط ((غرناطة)) غاب الأُسُوْد، وسيّدة الأمصار، ودار الملوك من بني الأنصار، دارَ عليها الزّمن، وانفرطتْ من العقْد الأندلسي وهي دُرَّتُهُ الوسيطة.... وتساقطت معها، ومن بعدها بقية المدن الأندلسية ...

وأَخَذَ يعدها؛ مُدناً، وقرى، وقلاعاً ... مررنا ببعضها، وشاهدنا الحال التي آلت إليها...وتساءل مذكراً:

– ألم نشاهد بأمّ أعيننا في فجاج الرحيل، النوائبَ وهي تطرقُ المدن والقرى، والحصون؟!

ألم نرَ أهلها وقد أضحوا فقراء لا تفارقهم الأحزان، بعد أنْ حلَّ بها الأعداءُ والجذامُ على حدٍّ سواء؟!

((فاسطبونة)) ذَهَبَ رسْمُها، ولم يبْقَ منها سوى اسمها!...

و((مربلّة)) صار مَرْسَاها غير آمن، لا يخدم فيهِ اليوم إلاَّ من كان من شرار القوم، وممن لا أمانة لهم!....

و((حصْنُ سهيل)) ذاك الذي طالما كان ممتنعاً على الأعداء، بِقُوّت برّه، وبحره، اضطربتْ سواحلُه، وكَثُرتْ فجائعه!...

ومدينةُ ((مالقا)) مدينة العلم والعلماء، أمثال ابن حزم، وابن البيطار، والتي كانت تضاهي ((غرناطة)) في مجدها، وتقدمها، وعراقتها.... أمستْ -بعد أنْ سقطتْ أسيرةَ الأعداء- موطنَ الفقر، ومرتعَ الأمراضِ.

ألَمْ نقصدها ملاذاً؟ فلما رأينا ما حلَّ بها من خرابٍ، ولَّينا مذعورين، وتعرجت بنا قافلةُ الرحيل طرق الخوف، خارج مدينة ((رندة)) والحصون المجاورة لنجدها وقد باتت غريبة علينا!...

ومضى والدي يحدثني، والألم يعصر فؤاده، ويزيدني كمداً وهمًّا... وَجَعَلْنا نَهِيْم بينَ الأَزِقَّةِ المكتظة بحثاً عن بقية من زاد، وشواهد المأساة تطوقنا بكوابيس الذُّعْر، وتُطاردنا معها سياط المسْغَبةِ والفَاقَة، وأعين الحراسة والتفتيش الحاقدة.

وبتنا مقتنعين بقبول ما تخلفه الموائد من فتات ان وجد ...هالني ما أضحى عليه حالنا،والتفت الىوالدي أطارحه الهم....

- يا لله!...أنصبح أذلةً بعد أن كنا أعزةً؟!

وصحتُ على- غير إرادة-أكررتساؤلي هذا في وجه الماره من بني قومي ..فالتفتوا نحوي بين مستنكر على غلام حدث في مثل سني، وبين وجل من أمره ،ما عساه يقول ؟!وهو لايملك إلا العجز، والحوقله....

ورحتُ أستوقف النَّفر من هذه الجموع، من حينٍ لآخر أحاورهم، في ما يعتزمون الإقدام عليه...

كنتُ أظن أنهم يتجمعون للإنقضاض على الحاميات الأسبانية ولم أكنْ لأعيَ أمر الإبْعَاد، والرَّحيل....

وإذْ وجدتُ إجاباتهم، تؤكد على ضرورة الرحيل، عدتُ أسأل والدي:

- هل أنت مع قرارِ الرحيلِ إلى العدوة؟
- وهل في ذلك شكٌ بعد الذي رأيتَ يا بُنَيّ؟

ألم يكن وصولنا إلى ميناء «المرية» لنعبر البحرَ إلى ديار الإسلام في العدوة المغربية؟

- ولكني لا أجد مبرراً للرحيل...

لسنا جناةً يفرون من العدالة.....

لسنا مجرمين، ولا قطاع طرق...

لسنا بغاةً، ولا طغاةً، ولا جبابرةً، حتى يُطاردنا من ظلمناه، أو اضطهدناهُ، أو أخذنا حقه من الأسبان... نحن لم نصادر حق أحد .... لم نغتصب أرضاً .... لم نُكْرِهْ أحداً على اعتناق ديننا، وتَرْك دينه ... لم نمنع أحداً من طلب علْمٍ، أو شغلِ منصبٍ، أو احتلالِ مكانةٍ عالية ...

- كل ما قُلْتَهُ حقٌ يا بني؛ ولكنّ الأمرَ لم يَعُدْ بأيدينا ... فالذين ناصبونا العداءَ دونما فريْةٍ صنعناها، شددوا علينا الخناق، وقعدوا لنا كل مَرْصد، وبلغ التنصيرُ القسريُ أوْج تحديَّاته ....

ومضى يحدثني وهو يستحضر شواهد البطولة قائلاً:-

- وإنني لا أنسى تلك اللحظات العصيبة وهم يتعقبوننا بالحراب حين حاولنا أنْ نجّهد في أداء الصلاة في الجامع الأعظم، في غرناطة، الذي سرعان ما أحالوه إلى كاتدرائية، فاندفعنا نشعل ثورتنا العارمة في حيّ «البيازين» حتى انتشرتْ إلى جبال البشرات، وجَبل عمّار....

وما أعظم بطولات ثوارنا الذين اعتصموا بالجبال، وقاموا بأول أعمالٍ انتقامية ردًا على خرق الأسبان حُرمةَ المعاهدات.... وما أعظم جَلَدَهُم، وهم يقاومون الحصار، ويواجهون الموت بشجاعةٍ فائقة!...

وعاد يُوجه إليَّ الحديثَ مجيباً على سؤالي قائلاً:-

- لقد استنفدنا كل ما في وسعنا من صور الصبر والمصابرة، والثورة أفبعد هذا ما يثير حرجاً من الهجرة؟ وبخاصة وأنَّ البقاء على هذه الحال يُعدُّ فتنةً في الدّين، ودخولاً في محظورِ المستضعفين الذين قال الله تعالى عنهم:-

﴿إنَّ الذين توفاهم الملائكةُ ظالمي أنفسهم، قالوا فيم كنتم؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنم، وساءت مصيراً إلاَّ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فأولئك عسى اللهُ أن يعفو عنهم، وكانَ اللهُ عفواً غفوراً﴾.

- صدق الله العظيم... غير أنك تعلم يا والدي أنه لا هجرة بعد الفتح، ولكن هناك جهاد ونية!.

- بلى يا بني... وهو ما ينبغي أن نوطنَ عليه أنفسنا وإخوتنا في ديار الإسلام في العدوة المغربية، عسى أن تمضي فينا سنةُ الله، وتعودَ الأندلس عربية مسلمة، تشع بالنور والعمران....

- إذنْ فالرحيلُ مادام بقصدِ نيَّةِ العودة؛ فما زالَ جهاداً وثورة...

- هذا ما نتوخاه، وعلينا أنْ نُتْبِعِ النيةَ حُسنَ العمل.

- على بركة اللّهِ يكونُ رحيلنا.....

* * * * *

تنادينا للرحيل... وكان معنا نفرٌ من جيراننا في زقاق فاطمة، بحيّ البيازين...

اتجهنا صوبَ الميناء نبحث عن سفينة، وسط جموعٍ كبيرة من المبعدين، غُصَّ الشّاطئ بِأقدامهم، وهُم منْ ذُعْرٍ يومئذ خائرون...

عُدْتُ للانفعال من جديد، وما باليد حيلة.... دارت بي الدنيا، وضاق بي مشهد الفرار.... وانزوت لحظتها من أمامي القرون الثمانية التي خلت، لأرى عند بداياتها أقدام الفاتحين الميامين، تطأُ هذه الشواطئ ... سمعتُ خفقَها ... وصهيلَ خيول الفتح، وقعقعةَ سيوف الجهاد ... أبصرتُهم نوراً يندفع بالهداية والعلم صوبَ الأرض الأندلسية يبنون أمة، ويؤسسون دولة، وينشئون عمراناً، ويحررون مضطهدين ....

نظرتُ في قدمَيَّ فخجلتُ أنْ تتَّجِها بِيْ، في الإتجاه المخالف لمسلك الفاتحين... لم أُصَدّقْ أني سأكونُ بعد لحظاتٍ في عرض البَحر، منفياً من أرضي، طريداً من الفردوس، دونما كبيرة ارتكبتها، أو معصية اقترفتها!!...

لم تُطَاوِعْني قَدماي على ركوبِ السَّفينة ... ظلتا ترتعشان في مكانهما وكلما هممتُ برفع إحداهما خارت الأخرى... ولم أزل على ذلك، حتى إذا اكتمل ركابُ السفينة، واستَوَوْا عليها، ألفيتُ ربّانها، وقد حملني بغتةً إلى ظهرها... ثم استفسر القومَ، عن الوجهة التي يعتزمون الإبحار إليها .. فتصدَّى والدي يستفسره هو الآخر، قائلاً:

– وهل غير العدوة المغربية عدوة؟

ردَّ عليه الربَّان موضحاً، بقوله:

– ليس هناك سوى عُدْوةٍ واحدة ...

ولكن تقوم على هـذه العدوة دويلات، وإمارات، وسلطنات عدة، أبرزها الوطاسية في المغرب الأقصى، والزّيانية في المغرب الأوسط، والحفصية في المغرب الأدنى ...

فأيّها تختارون ؟!

أجمعَ الركبُ على رَأْيِ والدي الذي اختار عُدْوَةَ المغرب الأقصى، حيثُ جُذُورُنا القريبةُ، هناك في جبال الرِّيف.

* * * * *

وتسير بنا السفينة باسم الله مجراها، ومرساها ... تغالب أمواج البحر، والرياح المعارضه ... ونغالب على ظهرها دُوَار البحر، وأحزان فراق الوطن....

بينما أخذ الصمتُ يخيّم على والدي، ثم انقلب إلى وجومٍ، أعقبه هجوم جحافل القلق، حتى استبدتْ بِه الوحْشَة، وذهبتْ به الهواجس مذاهبها، فاضطربَ مِزَاجُه، وضاقَ بِه موضعه في السفينة، كما لم تتسع أمام ناظريه فُسحة البحر وانفراجة السماء!، وصار في حالٍ تفرضُ عليَّ أنْ أَدْنُوَ منه، وأُسَرّيَ عنه، فإذا أمرهُ ليس بيدي... فهو يفكر في زوجه الأسبانية التي طالما حاول إقناعها بالرحيل معنا، وَحَاوَرَتْهُ على العدول عن الرحيل، تُغريْهِ بالبقاءِ في حماية شفاعتها أوهكذا تظن!...

حاولتُ أنْ أُثنيه عن التفكير فيها، رحمةً بنفسه، ومراعاةً لعواطف أمي التي تحمل همَّنا جميعاً... لكن تعلُّقه الشديدُ بالأسبانية -وربما لكونها فتاة في مقتبل العمر- أضعف كل حجة، وأسقط كل منطق....

فما برح يتراءى له خيَالُها ... يكبرُ حتى ليغدو بوهجِ ملاَكٍ، يتنقل بين جبال السَّاحل، يلوّح لـه؛ بالانتظار هنيهة، حتى يكون عنده ...وبين هنيهة وأخرى يسمعُ صوتها يهتف به من بين الأمواج:

إنـي قادم .... إنـي قادم ......مُدَّ يدك إلي ... ها أنذا قريبة منك ... انتظرني ....

ويغدو الخيال حقيقة!!!

فقد اقتربت من سفينتنا إحدى السفن المتجهة إلى ميناء مليلةِ، وكان على ظهرها الفتاة الأسبانية زوج أبي، التي ظلتْ تحملق في وجوه الراكبين

حتى اكتشفتنا، وصرختْ بأعلى صوتها إنهم في هذه السفينة .. زوجـي ... زوجي...

فيفيق أبي على مُحيّاها، أيًّا كانَ جنون الانفعال ...

ويلتئمُ الشمل ...

ولسان الحال يقول :-

هـذا شـأنُ بنـات الأسـبان ... ودٌ فـي العُشْـرة ... وتعلُّـقٌ بفتيـان الغرَب... وتجاذبٌ لا يُقاوَم ...ووفاءٌ متبادل....

* * * * *

قلت لوالدي بعد أن هدأتْ أنفاسه، وانفرجت أساريره:

- لقد زالت الغُمّة، وعادت الأمور إلى مجاريها....أليس كذلك يا والدي؟!

- أجل يا بني!... أو يطيقُ المرء انسلاخ عضو منه؟ ألـم تهز هـذه الحـال مشَاعرَ صقر قريش عبدالرحمن الداخل، فأنشد يقول:

أيها الراكب الميمم أرضي

اقر منْ بعضي السلامَ لبعضي

إنَّ جسمي كما تراه بأرضٍ

وفؤادي، ومالكيه بأرض.

واستدرك ما كنتُ أقصد، قائلاً:

- ولكن هل تعود الأمور إلى مجاريها؟ من يدري؟!! كلٍ ما نعرفه أنـه لـن يهدأ لنا بالٌ، إلاَّ بعودة الأندلس....وعلت من أعماقه صيحة باكية:

وا أندلساه!... وردد الجميع من بعده: وا أندلساه!!

....

أرض العـــدوة

ويتبدى لنا بَرُّ العـدوة عنـد مغيب الشمس، حتـى إذا ضـربَ الليلُ أوتاد خيمته، رست سفينتنا بجهدٍ جهيد في ميناء مليلة الذي تزحمهُ بالسـفُن، ويكتظُّ عليه الخَلْق.

وأسرعنا إلى أزِقّة المدينة نبحث عن منَامَة، فلم نجدْ مكانـاً، وكـان من سبقنا من المبعَدين قد افترشوا الطرق، وملأوا الخطط.....

وكثيرون أولئك الذي عانوا المبيت فيها، وأخذوا يذمّون أهلها الذين لا يُطاقون، ومساكنها الضيقة، وجوّها الحار المختنق بالرطوبة ... فكانَ أنْ عزمنا على السّفر إلى أقرب مدينة لعلها تكون محط استراحتنا...

وقد أشـار علينـا بعضهـم أنّ مدينـة ((غساسـة)) تقـع علـى مسـافة عشرين ميلاً.

وَبكرَاءِ المضْطر، سرنا في قافلة صغيرة، ما أنْ أمستْ في العـراء حتى طُوّقت بنحو اثني عشـر مـن الأعـراب الفرسـان الذيـن أسـرعوا إلـى تجريدنا من المـال، وكـأنهم امتهنـوا هـذا العمـل منـذ تدفـق المبعـدون علـى شاطئ العدوة، وتحللوا من كل ذمة وخُلُقٍ شريف وَمَثَلهم المُقَدَّس:

((مصائب قوم، عند قوم فوائد))...

لم يُجْدِ معهم حديثُ منطق، ولا بلاغةُ حجة، ولم يُثْنِهم عـن فعلتهـم حياءٌ ونَخْوة ...وما شأنهم وطغيان إيزابيلا وفرديناند، أولئك الأعلاج الذين ما سمعوا يوماً بهم!...

وإذْ ظننّا أنّ الهلاك مصيرنا لا محالة، برزتْ كوكبةٌ من خَفَر السواحل، الذين ما أنْ لمحهم قطاعُ الطريق حتى ولّوا مدبرين، مخلفين لنا الراحلة وما عليها من زاد ومتاع، وقد كانت أنفع لنا مما سلبوه منا...

وانضمّ ركبنا إلى قافلة التجار المزودة بالحراسة الكافية... وكان التعويض الإلهي، بل لعلها نفحةٌ من ليلة القدر، إذْ مَنَّ اللهُ علينا بمعرفة شيخ تجار «المرية» الذي بادر بالتحية معرفاً بنفسه في حدود ما تسمح به بدايات التعارف:

– تاجرٌ من «المرية» ... مررتُ بمدينة مليلة، فوجدتُ فيها الذّعَر يُهيءُ النفوس للفرار، ويُسقط المدينة فريسةً للأعداء، فكان عزمي على رأس القافلة إلى غساسة، ومنها إلى مدينة فاس.

....

ولستُ أدري أي شعور انْتَابَني لحظتَها، إذْ نسيتُ كل عذابات الطريق وأهواله، وزال عني الكثيرُ من الهم، وكأني قرأت لحظتها خطوات المستقبل الواثق الواعد!...

وتصل قافلتنا مدينة «غساسة» مع خيوط فجر ندي أقمنا فيه صلاته ...

وإذْ النومُ سلطانٌ، فقد داعبتْ أناملُ الكونِ الفضّيّة الرَّطبةِ جُفُونَنَا المسهدة، وغَشيَنا النعاسُ على رواحلنا، إلاّ شيخ التجار الذي مضى لبعض أعماله في أنحاء المدينة الصغيرة، والذي عادَ، وعلى وجهه علامات الابتئاس والانقباض، يستعجل القافلة على الرحيل، قائلاً:

– لقد وطئنا أرضاً لا أمانَ فيها، ولشدَّ ما كانت الصدمة حين وجدتني أمام بغاةٍ يحكمون المدينة، وأضحيتُ كالغزال الذي فرَّ من الإنسان، فوقع في فم الأسد!...

وتسيرُ بِنَا القافلةُ صوب الجنوب الغربي في الطريق إلى مدينة ((فاس)) معقد الأَملْ، ومحط الرجاء، لشيخ التُّجار....

استأذنتُ والدي في الإقتراب من الشيخ، أستجلي منه حقيقة مدينة فاس التي نحنُ قادمون إليها، فقد علَقَ في ذهني ما كان يقصه عليَّ جدي من أخبارها أنها على مثال المدن الأندلسية، لكن فنادقها تعج بالقتلة، واللصوص، والمهربين، والمتجرين بالخمور وحشيشة الكيف، وأهل البغاء... وكيف لغرباء مثلنا يطيقون مبيت ليلة في هذه المباءة القذرة؟

هكذا كان أول حديثي مع شيخ التجار، الذي تبسَّم لاهتمامات فتىً مثلي لمّا يبلغ الحلم بعد!...

- إنها فعلاً على مثال مدننا الأندلسية، فقد بناها إخوة لنا من أهل الرَّبض بضواحي قرطبة، قدموا إلى المغرب، بعد أن فشلت ثورتهم على أميرهم الأموي الحكم بن هشام...وقد رحّب بهم الأمير إدريس الثاني، وعرض عليهم الإقامة في المدينة الناشئة، فاستجابوا لطَلَبه، ونقلوا إليها مظاهر العمران الأندلسية حتى أضحت مدينة مزدحمة بالسكان من ولد سام وحام....

ولا غرابة على إحدى المدن الكبرى المعدودة، التي يؤمها أخلاط البشر من عرب، وبربر، وعجم بمختلف نزعاتهم ومشاربهم، وأهوائهم، أن توجد فيها بعض فنادق ذات سمعة سيئة، لا يقْربُها إلاّ الأشرار، والتجار من بلاد الفرنجة....

قاطعته:

- ولكنها عاصمة الدولة الوطاسية، وطالما عُرِفتْ بأنها عرين أسود بني مرين، ومقر العز الذي لا يهضم، وكرسي الخلافة الأعظم... أفيعجز حُكَّامُها من غلق مثل تلك الفنادق؟

- تبدل منطق الحكام، وقد أوحتْ إليهم بِطانةُ السوء أنْ يحافظوا على مثل هذه الفنادق، لقاء خدماتٍ تُقَدِّمُها للجند إذا خرجوا في حملة، ولاعتبارات أخرى يصعب تقديم خدماتها من غيرها.

- عجيب أمر ما يجري!

وكيف يُزَيِّن لأولي الأمر؛ فيقبلوا اتباع الوسائل الشريرة لتحقيق الغايات الشريفة؟

تباً لأوضاعٍ انحدرت إلى مثل هذا الانحطاط!....

- إنّ ذلك يفسر حال التردي الذي آلت إليه الأوضاع بعامة...

وقد زُيِّنَ للحكّام أنّ الحربَ تبيحُ لهم أن يتواطأوا مع الرذيلة السّاندة لحملاتهم!...

ومهما يكن الأمر، فما زالت الجريمة عند ارتكابها تعرف بين الناس أنها جريمة ...وما زالت محصورة في نطاقٍ ضيقٍ من الأشرار....

عدتُ للقول:

- ولكن ((معظم النّار، من مستصغر الشّرَر))، ولولا أنّ شيخوخة العمران أخذت تدب في جسد دولتهم لما خذلوا مملكة غرناطة التي استنجدت بهم!....

- لهذا يا بنيَّ حديثٌ يطول ويتشعب، وتقتسمُ أُمةُ الإسلام وزرهُ جمعاء....

- كلي آذان صاغية...

- تاريخ العلاقة بين الأندلس والمغرب، تاريخ استغاثة، ونجدة، منذ دولة المرابطين، فالموحدين، وحتى دولة بني مريّن، الذين حلَّ محلهم الوطاسيون أبناء عمومتهم....

ومما هو مشهود للسلطان أبي الحسن المريني، انتقاله بنفسه إلى الأندلس مرتين، حرَّر في الأولى جبل طارق عام ٧٣٣هـ، وأرسل في الثانية جيشاً بقيادة ابنه أبي مالك سنة ٧٤٠هـ الذي انهزم وقُتل، فانتقل السلطان بنفسه، وتعرضَ هو الآخر للهزيمة، ووقع معسكره في يد الأعداء، وذُبِحَ أبناؤه...

ومن حينه لم يتجاوز إخوتنا المغاربة البحر إلى الأندلس.... فقد سادت المغرب اضطرابات داخلية، وتعرّض وما زال يتعرض لهجمات متتالية من البرتغاليين، وقد أردك حكام غرناطة حال المغرب الذي لا يُحسدُ عليه، فاستغاثوا بالسلطان العثماني بايزيد، لكنه كان مشغولاً بحروب البلقان، واستغاثوا بسلطان مصر الأشرف قانصوة الغوري، فإذا هو عاجز عن عون نفسه بَلْهَ غيره....

استوى الشيخ على راحلته، وتابع قائلاً:

- غير أني وإنْ كنتُ لا ألقي باللائمة إلاَّ على ملوك الأندلس ابتداءاً، لكن ذلك لا يعفي الأمة بأسرها من الوقوع في إثم التقصير، وتحمل مسؤولية سقوط الأندلس...

ومع ذلك فإني أفضل أن ننشغل بعيوبنا نحن الأندلسيين قبل غيرنا، فالعيب فينا يوم تخلّينا عن وحدة الأرض، والإنسان، والحكم، في شبه جزيرتنا الأندلسية، وتوزَّعَنا ملوكُ الطوائف إمارات متنازعة، وأغرتْهم

مطامحهم للانتصار بالأعداء ضد بعضهم بعضاً، حتى وصل بهم الأمرُ إلى تآمر الأخِ على أخيه، وقتل الإبن لأبيه حتى يخلفه في الحكم!...

وكانَ الوهن، والتدهور، والتمزق، والخيانة، سماتٍ بارزةَ في آخـر معقل أندلسي، والتي تمثلت في صراع أبي عبد اللـه الصغير مـع عمّـه الزّغل، وانجرار الصغير وراء وزراء خونة، ومستشارين رشَاهُم العُدوُّ، وقبضوا منه في الخفاء، فأقنعوا الصغير بقبول شروط العدو، وتسليم مفاتيح قصر الحمراء ومغادرة غرناطة!!....

وصمت شيخ التجار غير قليل، وتهتُ في مغزى صمتـه، ولعلّـه يغالب غُصّة الألم من وقع تلك النهاية التـي جعلتنـا نتقـاطر غربـاء مبعديـن في هذه الصحراء....

وتنفس تنفساً عميقاً استعاد به حديثه قائلاً:

– تلك هي شيخوخة العمران، وغروب شمسه في الأندلس...

لكن ما يزيدني ألماً أنّ الأمة وحكامها لم يتعظوا بما حَلَّ بـالأندلس، وها هي أرض العدوة المغربيـة تعيش حـال الانقسـام.... ومـا أشـبه الليلـة بالبارحة!....

اشتغال بالتهـالك علـى السلطة، وإثقـال كـاهل الأهليـن بـالضرائب، وأثرةٌ شديدة، ومغالاة فـي الأبهـة وجلبـة المواكـب الضخمـة .... وإفسـاح المجال أمام هجمات البدو على الفلاحين وقوافل التجار، وزحفهـم لتصحـير المدن....

وقد عجّلتْ هذه الظواهر من شيخوخة العمران، وعرّضـت البـلاد، لشقاء الاحتلال البرتغالي لعددٍ من حواضرها السّاحلية ...

واستدرك قائلاً:

وعلى أية حال، فإنَّ السلطان أبا عبد الله الوطاسي ينافحُ –ما أمكنه الظرف– عن مملكته ... وسنكونُ في حِمَاه، وهو على حدّ معرفتي به يُقرّبُ الأندلسيين ويستعينُ بهم، ويستفيدُ من مهاراتهم ومواهبهم، وتَقَـرُّ بِهم عينُه....

والتفتَ إلى من حولَه من الرّكب قائلاً:

أرانا قطعنا الكثير من صحراء (كُرْط) وقريباً نكون في مدينةِ تازةَ، ومازالت بيننا وبين (فاس) مسافة كبيرة ومفازة...وصاح الركب جميعهم:

– لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا،وأدركنا الغروب، وما في وسعنا الا أنْ نقيم في "تازه"ليله

رد علينا شيخ التجار معرفا بهذه المدينة التي تحتل مكانة رفيعة في مملكة "فاس" ولها حصن منيع، وتاريخ عتيد، ومكانة حربية، وأرض خصبة، وماؤها عذب وفاكهتها طيبة، وسكانها شجعان كرماء،يكثر فيهاالعلماء والأخيار والأثرياء.....

....

وبِتْنا فيها ليلةً غير عابئين –لشدة ما نالنا من الإجهاد– برِيْحها العاصف، وبردها القارس، ولا مبالين بأوْحالها المزعجة، وليوثها المفترسة وكم كان أُنْسي ليلتها لمرأى الأسَد، وقد أجفلت منه الوحوش، وتوقاه الأهالي، إذْ وَرَد ماء الجدول القريب، هازئاً بنباح الكلاب التي أقامت من حوله حلقةَ كرٍّ حَذر ..... وفرٍّ إذا حرّكَ رأْسَهُ أوْزأرْ ....

وتذكرت وصف المتنبي لمثل هذا المشهد في أحْماء طبرية:

ما قُوبلت عيناه إلاّ ظُنّتا   تحت الدُّجى نار الفريق حلولا ...

قلت لوالدي :

- ما أخطأتْ العربُ، حين اتخذت من الأسد مضـرب المثـل فـي الشـجاعة وتشبيه الأبطال به.

أضاف قائلاً:

- وما أحوجنا إلى أُسْدٍ تُسَد بهم الثغور!.....

....

وحتـى إذا كنـا مـن الغـداة شـددنا رحالنـا صـوب المثابـة الجديـدة، وألفيتَ كلاً منا يتدبَّرُ أمْرَ معيشـته، فيسـأل ذوي المعرفـة والخـبرة بمدينـة فاس، عن المهارات والأعمال المرغوب بها....

وكان شيخ التجار قد وَعَدَ والدي بتدبير عملٍ مناسـب لـه فـي ديـوان جبايـة الضرائب......

فـي المثابـة الجديـدة

لطالما استمعتُ إلى والدي، وهو يـردد مـا قالـه إدريس الثـاني فـي خاتمة خطبة الجمعة لما فرغ من بناء مدينة فاس :

((اللهم إنك تعلم أنـي مـا أردتُ بنـاء هـذه المدينـة مباهـاةً، ولا مفـاخرةً، ولا سمعةً، ولا مكابرةً .....

وإنما أردتُ أنْ تُعبد بها، ويُتلى كتابُك، وتقام بها حـدودك، وشـرائع دينك، وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم، ما بقيتْ الدنيا .....

اللهم وَفِّقْ ساكنها، وقاطنهـا للخيـر، وأعنْهُـم عليـه، وأكفهـم مؤونـة أعدائهم، ووَسِّعْ عليهم الأرزاق، وأغْمدْ عنهم سيف الفتنة والنِّفاق، إنك على كل شيء قدير))

وتطمئن نفسه إلى فاس، ويستطيب فيها المقام ....

وفي أكثر من مرة أسمعه يقول :

لكأني في غرناطة .... فأهلها، وعاداتهم، وتقـاليدهم لا تختلـف فـي كثير عن أهل غرناطة، بل إنَّ معظم الغرناطيين الذين وفدوا إليها يَحْظـون بمكانةٍ عالية وسط من تعجُّ بِهم المدينة، من ولد سام وحام.

....

عزف عن الذهاب إلى جبال الريف، واستقر في الحي الأندلسي.....

وأكَبَّ على عمله في ديوان جباية الضرائـب، متنقـلاً بين الأقـاليم، فيمـا أودعنـي لـدى مدرسـةِ الجـامع أُكمـل فيهـا دراسـتي الأساسـية، ولا يصحبني معه إلاَّ إلى جبال الريف، ومنـاطق إقليم فـاس، الذي تقوم فوق

رُبَاه قُرى كثيرة، وكبيرة جداً، وكأنما كان يؤهلني لحياة الترحال، واكتساب بعض المهارات النبيلة، ومعاملات التجارة، في الوقت الذي يملأ عليَّ عهد الصبا الذي لم يتشبع بدفء غرناطة، وحنان مروجها ....

وفيما حرصتُ على أنْ أخفف عن والدي متاعب العمل، كان يُصبر عليَّ أنْ أواصل دراستي في جامع القرويين، غير أنَّ الزيارة الأخيرة التي قدم فيها شيخ التجار بعد غيبة طويلة غيَّرت ما كنَّا بصدده ....

قدَّم في بداية اللقاء اعتذاره عن غيبته الطويلة، قائلاً :

- لقد اضطررتُ للتفرغ لبعض أعمالي التجارية، التي ما كانت طمعاً في زيادة الثروة، ولا انغماساً في دُنْيا الملذات ....

فقد عَظُمَ الخطب، واشتدَّ الكربُ على أهلها في الأندلس ورأيت وبعض التجار والمقتدرين من أهل الخير، أنْ نسخر تجارتنا لقضاء مصالح المنكوبين، والمتضررين، وفكّ رِقَاب، ومُفَاداة أسْرى في العدوة الأندلسية....

تبسَّم والدي، وهزَّ رأسَه كمن اكتَشَفَ سرًّا، وأسرع قائلاً له :

- إذن فأنت هو؟

- رد شيخ التجار متسائلاً:

- ومن هو الذي تقصد؟

- شيخ تجار غرناطة، والمرية، ومالقا، الذي عُطِّرت بِذِكْرِهِ الحسن المجالسُ في غرناطة قُبيلَ الرحيل.

إنّ تواضعك، وتقْوَاك، يزيدانك رفعة، ومكانة في نفوسنا ... فنحن لم نعرف طوال رحلتنا معك، أنك المقصودُ به الحاج مصباح أبو الضياء ... فالأسماء تتشابه ....

أَمَا إِنّي لأَطمَعُ أنْ يُلازمك ابني، يتعلم على يديك، ويكون عوناً لك...

- أما أنا فقد جئتُ من أجل أنْ نذهبَ سويًّا لمقابلة السلطان ....ويُشجعني على اصطحابكما، تردُّدُ اسميكما في القصر ....

- ولماذا المقابلة؟

- لقد أرسل السلطان في طلبي، صباح يوم غدٍ ومعي من أرى من الفتيان النابهين ... ولكني لا أدري بمراده، غير أن السلطان لا يرسل إلاَّ في طلبِ مهامٌه كبيرة!....

ثم التفتَ الحاج مصباح، إلى والدي على وجه الخصوص يطمئنه قائلاً :

- إنَّ ابنك وأمثاله من فتيان الأندلس محطٌّ أملنا، ولن نَخْذُلَهم في صنعة وطلب علم، وإني لأربأ بنفسي أنْ أرى الواحد منهم فارغاً، عالةً على الناس.... ولعل التاريخ يدبّجُ الأسفار بسيرتهم العطرة لـ ((فضائل الأندلس وأهلها)) فهم ((الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)) و ((قلائد العقيان ومحاسن الأعيان)) أعمالُهم ((مطمح الأنفس، ومسرح التأنس)) ...وإني لأراهم ((الدُرَر الكامنة في أعيان المائة الثامنة)).

* * * * *

تداعيـــات أندلسيـــة

في بلاط السلطان

سَبَقَنا إلى السَّاحة الشرقية من القصر، جمعٌ كبيرٌ، وجُلُّهم من المـلأ من قوم غرناطة، وما جاورها من مدن الشاطئ، يتقدمهم ((أبو الحسن علـي المنظري))، أحَدُ قادة الجيش الأندلسـي الغرنـاطي، وأحـد رجـال ((الزّغـل))، ومن المشاركين في ثورة البشرات والجبل الأحمـر، أسـرعَ الحـاجُ مصبـاح صوبَ الرجل، يخترقُ المناكب المتزاحمة، حتى وصـل إليـه، وعـرف منـه أنّ الاجتماع العظيم هذا، إنما هو احتفالٌ بإنجاز إعادة بناء مدينة ((تطـوان)) التي وجدها ((أبو الحسن المنظـري)) -لـدى وصولـه مـن الأندلـس- خَرِبـةً، فاستأذنَ السـلطانَ أبا عبد اللـه الوطاسـي فـي عمارتها بـأيديْ النــازحين الأندلسيين.

وفي لحظات انتظار قدوم السلطان، سرى همسٌ قَلِق وسط الجمْـع، يرددُ بامتعاضٍ توقع حضور ((أبي عبـد اللـه الصغير))، غـير أنّ المنظـري سارع إلى تبديد الشائعة، وبصوت مسموع قال:

- ما أظنُّـه يجـرؤُ علـى الحضـور، وسـط جمـع لا ينسـى لـه يـوم الخِـزْي، والنَّدامة، وهو يُسَلِّم غرناطة للأعداء.....

إنه قابعٌ مع نفرٍ من وزرائه، وأهل خاصّته في حيٍّ منزوٍ وهو قليلُ الحركة، يتوارى من القوم لسوء ما فعل !!....

أسهم الحاج مصباح في الحديث، وكلُّه حُرقةٌ وألم، قائلاً:

- ويا لَسُوءِ ما فعل الصغير!... فقد آثر ومنْ موقع الضّعف لا القوة، السّيْرَ في المفاوضات مع عدوٍّ قَوِيٍّ، أفرط في الثّقة به، وقدَّمه على عمّه ((الزّغل)) الذي احترب معه، وسبقه إلى التوقيع على معاهدة الاستسلام، التي على شؤمها سرعانَ ما نكثها العَدُوّ....

وكان أولَى بالصغير، وعمه الزّغل أنْ يوحدا الجهود، ويكتّلا الجموع، ويَشْهَر السلاح في وجه الأعداء الحقيقيين....

غير أنَّ أنانية الحاكم، وحبّه لذاته، وخوفَه على فَقْد سلطانه، وإحساسه بالضعف، غالباً ما يدفعه ذلك إلى استخدام العُنف ضد أهله، ومنازلتهم بظلمٍ وشراسة، وبلا هوادة حتى يهلك ويهلكوا، أو تنبذهم الأمة، من بعد حبٍّ وتقدير...

وتحدَّث عينٌ من أعيان غرناطة، مؤكداً على حديث الحاج مصباح، قائلاً:

- تحضرني النهاية المخزية لكلٍّ من ((الزّغل)) و ((الصغير)) فأمّا ((الزغل)) فقد اضطر إلى بيع أملاكه إلى الأسبان، وإلى مستشاره العميل يحيى النّير، الذي كان سبباً في هزائمه، واستسلامه....

وقد عبر ((الزّغل)) المضيق إلى المغرب، ليجدَ جزاءَ تخاذُله، فقد ألقى سلطان فاس القبض عليه، وسمّلَ عينيه !!... وتركه يستجدي الناس إمعاناً في إذلاله!!....

وأمّا أبو عبد الله الصغير، فتحضرني حالهُ البائسةُ اليائسةُ، حين خرج مع نفرٍ من أتباعه، من عاصمة بني الأحمر، بعد أن سلّمها في آخر يوم من شهر صفر عام ٨٩٧هـ.

فقد قام بأداء مراسيم الذّل والهوان، إذْ وقفَ على قنطرة ((نهر شنيل)) ينتظر قدوم الموكب الملكي الأسباني، ثم تقدّم من الملك بانكسار، ما

عهدتْهُ النّفسُ الأبيةُ، وقبّل ذراعَهُ اليمنى، وسلّم في ذات الوقت وزيرهُ يوسف بن كماشه، مفاتيح قصر الحمراء للأسبان، ومعها ما تبقى بيده من الحصون....

وقبيل تحرك الصغير إلى وادي ((الكريْن)) تحنَّنت عليه الملكة إيزابيلا، بعاطفة الإذلال، وأعادت إليه ابنه، الذي كان رهينةً لديها، ولم تعد بحاجة إلى استبقائه بعد أنْ سقط ملك أبيه!..

وعندَ الصَّخرة، في حوزة الوداع، من جبل الرَّيحان، بِظاهر قصر الحمراء، وقف الصغيرُ ينتحب، باكياً فراق غرناطة، وقصر الحمراء، وكأنما يستحضرُ نهاية ثمانمائة عام على يديه!...

فيبلغ ذلك أمه عائشة التي كانت قد سبقته في الخروج، فوبَّخت بكاءَه العاجز، وقالت فيه ما يَسري على كل الذين هم على شاكلته عبر مختلف العصور:

ابك مثلَ النِّساء مُلْكاً مضاعاً

لم تُحافظْ عَليه مِثْلَ الرجال!....

هاجت مشاعرُ والدي، إذْ تذكرَ لحظةَ أخذهِ رهينة، وشارك في الحديث قائلاً:

- لقد طرقَ بابَ دارنا قبيلَ فجر يوم التسليم، فإذا نفرٌ من ضباط الوزير المليْح يستعجلوني في ركوب فرسي، والتحرك مع الركب الذي أخذ يكبر عدده، كلما اقتربنا من ساحة الطلبة، بالقرب من قصر الحمراء... وكان في انتظارنا هناك ألف من جنود أبي عبد الله الصغير، والذين ما أن اكتمل عددنا خمسمائة راكبٍ وراجل حتى تحركوا بنا، يَتَقدَّمنا الوزير المليْح من أمام باب الطّباق السبع، مروراً بمحاذاة الأسوار، حتى

خرجنا من المدينة من باب نجد، وبلغنا نهر (شنيل) ونحن لا ندري من أمرنا شيئاً....

وعند النّهر استدار الوزير الملَيح نحونا، ليبلغنا لحظتها، أننا رهائن، وأنه قد وقع الاختيار علينا من بين أعرق أُسَرِ غرناطة، حتى تتم عملية التسليم بهدوء، وليتمكن جنود الملك فرديناند من دخول المدينة، والقصر دونما خوفٍ من وقيعةٍ أو مكيدة!....

ثم تحرّك بنا الملَيح مسافةً قصيرة غرب النّهر، حتى بدت كوكبةٌ من فرسان قشتالة، قامت بتطويقنا، بينما عادَ جنودُ الصغير إلى المدينة... واقتادتنا الكوكبة إلى معسكر ((سانتافيه)) الذي أقاموه مؤخراً بحجارتنا العتيقة...

وإذْ أصبحنا رهائنَ في معسكر الملك فرديناند، عاد الوزير الملَيح إلى غرناطة، مع عدد كبير من الضباط المسيحيين، حتى وصلوا ((بُرْجَ القمر)) في قصر الحمراء حيث كان ((الصغير)) في انتظارهم، ليسلمهم مفاتيح الحصْن ... ثم جابوا خلال ديار القَصْر، واستوثقوا من الأسوار... وإثْرها رَفَعَ راهبٌ صليباً فوق ((بُرج المراقبة))، وانطلق الجنود يهتفون:

قشتالة ...... قشتالة ..... قشتالة.....

....

ويعود المجاهد أبو الحسن المنظري ليمسك بزمام الحديث، مشيراً إلى الملأ من قومه الذين انتقلوا معه قائلاً:

- لقد هاجر معي هذا العدد الجمّ من كبار أهل غرناطة، وقوادها وفقهائها، وعلمائها، وأعيانها، من بعد جهاد وثورة .... وهم لا يقبلون ولا يطيقون رؤية من يفسد عليهم جمعهم هذا ....

وأردف قائلاً:

إنَّ جمعاً كهذا، في عُلوّ همّة، ومضاء عزيمة، يشجعني أن أستأذن السلطان الوطاسي في أنْ ينتظم في قوافل، تجول في المدن تحثُّ على وحدة الأُمة،والوقوف صفًا واحداً لصدّ هجمات البرتغاليين والأسبان، والاستفادة من دروس المحنةِ الأندلسية، وما خلّفه صراع ملوك الطوائف، وانقساماتهم من دمار وانهيار!.....

استغرب أحد الحاضرين من أهل البلاط أن يوصف عصر ملوك الطوائف بالدّمار والانهيار، واستدرك ذلك بما يعتقد، قائلاً:

- ((ولكن عصر ملوك الطوائف، عصر تفوقٍ علمي، وحصاد فكري يانع، ويُعد بغير منازع ألمع عصور الأندلس جمعاء، وأزهاها، وأعظمها ثروة بالعلماء والأدباء، وبما ألّفوه من أمهات الكتب، وقدّموه من إبداعات العلوم والفنون...))

صحّح له المنظري انطباعاته قائلاً:

- لم يكن هذا الوجه المشرق الوضاء في حياة الأندلس العلمية، وليد عصر الطوائف، فالعصور لا تُولَد مستقلة عما قبلها، ولا تمضي دونَ أنْ تؤثر على ما بعدها، ففضل هذا التفوق يعود إلى العصر الأموي، وإلى الولاة المجاهدين من قبلهم....

إنه وليد أزمنةٍ متعاقبةٍ، شهدتْ أعمالاً بنائية عظيمة.... وفيها من التنوع في شتّى العلوم، والفنون، والآداب، ما جعلها عنوان العمران الراقي في ظل وحدة الأمة، ودولتها وأرضها....

ولقد اقتات ملوك الطوائف على قوة ذلك العمران، حتى اختلفوا في أمرهم، وتفرقوا دويلات يكيد بعضهم للبعض الآخر، وأعطوا من ثم الدّنية في دينهم وقدّمُوا ((الجزية)) لأعدائهم عن يد وهم صاغرون!!....

ولعلَّك سمعتَ بابن هود، أحَدَ ملوك الطوائف، والذي لقَّب نفسه ((بالمتوكِّل))، وتعاون منذ البدء مع الأعداء ضد دولة الموحدين، نكايةً بهم! فأخزاه الله بنهايةٍ ماجنةٍ، اغتيل فيها لأسبابٍ نسائية في ((المريَّة))....

عاد صاحبُ البلاط متسائلاً حول حقيقة الصِّلة بين ملوك الطوائف، وعلماء الأندلس وأدبائها، فرد عليه المنظري قائلاً:

- إنَّها غالباً ما تكونُ علاقة اضطرار، سرعان ما يفسدها جهل الأمراء، وسوء أفعالهم، التي تكاد تصيب بسهامها العلماء بين لحظة وأخرى، فيصدفون عنهم، وينْحَسِرون عن خدمتهم، ويؤثرون الانصراف إلى العلوم والمعارف....

ويحضرني هنا ما عاناه اتِّصال العالم ابن السيد البطليوسي ببعض أمراء عصره من بني ذي النون، وابن رُزين، والمستعين بالله بن هود حيث ((خَدَم الرياسات، وعلَّم طرق السياسات)) فلما استنفدوا طاقته آذوه، وتآمروا عليه، فما كانَ مِنْه إلاَّ أنْ تحوَّل عنهم وانقطعَ لحياةِ التعليم والتأليف!....

وهذا بخلاف ما كان عليه حالَ العلماء، حتى في العصور المتأخرة أيام دولة الموحدين مثلاً.....

فالعالم الجليل البارع في العلوم والحكمة، أبو بكر محمد بن طفيل، ابن مدينة وادي آشن، القريبة من غرناطة، أُعْجِب به السلطان أبو يعقوب

الموحدي فصحبه معه إلى مراكش عاصمة ملكه، وكان طبيبه ووزيره، وكان بينهما مجالات للحديث في كل ما يَخْطُر للخليفة على بال.

ولما تقدمت بابن طفيل سنُّهُ أشار على الخليفة، بابن رشد، بينما ظلَّ وزيراً له ثم وزر لابنه المنصور بعد ذلك.

وقد استدعى أبو يعقوب- ابنَ رشد إلى مراكش، من قرطبة التي كانَ قاضياً لها، وأصبح طبيب الخليفة، ولما توفي أبو يعقوب وولي الخلافة من بعده ابنه، قام بتعيينه طبيباً ووزيراً....

ولما أقدم الخليفة على حرق كتب الفلاسفة، ومنها كتب ابن رشد، وانفعل عليه ونفاه إلى جوار قرطبة، سرعان ما خَطَّأ الخليفةُ نفسه، واستعاد ابن رشد إلى البلاط، ولكنه كان قد كبُرَ وأصابه المرضُ، ولم يلبث أنْ وافته منيته....

وكان بيننا تاجر حميري يتابع هذه التداعيات الأندلسية التي تشبه الندوة، وتدخل في الحديث قائلاً:

- أنتم تتحدثون عن ماضٍ بكل حسناته وسيئاته، وأنا أحدثكم عن حاضر أُجْهِدُ نفسي في البحث فيه عن الشيء الحسن، في المشرق، فلا أجِدُ الأمراءَ يَعُونَ مسؤولياتهم، ولا العلماء إلاَّ قلَّةٌ محاربة، بعد أنْ كان المشرق مَبعث النور، ومركز الهداية....

شهدتُ جدلاً بين أمير مشرقي، وعالم فاضل....

قال الأمير مخاطباً العالم:

- إنّ أحاديثك عن الشورى، ووحدة الجماعة لم تعد ذات بال، فأنت تتحدث خارج الواقع، وتبدو كمن يحرث في بحر، ولا حاجة لعلمك هذا، ولدينا من العلم ما يُغْنينا عما تطرح، وقد بلغْنا مطامحنا وانتظام إمارتنا!....

استفزَّ بغروره هذا، العالم الجليل، فردَّ عليه بشدة قائلاً:

- ما هكذا تُفهم الإمارة ... وفاقد الشيْء لا يعطيه ... فأنت لم تبلغ مطامح الأمة، والخوف حين يُوسَّد الأمر إلى غير أهله... وقد أضحى ذلك واقعاً...

ثم انتقل إلى موقع الناصح الأمين قائلاً:

إني لأطمع أن يجتمع فيكم ما كان عليه الرعيل الأول من الخلفاء الراشدين، لتدركوا عظم الأمانة، وتعملوا للأمة .....

قاطعه متسائلاً باستغراب:

- وما هو الذي اجتمع فيْهم ، وتريد أن يجتمع فينا؟

أجاب العالم:

- أنْ تكونوا أمراء وعلماء في آنٍ معاً.

وبعد أن انتهى التاجر الحميري من رواية المشهد المشرقي أخذ يدعو الحاضرين إلى أنْ يفكروا فيما يَنبغي أنْ يكون عليه مستقبل الأمة، وألاَّ يَجتروا مآسي وهموم الماضي قائلاً:

- عيشوا الأمل...أحبوا بملء قلوبكم..... اعشقوا الحياة الطيبة.... لا تبتئسوا .... دعوا البسمة تضيء وجوهكم....فالنفوس المشرقة هي القادرة على التغيير والإصلاح...وأيًا ما كانت الهموم وعذاباتها فإنَّ النفوس العظيمة هي التي لا تثنيها الآلام، بل تتسابق معها وتتجاوزها في تحدٍّ شامخ....

* * * * *

ويقطع علينا تداعيات الحديث دخول السلطان إلى إيوان القصر، إذْ تحركنا لمصافحته، وقد وقف إلى جواره كبار قواده، ووزرائه، يومئون لنا باتخاذ مجالسنا....

وخَيَّم على القوم صمت الانتظار لما سيقوله السلطان....بينما أَخَذْتُ أتأَمَّلُ في هندسة القصر، وروعة بنائه، ورونقِ إيوانه المزدان بالخشب المحفور، وبالأقواس المزخرفة، والجدران المنقوشة بالفسيفساء، وقد بُثَّتْ في حواشيه النمارق والزَّرابي...

وأصغيتُ -ولعل غيري أصغى معي- إلى همس الماء المنساب في دعة حالمة، داخل الساقية الممتدة أمام الإيوان، وقد ازدانت جنباتها بألوان الورود والرياحين، وتجملت حديقة القصر بأشجار التين والزيتون، والبرتقال والليمون، لتكتحلَ العيون ببديع جمالها، ويتنسم من في القصر عَبقَ عبيرها، وتتراقص القلوب مع رفيف هوائها النّدي....

أبصرني والدي هائماً في ما أرى، فشدني إلى الأندلس، قائلاً:

- إن ما تراه هو دون (جنّات العريف)، وقصر الحمراء، جمالاً، وإبداعاً....

فهناك الجنَان المعلّقة الممتدة على سفح الجبل، بأشجارها الظليلة التي لا يُفارقها النّدى، ولا تغيب عن أفنانها البلابل الصّادحة، تعزفُ مع خرير سواقيها، وعيونها الدفاقة، شجيَّ الألحان، وأعذب التغاريد والأنغام، ناشرةً معها أريج أزهارها ورياحينها....

وإذْ شرع يحدثني عن قصر الحمراء، كان السلطان قد استوى في مقامه، وأخذ يحمد الله ويثني عليه، ثم أزجى الشكر للقائد المجاهد أبي الحسن المنظري، ومن معه من المهرة، والبنّائين، والصناع الذين شادوا

مدينـة تطـوان، كمـا شـادوا مـن قبـل مـدن الأندلـس... طـالبـاً مــن العلمــاء والفقهاء، والأعيان ، والتجـار، وأربـاب الحـرف أنْ يبعثـوا فيهـا الإزدهـار والتفوق....

وفي نهاية اللقـاء قـرَّب منـه القـائد المجـاهد أبـا الحسـن، وكلَّفـه أنْ يكون أحَدَ عيونه السّاهرة على شطآن مملكته... ونُودِيَ بالحاج (مصباح أبو الضياء) شـيخاً لتجـار فـاس، بينمـا جعلنـي -بعـد حديـث خـافت مـع والـدي والحاج مصباح- أحد مؤتمنيه في شؤون المال....

وما لبثتْ أنْ توطدت علاقتنا بالسلطان، وبلغتْ ذروتهـا حيـن أسـند إلينا سفارة السودان، والتي كانت بداية حياة جديدة من الترحال بين الملوك، والسلاطين والشعوب والبلدان.

* * * * *

الدّاخـل الأندلســـي

وسلطـان الآخـر

ما كاد لقاء البلاط ينفضّ، حتـى بـادر أبـي إلـى اسـتضافة القـائد المنظـري، والحاج مصباح...

وحول وجبة ((البائية)) المفضلة لدى أهل غرناطة طـاب الحديـث، وتشـعبت فروعه...

سمحتُ لنفسي أن أكون البادئ في الحديث قائلاً:

كما أنّ ثقة السلطان توجب التهنئة، لكنها قـد تكـون شـاغلة لنـا عـن نصـرة الأهل في الأندلس....

وتحدّث الحاج مصباح قائلاً:

– ما أظن أنّ الأعمال التي أُسنِدت إلينا من قِبَل السلطان، تلهينا عن واجبنـا تجاه أهلنا في الأندلس... وإني أراها قنطرة ممتدة بين العدوتين، لعبـور جهودنا وجهادنا.... وأعتقد أنه قد آن الأوان لتنظيم عملنا....

فالعمل الذي أسنده السلطان إلى القائد أبي الحسن يُمكِّنَنَا من الرصد، ورسـم خطط المقاومة...

وأمّا عملنا في مجال المال، والتجارة الواسعة، فأمرٌ نُؤمِّمُ به أعمال المقاومة ونصرة المسـتضعفين، ومفـاداة الأسـرى، ورعايـة أسـر الشـهداء، ومساعدة المنكوبين والمحتاجين....

وأرى أنْ نجند عدداً من ذوي الدراية بسـكان المـدن الأندلسـية مـن المتقدمين في السِّن، ليكونوا واسطة اتّصال....

وأكد القائد المنظري رأي الحاج مصباح قائلاً:

- وإنّ عملاً عظيماً كهذا، يلزمه مشاركة واسعة، ودقة في الأداء، وسرعة في التحرك...وما أظننا معنيين بالأمر بمفردنا، إنْ لم يكن قد سبقنا غيرنا إلى الشروع فيه......

فالمأساة قد حلت بالجميع....وأضحت مواجهتها فرض عين لا فرض كفاية....

....

وتَتَتَالَى اللقاءات، وتنتظم الرؤى، وتتسع دائرة العمل، ونقف على أخبار الرّصد، والأهل....وكانت لا تحمل إلينا إلاَّ أسوأ ما كره التاريخ ذكره، وأنكر فعله!....

أمطر العدُوُّ أهلنا بوابلٍ من قراراته، وأوامره القسرية الهمجية...أذاقهم أقسى صنوف التعذيب، وأَمَرَّ حماقاته الوحشية.... قام بتغريب من بقي داخل الوطن الأندلسي، وعزلهم وسط المجتمع القشتالي....وعُرِفوا بالموريسكيين حتى لا يحظوا بحقوق المواطنة الكاملة....

حرّم عليهم اللغة العربية والتّسمي بأسماء عربية!....

حرّم عليهم الطهارة والاستحمام، وأجبرهم على ترك أبواب بيوتهم مفتوحة في أيام عيدي الأضحى ورمضان، لمراقبة ما يجري في بيوتهم، والحيلولة دون أداء الصلاة....

أجبر النّساء العربيات على كشف وجوههن حينما يسرن في الشارع، حرّم عليهم حملَ السلاح، وصادر ما بحوزتهم منه....

حرّم عليهم ذبح الأنعام....

فرض عليهم ضرائب خاصة عُرِفت بالفارضة....

حرّق ما تبقى لديهم من كتب المعرفة، والتراث....وقُدّر ما أحرق منها بقرابة أَلْفَ أَلْفَ كتاب، ومخطوطة....

وليتَ الأمر توقف عند هذا الحد من العسف، والاضطهاد، بل تمادى العدو في الحقد الذي تبرأ منه دين المسيح عيسى عليه السلام فقد نَصَبَ لأهلنا في الأندلس محاكم التّفتيش.....

وَوَصلَ بِه حقده الأسود الدفين، إلى حرق بعضهم أحياء، وتهجير الكثيرين، وتعذيبهم بالأشغال الشاقة، وسبي النساء والأطفال....

وترتفع صرخات أهلنا مستغيثين من جرّاء ما تلحقه بهم محاكم التفتيش من تنكيل وتدمير...

وتُصَوِّرُ إحدى الرسائل التي تلقيناها، هَزَلِيَّةَ محاكم التفتيش....إذْ تقوم المحكمة بالتفتيش التمهيدي، الذي يبدأ بإدلاء شخص بشهادته أمام رهبان، مقررين، أَعْمَاهُمُ الحقدُ، وأصمَّهمُ الجهلُ، فيسرعون إلى إدانة من أُلْبِس تهمةً ليُزَجَّ به في السجن، دون أن يدري لذلك سبباً.... ثم ينذرونه في ثلاث جلسات متتالية، للإعتراف بذنبٍ لم يقترفه...ويُخَيَّر بين الإقرار به، فيُعاقب دون رحمة، وبين إنكاره فيعذب حتى يتفوه بما لم يقترف ولا يعرف به...أو أنْ يموت تحت وطأة التعذيب!....

ثم تُرفَعُ نتائج التحقيق إلى القساوسة المفتشين، تمهيداً للحكم النهائي الذي يُدَان فيه غالباً، ويُوعَز إليه أنْ يُعلِنَ التوبةَ، ويَطلبَ العفوَ من البابا لقاءَ دفعهِ أموالاً طائلة، يُعطى بموجبها شهادةً بطهارته منَ الذنوب!!....

وإذا ما قدَّر القساوسة المفتشون أنَّ التهمة المنسوبة إليه كبيرة، فإنهم يحيلونه إلى ساحة التنفيذ التي تمر بسلسلة من الطقوس، تبدأ بمرسوم

((الإيمان))! وارتدائه ((الثوب المقدس))، ووضع حبل حول عنقه، وشمعة في يده، ويُتلَى من بعد ذلك الحكم عليه بالسجن المؤبد، ومصادرة أمواله كاملة...

وإذا ما كانت التهمة بالكفر الصريح، فإنه يُعدم حرقاً بالنار....

إنَّهم يتشبهون بصاحب الأخدود الذي ألقى بالمؤمنين في أتونه ((وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلاَّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد))...

فأين هم ممن عناهم قول الله تعالى:

﴿ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا ، الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأنَّ منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾.

....

وتتواصل أعمال المدد والعون والإغاثة....

وتُغَذَّى الثورة والمقاومة بمختلف وسائل التعبئة....

وتتحدد مراكز الاتصال في جبال البشرات، ((وغرناطة))، و((المرية)) و((مالقا))....

ويتولى كل من ابن الزكري، وابن النَّجار، والرعيني والعبسي، وابن جمعة، وابن ربيعة، والخولاني، وبنيغش، توصيل التعليمات ، والإمدادات، ونشر الفتاوى، والإشراف على رعاية المستضعفين، ومفاداة الأسرى، والمحكوم عليهم في محاكم التفتيش، ورعاية المهجرين من غرناطة إلى مدن وقرى مملكة قشتالة، والحفاظ على الروح الأندلسية، وتعبئة الأهل في الداخل ضد سلطان الآخر، وبث شائعات الرعب وسط القشتاليين باقتراب اجتياح العثمانيين لهم...

وتشتد المقاومة، وتعم سائر بلاد الأندلس...

ويزداد أهلنا تمسكاً بأندلسيتهم، ويحافظون على مهارات، وحرف الآباء والأجداد وصناعاتهم، فيحذقون صناعة الخزف، ونسج الحرير، وفنّ النجارة، والحفاظ على الفن المعماري الأندلسي، وتزيين الحدائق، والإكثار من الرياحين التي يستنبتها العرب في دُوْرِهم...

وكلما شدّد العدو من إحكام قبضة الحصار، أفلتوا منه بحكمة، واستغفلوه بهدوء....

ومن ذلك أنه لمّا حرم عليهم التحدث بالعربية، اخترعوا لأنفسهم لهجة أندلسية هي مزيج من القشتالية والعربية...

وتمكن بعض المهرة من حياكة ثوبٍ جميل قشيب نُقِشَتْ عليه بخيوط من الذَّهب، بخط كوفي، كلمة ((لا غالب إلاَّ الله))، قُدِّم هدية إلى البابا الذي أعجب به، وارتداه على غير دراية بما كُتِب!!....

واخترع بعضهم نوعاً من الكعك بشكل الهلال، أشهى مطعماً، وألَذّ مذَاقاً من عجينة الصليب، غزا موائد الإفرنجة، وعلى الأخص عند الإفطار، وقد عُرِفَ فيما بعد باسم ((كرواسة))!....

والتقى الفن ((الموريسكي)) بفن ((المدجنين)) الذين عاشوا قبل سقوط الأندلس تحت الحكم القشتالي، وعملوا جميعاً على نشر الفن الشعبي في عموم شبه الجزيرة الأيبيرية، وما جاورها من بلاد الفرنجة....

وإذْ ضيّق العدو الخنَاقَ على الأندلس، للحيلولة دون أداء الشعائر الدينية، وأحكام الشريعة الغرّاء، نشأ وسط هذا التضييق ما عُرِفَ بفقه

الإضطرار....وتأتيهم فتاوى التكيُّف الاضطراري، من فاس، وتلمسان، تخفف عنهم الحرج ((وما جعل عليكم في الدِّين من حرج)).

....

تصاعدت أعمال المقاومة، ولم تُسلِّم للعدو بالغلبة، على الرغم من إطباقه على كل شيء، وبطشه بمن يعترض على قراراته الجائرة....

ويضعنا القائد أبو الحسن المنظري في أحد اللقاءات على القرارات التي أصدرها الملكان الطاغيتان (فرديناند وإيزابيلا)، القاضيةِ بتنصير جميع مسلمي قشتالة وليون، ومنع اتصالهم بمسلمي غرناطة، ومعاقبة المخالفين بالموت، والمصادرة لأموالهم وممتلكاتهم.....

وكان لابد من إرباك العدو، ومحاولة التخفيف من وطأته...

ويستقر الرأي على إشعال المقاومة في ((المرية)) و ((رندة)) لتمتد في وقتٍ لاحق وسط إخوتنا المنفيين في ((بلد الوليد)) ، و((بشترته)) و((بطليوس)) و((أبدة)) و ((أشبيلية))...

ويبشرنا الحاج مصباح أبو الضياء بأنه تمكّن من إرسال العون المالي إلى أهلنا في ((بلنسية))، و((سرقسطة))، وأنه خفف من فداحة المبلغ الجائر الذي طلبه منهم الملك، والذي بلغ ((أربعين ألف)) دوقة ذهبية لقاء تخفيف شروط التنصير، وأنّهم يتهيئون للقيام بثورة عارمة، تمتد حتى نهر شقر، فتكون بذلك معظم البلاد الأندلسية ناراً متقدةً على الأعداء....

ويضيف قائلاً:

– وإنّ الفرصة مواتية لأنْ نسعى إلى التحالف مع بروتستانت فرنسا، ونجدد الاستغاثة بالعثمانيين، ونستنهض همم إخوتنا المغاربة خاصةً

وأنّ العدو أخـذ يصـل إلـى ((مليلـة)) لاحتلالهـا، بينمـا احتـل البرتغـاليون مدينتي ((طنجة)) و ((أغادير)) على الساحل المغربي...

قلت وقد غلب عليَّ الانفعال:

- ينبغي ألا نشتت جهودنا في مالا طائل من ورائه...

فالتحالف مع ملك فرنسا لن يزحزح جبروت كاثوليك أسبانيا الذين يعيشـون عنفوان شبابهم....

وتجديد الاستغاثة بالعثمانيين لن يجـد اسـتجابة فوريـة، خاصـة وأنَّ اسـماعيل الصـفوي أشـعل عليهـم فتنــة التمــرد الداخلــي فــي الأنــاضول، والمعروفة بحركة ((قيزلباش))، ولمّـا تـزل الخلافـة العثمانيـة فتّيـةً، منشـغلة بفتح البلقان....

أما إخوتنا في المغرب فإنّهم في أمرٍ لا يحسدون عليه، فبينا تُغْـزَى مـدن السـاحل المغربـي، وتسـتباح بيضـة الأمـة، تجـد عـامّتهم سـاهين عـن مسؤولياتهم يهتزون لألحان الطرب، ويتمايلون في مجالس الدروشة!...

تدخل والدي بحكمة المصابر قائلاً:

- إننا أصحاب قضيــة مأسـاوية كبـيرة، وعلينـا أن نطـرق كـل بـاب يحمـل بارقــة أمــل، وألا نفقــد الثقــة بهــذه الأمــة مهمــا أطبــق عليهــا ليـــل الأزمات...فهي ((خير أمة أخرجت للناس)).

وإنَّ طريق النصر في معركة الحق مع البـاطل تمـر عـبر مفـازات ووهاد وعرة وشاقة، لا تقوى على اجتيازهما إلا الهمم العاليـة التـي تترسـم خطى حملة الرسالة أخلاقاً، وسلوكاً، وعمران حياة...

وإنه لفرقٌ كبير بين هذا الصنف مـن حملـة الرسـالة الذيـن أهدونـا هذه الرقعة الفسيحة للأمة في ما بين الخـافقين، وبيـن أولئـك الذيـن تحملهـم

الرسالة عالة عليها، وعلى الأمة والتاريخ ممن فرطوا بالإنسان والعقيدة والأرض...

وما أخال الأندلسيين إزاء محنتهم إلاَّ مقتدين بحملة الرسالة طريقاً إلى فردوسهم المفقود مرددين دون يأس قول الصابرين من حداة الأجيال:

يا قافلة سيري، دونك مراحل طوال!

....

ويأتينا نبأ سقوط مدينة ((مليلة)) بيد القشتاليين....

ولشدَّ ما كان وقعه علينا أليماً... إذْ دخلها الغزاة وهي خاوية على عروشها، ودون أدنى مقاومة تذكر من أهلها الذين كانوا قد فروا إلى التلال المجاورة قبل وصول الغزاة...

ومما يؤسف له أن يدرك الرعب قلوب النازحين الغرناطيين في مدينة ((فاس)).

ويحاول القائد المنظري أنْ يشد من العزائم، فيقدم على تنفيذ أعمالٍ بطولية دون دعم من السلطان الوطاسي الذي تقدمت به السن، ولم يعد بمقدوره أنْ يحرك شيئاً في مملكته سوى مواكب الزينة والاحتفالات.... وبات هذا معروفاً لدى العدو الذي كثف من غزواته ....

حقاًّ..! إذا شاخ الذئب أمِنته الأغنام، ورقصت في حماه الثعالب.

وعلى الرغم من التحصين المنيع الذي فرغ المحتلون من إحداثه، واقتراب أسطولهم البحري من مدينة ((سبتة))، وإحاطتهم بها من جهاتها البحرية الثلاث بجنود، فاق عددهم حملة البرتغاليين الذين سبق لهم احتلالها؛ فإنَّ القائد المنظري كانت له صولة وجولة، التف من حوله أهل المدينة في الدفاع عنها...

وتحتدم المعركة، ويحمى وطيسها .... ويستبسل الجميع، ويستخدمون جميع المرامي المنصوبة في الميناء، والتي يبلغ عددها أربعة وأربعين مرمىً، ولهم في الرَّمي بصر، وقد قدموا في هذه المعركة العديد من الشهداء، وفقد القائد المنظري إحدى عينيه...

وعلىالرغم من سقوط المدينة بيد الأسبان لكنه استطاع أنْ يأسر عدداً منهم، ويحتفظ بهم كعادته في جميع المعارك والحروب مع البرتغاليين والأسبان، ويستخدمهم في أعمال التحصين...

ولقد شاهدت في إحدى المرات التي ذهبتُ فيها إلى تطوان ثلاثة آلاف لابسين جميعاً سترات من الصوف، وينامون ليلاً مقيدين في الأصفاد، داخل سراديب تحت الأرض.

وقد جعل المنظري من بعد هذه المعركة يجوب أنحاء البلاد بثلاثمائة فارس كلهم غرناطيون من نخبة أهل غرناطة، وكثيراً ما كان يضيق الخناق على سبتة، والقصر، وطنجة لكن المنية وافته وهو في قمة جهاده الذي أرعب الأعداء.

* * * * *

إجــــازة الفقيــــه
في جامع القرويين

فجعنا بوفاة القائد المجاهد أبي الحسن المنظري، فجيعتنا على الأهل في الداخل الأندلسي، الذي لا ينبغي أن يشغلنا عنه شاغل، ولا يغمد من أجله سيف...حقاً إنّ الجهاد ماض في هذه الأمة إلى يوم القيامة، لكن غياب القادة المخلصين له أثره في حركة الجهاد...والعثور على القادة ليس بالأمر اليسير، فالدّهر لا يجود بهم إلا قليلاً...

قال والدي وقد شفّه الهم:

- ما أحلك الأيام التي نعيش!....

وبعد لحظة صمت قصيرة، واصل حديثه قائلاً:

- لابد لنا من إجراء مراجعة شاملة، وإعادة ترتيب لمهامنا، ومسؤولياتنا...وإني أرى أن تكمل دراستك في جامع القرويين، ولك ألا يمس ذلك بمهامك وأعمالك...فطلب العلم جهاد، وإني أطمع أنّ أراك فقيهاً تحفظ للدين علومه وأحكامه، وتضيء به درب الهداية والثبات لأهلنا في الأندلس.
- لكني أرى أنّ المسافة بيننا وبين الأهل في الأندلس تزداد تباعداً كلما تقادمت السنون، وتداخلت الأحداث، وإنّ انهماكي في تحصيل العلم قد يحول دون الاتصال بالأهل.
- لئن تباعدت المسافات، فإنّ بمقدورك أن تطويها حال إكمال دراستك في جامع القرويين...

وسيكون لك ذلك بأكثر من طريقة...قد يكون بطريقة الترحال بين الأمصار، أو بالانتقال سرًّا إلى الأهل في الداخل....

تقيم في أحد الجبال النائية بزي فلّاح أو راعي غنم، فيقصدك طالبوا العلم بنفس الزّي، وليَكن هذا شأنك، وشأن من معك من الدارسين من أبناء الأندلس...فمكافحة التنصير، والحفاظ على العقيدة الإسلامية انتصار لأندلسيتكم...

....

ويستصوب الحاج مصباح رأي والدي في إكمال دراستي في جامع القرويين، وأسند إليَّ أعمالاً تجارية في مدينة فاس وما حولها من (المداشر) لا أتجاوزها إلى ما يشغلني عن الدراسة.

....

قبل أن ألتحق بجامع القرويين كنت قد حفظتُ القرآن الكريم، ومتن الأحاديث النبوية، وموطأ الإمام مالك بن أنس الأصبحي وألفية بن مالك...وهي أساسيات لمن يريد إكمال علومه في القرويين....

وتنقلت في حلقات الدرس أنهل من علوم الدين والعربية والأدب والمنطق والهندسة، والطب، والرياضيات، والفلك، والفلسفة...وإنْ كانت مادتا الفلسفة والفلك محظورتين من قبل السلطان، وبات تدريسهما خفية عن عيونه وأعوانه...

وقد كانوا يخشون قربي من السلطان في أول الأمر حتى بددت عنهم المخاوف....فأنا الوافد من أرضٍ اختلطت بتربتها الفلسفة، وترعرعت عليها علوم الفلك....وزادهم طمأنينة ما بلغهم من الحوار الذي دار بيني، وبين كبير وزرائه الذي أنكر عليَّ الاستزادة من العلوم، وأسرَّ

في أذن السلطان أمراً لم يفصح عنه إلاّ تدخل السلطان في حوارنا قائلاً وهو يوجه حديثه إليَّ:

- لا يجمع الله بين عسرين!...

قلت : وما هما أيها السلطان؟

قال : أن تجمع بين العلم والشجاعة!...

لزمتُ الصمت وقلت في نفسي: وبضدها تتميز الأشياء...وأدركت من حينها عن يقين سرٌ تساقط مدن السّاحل المغربي...ويعلم الله كم في الأمة من مثل هذا السلطان...ولِلّهِ في خلقه شؤون...يؤتى الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء....ويضع سره في أجهل وأضعف مخلوقاته... ولا اعتراض على مشيئته، وهو على كل شيء قدير....

....

وارتقيتُ بدراستي حتى لازمتُ العالم الفاضل الإمام محمد بن غازي المكناسي رأس أعلام القرويين، ورابطت في حلقات علمه التي تنعقد كل يوم قبيل طلوع الشمس بساعة، وحتى الواحدة بعد الزّوال...

ويتبدى لي بمرور الزّمن أنّ اكتساب العلوم والمعارف، لا يحقق ارتواءً، ولا ينتصر لحقيقة، ولا يصلح فساداً، ولا يعالج أمراً، ولا يبعث على تغيير طالما ظلّ حبيس الأروقة والرأس والكرّاس....

وقد هالني أنْ أجد الجبن سمة العديد من العلماء، ويزداد أثره كلما زاد اكتساب العلوم والمعارف، ولست أدري لذلك سبباً، ولا أعرف له تفسيراً سوى أني وجدت الجبن قرين القِرْش وكبر الكرْش!...

فأين هم من العلماء الذين هم ورثة الأنبياء؟

وهل يوزن مداد هذا الصنف من العلماء بدماء الشهداء؟

وشكوتُ الأمر لرأس أعلام القرويين فقال:

- لا تستغرب يا بني على من يتقاضى من السلطان أجوراً عالية حسنة، لقاء التدريس، أنْ يجبن خوفاً أن يُضايَقَ في أجره أو انْ يُمَسّ بأذىً....

لذا لا تجد من يجرؤ على قول الحق، والحضّ عليه، لأنَّ بطانة السلطان له بالمرصاد، إذْ تحسب أنَّ كل صيحة عليها!.....

....

إذن فرأس أعلاَم القرويين كان الأستاذ الذي أبحث عنه لأنه قام يدفعنا إلى وعي رسالة المسجد، ويقضنا على أمانة العلم والعلماء، ويثير فينا بواعث التغيير والإصلاح، وهمم الدعاة، وجعل يلفتنا إلى الرَّبط بين ما نتعلم ونكتسب من المعارف، وبين إصلاح الواقع وتغييره نحو الأفضل...والرَّبط بين تصوراتنا للإنسان، والكون، والحياة، وبين سلامة المنهج واستقامة السلوك....والرَّبط بين التاريخ ووقائعه، وحوادثه، وبين العمران وعبره....

واتسعت دائرة النصح والتذكير، وشملت عدداً غير قليل من العلماء والدارسين الذين أصبحوا بمرور الأيام، قوة دفع أيقظت وعي القوم، وحفزتهم لأداء دورهم المطلوب في إنذار الأمة، بما أحاط بها، وتحريرها من ظلم الطغاة، ودعوتها وأمرائها إلى الألفة، والأُخُوّة والوحدة، فَذَاكَ أساس قوتها وازدهار عمرانها....

وعاد جامع القرويين إلى سابق مجده علماً، وجهاداً....وعددتُ أنَّ ما تحقق من يقظة الوعي نصراً كبيراً، وعودة إلى جادة الصواب.

ومما يسّر تحقيق هذه اليقظة أنَّ المؤلفات والمصنفات التي ندرسها لعلماء العدوتين أمثال ابن حزم والشاطبي وابن رشد، وابن خلدون تسير

في هذا الاتجاه، وتخاطب العقل والوجدان، وتتسم بنظام معرفي يقوم على وعي النقل والعقل، وتأسيس البيان على البرهان، وفق طرائق ومفاهيم في التفكير اتَّبعوها، تعتمد الاستنتاج والاستقراء، وتأخذ بدارسيها إلى مدارج الرقي العمراني.

وتدور مساجلات ومطارحات....وتخرج حلقات الدرس من حوارات الجدل العقيم إلى بحث هموم الواقع، وتلمس الحلول والمعالجات العملية، ومحاولة اكتشاف مواطن الخلل، وأسباب الوهن...

ويصدع الجمع من على منابر الحق مذكرين بأنَّ الخلاف، والفُرقة، وتعدد الولاء، وصراع الأمراء أساس البلاء...وأنَّ الفقه الإسلامي بيِّنٌ لا لبس فيه... ونزوعه إلى الوحدة والتوحيد، يرفض على الدوام أنْ يكون للأمة أكثر من خليفة واحد...ويستنكر منذ يوم سقيفة بني ساعدة فكرة ((مِنَّا أمير، ومنكم أمير)) التزاماً بقول الله تعالى: **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾** **﴿وأنَّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾**

وجوهر التوحيد تحرير الإنسان من كل سلطان، غير سلطان الله الذي كرم بني آدم وساوى بينهم حاكمين ومحكومين، فأمر المؤمنين شورى بينهم، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق...وليس لأحد حق العسف والطغيان ولا لأحدٍ من ثم حق الفتنة والعصيان...والتعاون، والتكافل، والتراحم، والأُخُوّة مقومات بناء الأمة القوية....

....

وإذْ شَنَّ البرتغاليون هجوماً على الساحل الغربي المحاذي لإقليم السوس، رأيت جامع القرويين، علماء ، ودارسين، يثبون من رباط العلم إلى رباط الخيل، يدعون الناس إلى الجهاد منادين فيهم بقول الله العظيم:

﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيلَ لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض﴾.

وتتحرك قوافل المجاهدين يتقدمهم العلماء، يشاركون أبناء إقليم السوس، مع حملة جهزها السلطان...فتقوى عزائم الجميع، ويبلون بلاء حسناً، ويدحرون الغزاة، ويأسرون فريقاً منهم...

وتكون هذه المعركة سبباً في عودة ابنِ السلطان وبِكْره ((محمد الشيخ)) الملقب ((بالبرتغالي))، وذلك بعد أربعين سنة من اختطافه صغيراً في سنّ السابعة، وكأنّ القدر أعاده ليكون بعد بِضعة أيام السلطان الجديد خلفاً لوالده الذي وافته المنية....

....

ويفد الدارسون إلى جامع القرويين من كل حدب وصوب، وتزدحم حلقات علمه وأربطته...تغذيه مساجد فاس بالدارسين....

وهناك خمسون مسجداً من اصل سبعمائة مسجد في مدينة فاس، فخمة البناء، عظيمة الزخرفة، تُحملُ سقوفها على أعمدة من الرخام....مفروشة بحصرٍ جميلة تغطي الأرض كلها، كما غُطيت حيطانها بحصر بقدر ارتفاع قامة الرجل....وبكل مسجد منارة يصعد إليها المؤذن في أوقات الصلاة، ولكل مسجد صهريج من الرخام...

أما جامع القرويين فإنّ مساحته نحو ميل ونصف، شاملةً أبنية الطلاب الملحقة به، وله واحد وثلاثون باباً، ضخمة البناء، ويبلغ طول الجزء المسقوف من المسجد مائة وخمسين ذراعاً، ولا يقلُّ عرضه عن ثمانين ذراعاً...

ومنـارة الجـامع شـاهقة، وسـقفه يُحْمَـلُ طـولاً علـى ثمانيـة وثلاثيـن قوساً، وعرضـه على عشرين قوساً....

وتحيط بالجامع من الشرق والغـرب والشـمال أروقـة ذات أقـواس، عرض كل منها ثلاثون ذراعاً، وطوله أربعون ذراعاً...وفي أسفلها خزائـن يودع فيها الزَّيت، والمصـابيح والحصر وغيرها....

ويوقد في الجامع في كل ليلة تسعمائة مصباح، على كل قوس منها مصبـاح...وفـوق الأقـواس التـي تشـق وسـط الجـامع قبالـة المحـراب مائـة وخمسون مصباحاً...وهناك ثريات من النحاس تسعُ ألفاً وخمسمائة مصبـاح اتخذت من نواقيس، نقلها بعض ملوك فاس من كنائس النصارى....

وحول حيطان الجامع كراسـي منصوبـة، مختلفـة الأشكال، يجلس عليها العلماء المدرسون الذين يعلمون الناس أمور دينهم ودنياهم...ويبدأون دروسـهم قبـل طلـوع الشـمس بسـاعة، وينتهـون فـي السـاعة الواحـدة بعـد الزوال، وفي الصيف يبدأون في الساعة الثامنة مساءً، وينتهون في السـاعة الواحـدة والنصـف صباحـاً...ويقومـون بتدريـس العلـوم الدِّينيـة والعقليـة، والاجتماعيـة...ويتقـاضون –كمـا أسـلفت الذكـر– رواتـب عاليـة، فـوق مـا يصرف لهم من الكتب والشمع للقراءة ليلاً....

....

ويتقرب السلطان الجديد من العلماء، ويتوددهـم، ويعـاهد اللـه علـى قتال البرتغاليين، وإجلائهم من الديار المغربية...

وكان قد ساءه حال الدولة التي اقتصرت فيها سلطة والده في آخـر عهده على بعض حواضر المغرب، بينما لم يبـق لـه نفـوذ فيمـا عداهـا مـن البلاد النائية....

وفي هذه الأثناء عرفت فتىً من إقليم السوس كان يدرس معنا وقلبه مشدود إلى إقليمه يتسقط أخباره بحرقة، إذْ تأتيه أنباء الاجتياح البرتغالي للسواحل السوسية، فيحزنه ألاَّ تكون الأعمال بحجم الأبهة في المواكب والولائم، والمساجد العامرة، والقصور الزاهرة....

التفت إليَّ في صحن الجامع ذات مساء يحدثني عن إقليم السوس الذي طوت عليه عناكب النسيان خيوطها قائلاً:

– ما قيمة هذا النعيم إذا كانَ الجحيم يحرق أهلنا في إقليم السوس؟!

وأيًّا ما كانت المساجد عامرة المبنى لكنها خاربة من التقوى ولم يبق للإسلام إلا اسمه، وللمصحف إلاَّ رسمه!...

ويغرق في التفكير والتأمل طويلاً، وكأنه يبحث عن خلاص لما يعانيه إقليم السوس....ثم مضى يقول:

– ساعدني لدى علمائنا في الحضّ على الجهاد، ورباط الخيل...فلن نوقف العدو عن تكرار هجماته في معركة واحدة....فها هو قد عاد إلينا من جديد....أما أنا فإني أكل الأمر إليك لأمضي من توي إلى الإقليم....

إنه الشريف أحمد الأعرج كان كثير التَّغيب...وكان الكثيرون يحسبون تغيبه ضرباً من الإهمال حتى عاد ذات مرة، وآثار المعركة بادية عليه...وقد اضطررته للحديث عن مشاركته في أعمال المقاومة....

وإذْ انفض جمع الدارسين من حولنا أسر إليَّ أنه كان يتنقل بين قبائل المصامدة يستحثهم على الجهاد، وكانوا قد أُرشدوا إلى والده الشريف أبي عبد الله محمد السَّعدي، المقيم بمدينة ((درعة))، فاجتمعوا عنده، وبايعوه قائداً لقبائل السوس، يجاهد معهم في سبيل الله.

قلت مستنكراً:

– ولكن هذه البيعة باطلة، مادام على سدة الحكم من أعطي البيعة من قبله، خاصة وأننا لم نجرب على السلطان محمد الشيخ الوطاسي تهاوناً، ولم نجد منه خذلاناً...ويكفي الأمة شتاتاً ودويلات!...

رد عليٌّ مستنكراً وَضْعَ الدولة الوطاسية قائلاً:

– ألا ترى أنَّ عوامل الانحلال قد دبت في جسم الدولة الوطاسية؟ فالبرتغاليون ماضون في هجماتهم، لا يوقفهم موت سلطان، وتولّي سلطان جديد مقاليد الأمور...وهاهم يبنون المعاقل والحصون وقد ضاق بهم المسلمون ذرعاً...والنار لا تحرق إلاّ رِجْلَ واطئها....أترانا ننتظر حتى يحترق كامل الجسم من أجل سلطان جديد، تربّى في كنفِ البرتغاليين؟

– ولكنكم تغامرون في أمرٍ قد لا تُحمد عقباه...فأنتم أشراف تأخذون البيعة من قبائل بربرية لا أدري إلى أي مدىً تصدقكم وتفضلكم على دولة بني وطاس البربرية...

– حقًّا نحن أسرة عربية من أشراف الحجاز هاجرت إلى المغرب منذ عام ٦٦٤هـ، ...لكننا لم نستند إلى (مهدوية)، ولا إلى عصبية ...وقبائل البربر هي التي بحثت عمن يقودها، ويتقدمها في قتال الأعداء...ثم إننا جميعاً مسلمون وقد أذهب الله عنا عصبية الجاهلية، ولسنا طلاب حكم، ولم ننازع السلطان سرير حكمه....

إننا مجاهدون ندفع عن إقليم السوس خطر البرتغاليين المحتلين، وما أظن أن مسلماً يمنعنا من ريح الجنة...

قلت في نفسي: لو كان لنا مثل هؤلاء لدوَّخنا بهم الأسبان، وفي كل الأحوال، فإنهم إخوتنا وظهيرنا...

....

كنتُ في هذه الفترة استوفيتُ دراستي على يد أستاذي الإمام المكناسي الذي قرأت عليه الكتب التي اشتمل عليها فهرسه المعنْوَنْ: بـ ((التَّعلل برسوم الإسناد، بعد انتقال أهل المنزل والنَّار)) ويحتوي على علوم اللغة وآدابها، والعقائد، والفقه، والتّصوف، والتفسير والقراءات، والحديث، والسير، والحساب، والفلك، والمنطق، وما إلى ذلك من العلوم....وكان أن أجازني وحملت لقب الفقيه.

* * * * *

الــــزّواج

استهللتُ حياتي العملية بالانتصاب للشهادة مع عدول «فاس» الرسميين، ومجالسة الفقهاء والقضاة في المدن والقرى، ومناظرتهم، ومناقشتهم في نوازل فقهية، وفتاوى دقيقة.

وكان أبواي يُلِحَّان عليَّ بالزواج، احتفالاً بإجازتي، وفرحاً بزفافي، وكنتُ أتردد على دكان «حسن الوراق» أستنسخ لديه بعض الكتب حتى انعقدت بيننا صحبة...

وكانت له ابنة في ريعان شبابها تملي عليه المصنفات، وهو عاكف على الورق يكتب ما تمليه...

ولشدَّ ما كان إعجابي بحسن منطقها، وسلامة إعرابها...

سمعتها ذات مرة، وهي تملي على أبيها فقرة للحصري القيرواني دون أنْ تلحن:

«إنَّ للعرب كلاماً هو أرق من الهواء، وأعذب من الماء مرق من أفواههم مروق السّهام من قِسيِّها، بكلماتٍ مؤتلفات، إنْ فسرت بغيرها عطلت، وإنْ بدلت بسواها من الكلام استصعب، فسهولة ألفاظهم توهمك أنّها ممكنّة إذا سمعت، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طلبت»...

ظللت مرات عديدة أمر عليه ولا أجد من يساعده سوى ابنته حتى أنني أشفقت عليهما من الإجهاد، وسألته قائلاً:

– لم لا يكون معك من يساعدك في الكتابة والإملاء شأن بقية الوراقين؟

تبسم وقال:

- عمل معيَ -في ما سبق- من ((يَلْحَنُ))، وجعلتُ أستَبدلُهم، واحداً تلو واحد، وابنتي ((روعة)) تراقب ما يجري باهتمام، حتى وجدتني وحيداً دون مساعد، وأحسَّت فيَّ حرجاً وضيقاً، فخففتْ عني ما بي من انقباض، وأبدت تأييدها لما صنعت وروت لي رواية ابن عبدربه أنَّ رجلاً قال له: إنَّ لنا إماماً يَلْحَن. قال : أميطوه عنكم، فإنَّ الإِعرَابَ حلية الكلام...وذكرتني بوصف الإمام مالك بن أنس للإعراب أنه ((حلي اللسان، فلا تمنعوا ألسنتكم حليها))...

ورجتني في أنْ تشاركني العمل....

....

وإذْ أخذت الألفة سبيلها إلى النفوس، ووجدت أن بالعلم والمعرفة يزول الخجل، ويبقى الحياء، كنت أشارك الوراق في الإملاء تخفيفاً على ابنته....

وكان أنْ أمليتُ عليه حديثاً شريفاً جاء فيه:

((إذا تزوج الرَّجلُ المرأة لدينها، وجمالها كان فيها سداد)) وجعلتُ أقرأ كلمة ((سداد)) مرةً بكسر العين، ومرة بفتحها....

فأسرعت ((روعة)) تصوب لي قائلة : بل بكسر السين، فإنها تعني البلغة، وكل ما سددتَ به شيئاً فهو سداد.

وكان ذلك فاتحة لطلب يدها.

....

ولا زلت أتذكر يوم الزفاف... وكأنه انعقد في غرناطة بناسها، وتعبيرات فرحهم، وعاداتهم وتقاليدهم الأندلسية بكل تفاصيلها...ووجدتني منساقاً لطقوس الزفاف والرضوخ لعادات ما أنزل الله بها من سلطان.....

فهنـاك عـادة يفرضهـا جهـد القائمـات علـى العـروس بالزينـة، والخضـاب، وأعمـال التبرج...فمـا أنْ يفرغـن مـن ذلـك حتـى يرتقيـن بهـا موضعاً مرتفعاً لتكون محط أنظار المشاهدين في ما تبقى من النهار، وقبل ساعة الزفاف!....

ونُقِلتُ -شأن ما يُصنع مـع كـل عريـس- إلـى مجتمـع النِّسـوة مـن صويحباتها المدعوات....وظللت فترة من تصبير النفس على ما حولي مـن تحديات الغنج والدلال، ومباراة الجمال....

ثم سار موكب العرس بيـن الذاريـن يتقدمـه الأطفـال، والضـاربون على الدفوف والطبول والزمارون...

ووسط الرقص والغناء سار هودج العروس، وأنا أخطو على مقربة منه متصبراً، متجلداً لمزحات الأصحاب الذين حرصوا على أنْ أُودع الجد لحظة الزفاف وقد قال قائلهم:

- ما أشد جدية الوزان...لم يفارقه الجد حتى لحظـة اختيـار شـريكة حياتـه التي انتقاها حسنة الإعراب...إنه فقيه شريعة، وضليع عربية...

قلت :

- وهل الجدية إلاّ عند اختيار شريكة الحياة؟!

أما مواصفات الزوجة، فغيرَ حُسْن الإعراب توخيتْ واخترتُ...

وإنمـا كـان أمرُ الإعـراب اكتشـافاً لجوهـر، واكتمـالاً فـي اللسـان، وتيمناً بالرعيل الأول في تربية الأولاد على العربية..

واستشـهدت بقصـة تُـروى عـن زواج المعتمـد بـن عبـاد مـن فتـاةٍ أسبانية، حين اكتشف فصاحة لسانها، وشاعريتها، وسرعة بديهتها، وتمكنها مـن العربيـة، فبينـا هـو يتـنزه علـى ضفـة نـهر ((الـوادي الكبـير)) باشـبيلية،

استوقفته شاعريته أمام صفحة الماء التي هبت عليها نسمة باردة جعلت منها حبيبات منثورة فأوحت له نظم صدر بيت جعل يردده:

نثر الرّيح على الماء زَرَدْ

وما كان من تلك الفتاة الأسبانية إلاّ أن نظمت عجز البيت قائلة:

يالَهُ درْعُ قتالٍ لو جَمَدْ...

وقد كانت ليلة الزفاف حقاً ليلة بيضاء بألقها، وأريجها وأقمارها، وسمارها الذين ما فتئوا يغنون الموشحات بأعذب الألحان وأنظم الإيقاع...

ودون أنْ ينقص من رونق ما غُنِّيَ من الموشحات، إلاّ أنني استهويتُ تكرار سماع موشحتين بصفة خاصة...ربما كانَ التذكير بمرابع الصّبا، وبساطة التعبير الشعبي فيهما، وخرجة كل منهما بالعامية الدّارجة أو الاسبانية، سبباً في الإعجاب....

وإني ما برحت لفترة طويلة أعيش صدى أنغامها الشجية تداعب أوتار الفؤاد!...

أما الموشحة الأولى فتقول كلماتها:

وخود جنت سقمي

بصوتٍ برى جسمي

تغنيه للأم

((كتال مي ألماَ

كيكييري مي أما))[1]

وأمّا الموشحة الأخرى فتقول كلماتها:

---

[1] تعني كيف حالك يا روحي، وماذا تريدين يا روحي.

ليلٌ طويل

ولا معينْ

يا قلب بعض الناس

لا تلينْ

أنا قُولْ ((قُوقُوْ))[1]

ليس باللَّهْ تَذُوقُوْ

وفي ختام الزفاف، كان عليَّ أن أسرع لأقف إلى جوار باب خلوتنا، أستبق قدوم العروس لأضع قدمي فوق قدمها فور وصولها، عملا بما جرت عليه العادة الخاطئة، لتأكيد قوامة الرّجل على المرأة!...

وعقب دخولنا الخلوة، وقفتْ عند الباب امرأةٌ من الجوار تنتظر خرقة البِشَارة..لتشهرها أمام المدعووين شهادة على عذرية العروس، وفحولة العريس!...

....

وانتَقَلتُ إلى حياة جديدة من سكينة النفس، ومشاعر الود والصفاء، وأجواء الرحمة والمحبة، ما مكنني من الإقبال على القراءة والاستزادة من العلوم والمعارف...

وأقدمت على التأليف في الفقه المالكي، وألفتُ في أشعار الأضرحة كتاباً جمعتُ فيه مختلف أشعار الوعظ والزهد مما وجدته مكتوباً على الأضرحة والقبور المغربية، وأهديته لأخ السلطان الحالي عند وفاة أبيه ... ونشطت في أداء أعمالي التجارية....

---

[1] ((قوقو)) تعني ماكر.

ذات مرة خرجتُ لبعض أعمالي في سوق الحقائب والمحافظ، وسمعت حديث مشادة بين نفرٍ من الصناع وتجار البندقية عن الحملات التي شرع السلطان الجديد يُجرّدُها ضد البرتغاليين ...احتدَّ النقاش، واشتبك الطرفان حين أخذ البنادقة يشككون في نوايا السلطان ويقولون:

– أهذا الذي عاش أربعين سنة بعيداً عن أهله لا يعرف عنهم شيئاً سوى ما ربَّاه عليه البرتغاليون، يعود بعدها لمنازلتهم؟

ما نظنه إلاَّ مُهلِكَ قَوْمه!....

فما كان جواب الصناع إلاَّ أنْ أوسعوهم ضرباً، وهم يردون على تشكيكهم قائلين:

– بل هو مثل النبي موسى عليه السلام، تربَّى في أحضان فرعون لكنه لم يتأثر بظلمه وطغيانه، بل أدى ذلك إلى ثورته عليه، وعندما حاول فرعون أن يذكره بما كان عليه من النعيم في قصره، رد عليه ((وتلك نعمة تمنها عليَّ أنْ عبَّدتَ بني إسرائيل))؟!

....

غيَّر السلطان الجديد في فترة وجيزة الكثير من مألوف القصر، ونظام الدولة، واهتمامات المدينة....

حدَّ من مظاهر البذخ، والترف، وزينة موكبه، واحتفالات القصر.....

وأكثر من ارتياد جامع القرويين....وأصبحت لا تَرىَ في القصر إلاَّ الفوارسَ والمجاهدين، ورجالَ القضاء، وعمَّال المدن والأقاليم....

دعاني وشيخ التجار حين مساء، وأبلغنا عن اعتزامه الاتصال بالممالك الإسلامية لمواجهة الأخطار المحدقة بالأمة، وتطويق البرتغاليين الذي غزوا العديد من المدن والسواحل الإسلامية....

وأناط بنا سفارة السودان، لنحمل إلى زعيم الزنج في تومبكتو رسالة بهذا الخصوص......

....

سفـــارة الســـودان

شدّ والدي من أزري، وسُرَّ كثـيراً بهـذه السـفارة، التـي تتوغـل بـي جنوباً في الأقاصي خلف جبال أطلس، وفي ما وراء المنبسط الصحـراوي الكبير حيث تكـون المشـقة والمغـامرة تعويـداً علـى الصـبر واكتسـاب الخبرة.......

وإذْ السَّفرُ طويل، وطريقهُ محفوفةٌ بالمخـاطر والمهـالك كـان لا بـد عند الوداع أنْ أُسري عن زوجي (روعة) التي لما يـزل الجنين يتخلـق فـي رحمها....

قلت لها:

– أقترحُ عليك أن نسمي من الآن مولود المستقبل.

قالت وهي تخفي مرارة الفراق:

– أرجو ألا يطول بك السَّفر، وأنْ تعود قريباً لتستقبل بنفسك ما يقدره اللـه، وعندها نسمي المولود، ونفرح بمقدمه سَوِيَّة.

– لكني لا أرى ما يمنع التسميةَ من الآن.

– فلتُسَمِّ الذَّكر ...ولأُسَمِّ الأنثى.

– أقترحُ أن يسمى ((يوسف)).

– لا جدال في اختيار الإسم، فهو اسم لنبي من أنبياء الله، غير أني أهجـس أنّ لك سرًّا تخفيه.

– ليس هناك سر، ولكنـي فعـلاً، أحببتُ الإسم لمـا ذكـرت، وتيمنـاً بالقـائد يوسف بن تاشفين.

قالت وهي من عرب المغرب:

- إنّ يوسف بن تاشفين، قائد لا شك عظيم، لكنه رجلٌ نازع أهل الجزيرة الأيبيرية سلطانهم!!

قلت :

- ربما أنكِ قرأتِ ما كُتبَ خطأً عنه...فيوسف بن تاشفين لم يكن كذلك، بل كان يتهيأ ليصبح قائداً قوياً، يوحّدُ البلاد المغربية، وينقذها من عواصف المحن السّياسية والدّينية، وموجة التنبؤ والشعوذة، ومن صراع القبائل، والبدو، وتغلُّبِ كلّ قبيلة على موضعٍ من بلاد المغرب، كما فعل ملوك الطوائف في الأندلس...وقد تمكن من جمع شمل الأمة والجماعة وتوحيد بلاد المغرب تحت راية دولة المرابطين...ولما استنجدت به الجزيرة، نَجَدَها مرّتين...

- كانت ألاولى في معركة ((الزّلاّقة)) الفاصلة، وزالت الأجيال المتعاقبة من الأندلسيين تتغنى بانتصاره في تلك المعركة على (الفونسو السّادس)، وتعتز برده القوي الذي كُتبَ على ظهر خطاب (الفونسو) المليء بالتهديد والوعيد والانفعال المحموم جرّاء اتّصال المعتمد بن عباد، بالقائد يوسف بن تاشفين...فكان جوَابُه عليه:

((أمّا بعد، فإنّ الجواب ما تراهُ بعينك، لا ما تسمعه بأذنك، والسّلام على من اتّبع الهدى))

- وكانت النجدة الأخرى عندما أوشكت الجزيرة أنْ تسقط من جديد بيد الأعداء جراء تفاقم الخلافات، بين ملوك الطوائف وإذْ أعاد إليها الأمن والاستقرار، تقدم المعتمد بن عباد يطلب الملك على جميع الجزيرة...ولو أنّه لبّى له طلبه لأحدث فتنة بين ملوك الطوائف...فآثر

حسم الأمر هذه المرة بضمها في إطار دولة المرابطين، حمايةً لها من الأعداء المتربصين وسعياً إلى توحيد بلاد العدوتين.

ولا عَجبَ أن تَجِدي مثله في المشرق العربي قائداً كردياً مسلماً هو النَّاصر صلاح الدِّين ((يوسف بن أيوب)) وحَّد بين مصر وبلاد الشام، وحارب -في ظل الوحدة- الأعداء الصليبيين، وانتصر عليهم.

وتعلمين أنَّ الإسلام لم يصل إلى جزيرتنا الأندلسية إلاَّ على أيدي الفاتحين من عرب وبربر يتقدمهم القائد البربري المسلم ((طارق بن زياد))، الذي عبر بهم المضيق إلى جبل ((طارق)) ثم زحف نحو الشمال مكتسحاً مدن الطريق الغربي من الجزيرة حتى دخل مدينة ((طليطلة))...

وأرسل يستنجد مولاه القائد العربي المسلم ((موسى بن نصير)) فعبر المضيق بجيش عُرِف بطالعة موسى، والتقاه عند نهر ((التاجو)) قرب ((طليطلة)).

وتعلمين يا روعة أنَّ فتح جزيرتنا الأندلسية لم يستغرق أكثر من ستة أشهر، في حين أنّ فتوحات المغرب استغرقت عشرات من السنين...ولك أنْ تستخلصي انه بمجرد تمكُّن العقيدة من النفوس تتبدل الرؤى ويستقيم السلوك، ولا يعود للعصبية الجاهلية مكانٌ في حياتهم.

استغفرت روعة ربها، وعادت تسألني حتى لا يبقى لديها أدنى لبس في الأمر قائلة:

- لكني أجد في نفسي شيئاً إزاء نفي ((المعتمد بن عباد)) إلى مدينة ((أغمات)) مكبلاً بالقيود، وقد كان له شأنٌ عظيم في الجزيرة الأندلسية وعلى وجه الخصوص في مملكة أشبيلية، وهو الذي استنجد بالقائد المسلم يوسف بن تاشفين وإليه تنسب مقولة:

((رَعْيُ الجِمالِ عِنْدي خَيْرٌ مِنْ رَعْيِ الخَنَازِيْر))!!...

- نَفْيُ المعتمد بن عباد حَظِيَ بالاهتمام، ولاقى تأثراً في النفوس ربما من وقع قصيدته البليغة التي صوَّر فيها فَقْدَ مُلكه، والتي مطلعها:

لما تماسكت الدموع وتنهنه القلب الصديع

قالوا : الخضوع سياسة فَلْيَبْدُ منك لهم خضوع....

لكنه لم يُنْفَ بسبب كونه فرعاً عربياً، فقد نُفِيَ مثله إلى ((أغمات)) ملك غرناطة، وأحد ملوك الطوائف المظفر عبد الله بن بلقين بن باديس الصنهاجي البربري...وإنما كان نفي المعتمد بن عبَّاد إلى ((أغمات)) بعد أن ناصبهم العداء، واستنجد بالفونسو السادس، مغلباً كرسي الملك على وحدة الأمة....

وعلى الرغم من سوء ما فعل، فقد كُرِّمَ بالنفي إلى ((أغمات)) باعتبارها مركزاً علمياً وأدبياً يليق بمكانته.

- ولكن الصنهاجيين حميريون من عرب اليمن الأقحاح...

- وهذا ما يعزز قول بعض العارفين إنَّ البربر عربٌ من أصول حميرية.

- كيف؟

- ثمة أكثر من دليل وقرينة...وإن كان في الحديث تداعيات وتشعبات....ألاَ تريْنَ أنهم يُدعون بنفس ما يُدعى به الحميريون وأحفادهم حتى اليوم بـ ((القبائل)) ، بينما يدعى غيرهم في بقية جزيرة العرب والأمصار الأخرى بالعشائر.

ويقول القادمون من بلاد اليمن أنَّ اللهجة البربرية قريبة من اللهجة التي ينطق بها سكان جزيرة سوقطرة اليمنية في بحر العرب، ولهجة بلاد المهرة الواقعة فيما جاور عُمان، بل ويوجد تشابه كبير في العادات

والتقاليد، والفنون الشعبية، حتى إنّ البعض يطلق على بلاد المغرب وموريطانيا اسم ((اليمن الغربي))...وليس بعيداً ما ذهب إليه البعض مِنْ أنّ تسمية ((مورو)) تعود في الأصل إلى منطقة ((مور)) التهامية التي نزحت منها القبائل اليمنية، ...ويحكى أن الملك ((أفريقش)) عندما غلبه الآشوريون أو الأثيوبيون، هَرَب إلى مصر، ولما وجد نفسه مطارداً عاجزاً عن مقاومة العدو، استشار قومَه حول أيّ سبيل يسلكونه للنجاة، فأجابوه أن يسلك:

الـ((بَرْ،بَرْ)) ..أي ((الصحراء، الصحراء))!. معبرين بذلك عن كونهم لا يعرفون أي حل سوى عبور النيل، واللجوء إلى صحراء افريقيا، وهذا التفسير لكلمة [بربر] متفقٌ مع رأي من يقول أن أصل الأفارقة من اليمن ... وحسب رأي بعضهم فإنّ كلمة ((بربر)) مشتقة من الفعل العربي ((بَرْبَرَ)) بمعنى ((هَمَسَ)) لأن اللهجة الأفريقية كانت عند العرب بمثابة أصوات الحيوانات العجماوات...وهم لذلكَ يدعَوْنَ بالعرب المستعجمة والعرب المتبربرة، لأنّ لغتهم فَسدت مع طول الزّمن لمساكنتهم أمة أجنبية، ويَحسُنُ بك الرجوع إلى تاريخ العرب لابن خلدون الذي ألف كتاباً ضخماً مخصصاً كله تقريباً لأنساب العرب المتبربرة.

– قد أذهب معك في كل ما ذكرت، لكن بياض بشرة البربر المختلف عن السمرة العربية يظل يبحث عن إجابة.

– لم يختلف مؤرخونا كثيراً في أصل الأفارقة، فيرى البعض أنهم ينتمون إلى الفلسطينيين الذين هاجروا إلى أفريقيا أو إلى السبئيين الحميريين الذين كانوايعيشون في اليمن –كما أسلفت– ، وتعلمين أن هذه البلاد تعتبر أقرب البلدان الأفريقية إلى بلاد الفرنجة تجارةً، واختلاطاً، وأخذاً

وعطاءاً مع احتفاظهم بأرومتهم، وانتمائهم إلى أمتهم التي جعلت منهم طلائع الفتح الأندلسي، وحاملي لوائها إلى شبه الجزيرة الأيبيرية...

وظل كثير منهم بعد فتح الجزيرة يشتغل في أعمال الجند، وحماية الحصون، والقلاع، والثغور، تاركين لإخوانهم من قبائل اليمانية، وعشائر القيسية الاشتغال في أعمال القضاء، والعلم، والسياسة، حتى إذا استنفدتهم العصبية في عصر ملوك الطوائف، حملوا عنهم رسالة البناء والعمران، والوحدة للأمة الواحدة، في دولة المرابطين ومن بعدهم في دولة الموحدين، وبني مرّيْن.

– معذرة إلى ربي، فالأمر لا يتعلق بأصول وفروع ، فكلنا لآدم، وآدم من تراب، وإني أتذكر ما قرأته على أبي:

((أنَّ الفتح العربي للمغرب والأندلس هو فتحُ رسالة، وعمران حمل فيه الفاتحون الدّين واللغة ممثليْن في القرآن الكريم الذي هو : قوام دين، ونظام حياة، وبحر أخلاق، وديوان أدب، ولسانٌ عربي مبين))...

– أما وقد اتفقنا على تسمية مولودنا إنْ كان ذكراً ، فأيّ اسمٍ تختارين إنْ كانت أنثى؟

– أسميها زينب...تيمناً بزينب النَّفْزية، أرملة أمير أغمات، والتي أشاد المؤرخون بجمالها وذكائها، وتزوجت بعد مقتل زوجها بأمير المرابطين أبو بكر بن عمر، الذي استأصل شأفة الدولة ((البرغواطية))، ومحادعوتها المجوسية المارقة عن الدين الحنيف، وذلك بعد أن صلى بجنوده ودعا ربه بدعاء سمعه معظم الجنود:

((اللهم إنْ كنا على حق فانصرنا، وإلاَّ فأرحنا من هذه الدنيا)).

وعقب استشهاد الأمير أبي بكر، تزوجت زينب، بالقائد يوسف بن تاشفين، هذا فضلاً عن كونها من تفزة أخوال صقر قريش عبد الرحمن الداخل!

....

وإذْ تطول بنا وقفة الوداع، وتستغرقها تداعيات تاريخية إلاَّ أنَّ مطالب السَّفر، ومقتضيات التوديع أخذت قسطها الكافي من الحديث والتذكير....وكانت زوج أبي تذكرني بين لحظة توديع وأخرى ألاَّ أنسى عند العودة اجتلاب قطع من الذهب والعاج، بينما كانت أختي الصغيرة تتعلق بأطراف ثوبي تطلب أنْ أُحضر لها دمية عروس زنجية!!...

ويختتم والدي لحظات الوداع بما اعتدنا قوله في الأندلس والمغرب، وهو يُربِّتُ على كتفيَّ، والجميع يردد معه:

((لاَ إِلَه إِلاَّ اللّه))

قلتُ والدَّمع ينهمر مِنّا جميعاً : ((مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّه)).

....

في جبال أطلس

مع بدايات فصل الخريف كان انطلاق القافلة مزودة بالمؤن والحرس، ترافقها كوكبة من خيالة القصر حتى مشارف الصحراء، جعلت مهابتها التجارَ يتسامعون، ويسارعون إلى السير بمعيتها طمعاً في الأمن والوجاهة.

ولشد ما كان خوفي على ((سوق الزهور)) والقافلة تمر منها في قطار بطيء الحركة...وما بوسع إنسان يشاهد هذا السوق إلا اعتقد أنه في أحسن البساتين، وأجمل زهور الدنيا، وخُيِّل إليه أنه يشاهد لوحة تضم أجمل وأزهى الألوان...

وإذْ تجاوزنا أسوار المدينة، أخذت القافلة تغذ السير ميممة شطر جبال أطلس وسط تضاريس متنوعة، تظللها سحابة الانشراح، وتقارب المودة بين طباعها...

وعند انتصاف عُمْر اليوم تبدت لنا مدينة ((صفرو)) الصغيرة في سفح جبل أطلس، وقد وجدناها كئيبة منطوية، مقترة، تئن من وطأة الضرائب....

وظن أهلها أننا قادمون نثقل كاهلها ونزيد الطين بلة، فعجلنا إلى طريق مجاور حتى بلغنا الممر الجبلي المفضي إلى غابة مديدة سرنا فيها بقية النهار ولما تنته، وأدركنا زنجي الليل، فأنخنا إبلنا، وبتنا ليلتنا نجاور وادياً تكثر فيه السباع، فما اكتحلتُ غماضاً ولا حثاثاً، وما كان لي من بُدٍّ أمام الليل، وأهضام الوادي، إلاّ أنْ أظل ساهراً، وكذا جمعٌ من أصحاب القافلة، والتجار ...فجعلنا نتجاذب أطراف الحديث....

بدأتهم القول:

– إنّ القوم إخوانٌ، وشتّى في الشّيم ...دعونا نتحدث في واقع الحال...

تلك مدينة ((صفرو)) ترزح تحت وطأة الضرائب، وغلظة الجباة...

أتظنون أنّ قوماً يئنون من سلطانهم يكون محبوباً لديهم وقادراً على إخراجهم لملاقاة الأعداء؟!

تحدث ثانٍ قائلاً:

- قد تكون للدولة حاجة ماسة إلى هذه الضرائب...ولو أنها أُنفِقَت في صلاح الراعي والرعية، وتحرير الدِّيار المغتصبة لما أنّتْ من دفعها نَفْس ...

إلاّ أنّ واقع الحال يشهد بغير ذلك...فهي تُنفق على الحكام وأعوانهم وعلى الولائم والحفلات والحراسة، والخدم، والحشم، وفي شراء الذِّمم ويُجَنِّبُ قسطٌ منها للاكتناز، هلعاً وطمعاً في دنيا لا تدوم!...

وأضاف ثالث قائلاً:

والأنكى من ذلك أنّ أحوال البلاد متردية، بل تزداد سوءاً....والحكام في غفلة!...

- بل هناك من يُزَيِّن لهم قبيحَ فِعالهم، ويستخدم الدِّيْنَ لتبرير امتيازاتهم، ويصور لهم الرعيّة كالكلاب، وعلى نحو ما قال الأقدمون: ((جوّع كلبك يتبعك))....

وإذْ فاض الكيل، وأخذ الحديث منحىً آخر...قلت مهدئاً:

- أظن أنّ الجهر بالسوء من القول، لم يكن إلاّ نتيجة الظلم الواقع على الناس...والظلم إيذانٌ بزوال العمران كما قال ابن خلدون.

وإنّ مملكة تغدو ضعيفة لا شك تكثر فيها الشائعات، ويُصدَّق عليها ما ليس منها!...

....

ويُمَزِّقُ صمت الليل عواء ابن آوى يتردد صداه في جنبات الوادي، وكأنه يذكر جمعنا بقول العرب: ((من استرعى الذئب فقد ظلم!))

وتمضي لحظات لنجد الوحوش من بعد عوائه وقد حشرت في الغابة، تتراكض من أمامنا باحثة عن فريسة وضحية...وانتشرت الطوافات

من بعد سكونها...وتـألفت موسيقى صاخبـة، اختلـط فيهـا الزئـير بـالخوار، والأوار والعواء...والتي مازالت على جلبتها وصخبها حتى ساعة السمر، وإذْ ذاك استعاد الهزيع الأخير من الليل هدوءه، وسكنت أنفاسه وتجلت فيـه مجرة السـماء عـن ألـقٍ أضـاء الكون بنـوره الفضـي البـارد، سـاكباً جمـال الإبداع، طمأنينةً في النفوس، وخشـوعاً فـي الأفئـدة فـاضَ علـى الجـوارح، ((ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار)).

كنت أنظر إلى إبل القافلة، فأراها في كـل الأحـوال سـاكنة هادئـة، تجتر الطعام غير مكترثة بما حولها...

قلت في نفسي:

وهذا هو سلوك الشـعوب...لهـا صـبر الجمـال وكبرياؤهـا، لا يطالهـا هـرج وحوش الغاب ومرجها...

....

وتسـتيقظ القافلـة متنفسـة مـع الصبـاح نسـائم الـوادي، وتمـر عنـد الضحى بموضع يُدعى ((أم جنيبة)) ذات جداول كسلى، ومياه راكدة، تتكـاثر فيهـا الهـوام والحشـرات، وويـلٌ لمـن يعبرهـا دون أن يـؤدي فيهـا حركـات راقصة...فقد تواتر الناس أخباراً عن هلاك من يخرج على هذا التقليد...

ولما رآني كبير الحداة أهزأ بما سمعت أغلظ في اليميـن مؤكـداً أنَّ الأمر جد لا هزل فيه...ومن لم يرقص أصابته الحمى الربعية!...

التفت إلى الحاج مصباح قائلاً:

– أترانا نعبر راقصين؟ وكيف يكون منظرنا أمام القافلة؟

– شيخ هازل ...وفقيه راقص...

– أما أنا فلن أغير من مشيتي.

- ولكنك تعرض نفسك لخطرٍ مؤكد...

- ((كل شيء قاتل حين تلقى أجلك))

- إذنْ فلتكتف بإسراع الخطو محركاً يديك، ورأسك ، حتـى لا تـدع مجـالاً لحشرة تلسعك أو تحط عليك...

وما أظن الطقوس الراقصة إلاَّ لطـرد الحشـرات...وعلـى أسـاسٍ مـن ذلـك تكون هرولتنا...

غير أن الحاج مصباح آثر الوقار، والسير على مهل، بينمـا أخـذت أهرول وأدفع عني الحشرات...ومرَّ الركب وهم يرقصون...

....

وتعتلي القافلة سلسلة من جبال أطلـس حتـى بلغـت موضعـاً فسـيحاً تحتله قبيلة ((هنتاتة))، وهـي فـرع مـن قبـائل مصمـودة إحـدى كـبرى قبـائل البربر، وأكثرهــا عــدداً، وأشـدها بأسـاً، وأعرقهـا نفـوذاً فـي الجاهليـة والإسلام...

ولهـا مـن اسمها نصيـب فموقعهـا المهيمـن، وتاريخهـا البطولـي، شاهدان على صمودها، وإيمانها بوحدة الأمة، وقد كان لها دور الريادة فـي ذلك في عهود الموحدين وبني مرين...

وقد توقفت قافلتنا في هذه القبيلة بعضاً من الوقت، أمكن لـي أثنـاءه التعرف على أهلها الذين ينعمون برغد العيش في القمم النائية...

اقـتربت مـن شـيخ كهـل حنكتــه السـنون، وعجمــت عــوده الأيام...رجوتُ لو حدثني عن حياة الجبال...

أجاب باعتداد بالغ قائلاً:

- إنّ حياتنا في هذه البلاد حرة كريمة تأنف الرضوخ....شامخة كالجبال...طلقة نقية كالهواء...وأكاد أجزم بالقول أنه لن يجد حلاوة الحرية من لم يتنفس عبيرها في الجبال...

ولكم يروق لنا أن نراقب من هذه الأعالي سكان المدن وهم يعيشون في حضيض الملق والمهانة...يسترضون على الدوام حكاماً طالما قصدونا يخطبون ودنا....

- أراك -ياعم- قد حقرْت المدن...وما هي كذلك...

ألا ترى أنّ الصنعة البارعة والمهارات المتعددة والفنون والعلوم تأتي في الأصل من المدن؟

- ولكن ما قيمة الصّنعة والعلم في غياب الحرية والكرامة؟

- تعلم أنّ نظام المدينة في أساسه انتقال من خشونة البداوة إلى رقة العمران....وإنما تسود أخلاق التصحر حين يسطو على الحكم سوقة، وجهلة، وبادي الرأي.....

- هذا صحيح.... ولكن رُضوخ أهل المدن، ومبايعتهم على الولاء والطاعة قد مكنّهم من العبث بهم وبمدنهم...

- حقاً إنّ مدننا اليوم لم تعد على نحو ما تأسست عليه من الشورى في الحكم، والعدل في علاقات الناس، والمساواة بينهم في الكرامة والحقوق...

- تعلم أنّ بناتها الأوائل كانوا من عرب الرسالة الذين أسسوا مدن البصرة، والكوفة، والفسطاط، والقيروان، وفاس، وقرطبة وغيرها من حواضر الإسلام...وهم يختلفون عن عرب التغريبة الذي أتوا على العمران من

القواعد، وعاشوا أعراباً في البوادي يرتزقون على الغارات، ولا يقر لهم قرار...

- لقد أكدت لي ما قرأت في كتب تاريخ أفريقيا أنَّ الخلفاء المسلمين كانوا يمنعون الأعراب دائماً من اجتياز النيل بأهلهم، وخيامهم إلى أنْ كان عام ٤٠١ للهجرة فأذن لهم بذلك أحد الخلفاء الشيعيين المستنصر بالله الفاطمي، انتقاماً من شخص صديقٍ موالٍ له كان قد ثار واستولى على مدينة القيروان ومعظم بلاد البربر....

وقد قطعت الصحراء التي تفصل بين مصر وبلاد البربر في وقتٍ وجيز نحو عشر قبائل عربية، أي نصف سكان صحراء الجزيرة العربية وبعض بطون قبائل اليمن، وكان عدد الرجال المحاربين يناهز خمسين ألفاً، ولا يكاد يُحصى عدد النساء والأطفال والبهائم...

توقفوا أولاً لمحاصرة طرابلس حتى أخذوها عنوة، ونهبوها، وقتلوا كل من أمكنهم قتله بها، ثم توجهوا إلى قابس، وخربوها، وأقاموا من بعدها الحصار على القيروان التي تحصن بها الأمير الثائر مدة ثمانية أشهر، ودخلوها عنوة، وقتلوه صبراً...ثم اقتسموا بعد ذلك البوادي وسكنوها، وفرضوا على كل مدينة ضرائب، وتكاليف جسيمة، وظلوا سادة هذه الناحية من أفريقيا، إلى أن ظهر يوسف بن تاشفين، فحرر المدن من سيطرة الأعراب الذين استقروا رغم ذلك في البوادي يقتلون وينهبون ما استطاعوا....

ولما تولى الحكم أمير المؤمنين المنصور رابع الملوك الموحدين نقل أهم قبائل الأعراب إلى الممالك الغربية فأسكن أشرفهم بدكالة، وأزغار، وأدناهم بنوميديا....

ثم عدت للحديث عن سكان جبال أطلس وخاطبته قائلاً:

- لقد كان لهذه الجبال فضل كبير في فتح الأندلس، وظلت لفترة طويلة مصدر إغاثة، ونجدة، ونصرة لأهلها، وتوحيدٍ للعدوتين معاً....وبينما كان يبدي ارتياحه لما أقول، تساءلتُ قائلاً:

مابال سكان هذه الجبال يتقاعسون اليوم عن أداء رسالتهم، لا، بل يشاركون في أعمال الفوضى؟!. تماماً كما يصنع الأعراب من سكان الخيام!....

رد على الفور وبانفعال قائلاً:

- لسنا بحاجة إلى أنْ نذكر بتاريخ قبائل الأطلس في عصور المرابطين والموحدين والمرينيين حتى كان النزاع بين أبي الحسن المريني وبين ابنه أبي عنان....عندئذ علمتنا الأحداث ألا ننتصر من بعدهما أيًا من هؤلاء الحكام، لأنه لا يكون انتصاراً على الأعداء بل تمكيناً للحكم ضد بعضهم بعضاً، وضد السكان...وليس في ذلك غرابة، فحبُّ الرئاسة أصل كل موبقة....

ففي حين استمر البرتغاليون في هجماتهم بعد استيلائهم على مدينة ((سبتة)) اضطرب الحكم، وكثرت التآمرات والاغتيالات، واعتمد بعض الحكام على يهود مثل عبد الحق المريني الذي جعلهم على الضرائب، ففرضوا الأعباء المالية التي أثقلت كاهل الأهالي...وحل من بعدهم الوطاسيون أبناء عمومتهم الذين تمكنوا من السيطرة كاملاً على السلطنة، وإنْ كان نافسهم الأدارسة الثائرون لفترة قصيرة لم تتجاوز ست سنوات....

وكنا قد أمّلنا في الدولة الوطاسية، لكنها سرعان ما حاكت من سبقها من حكام بني مرين في فرض الضرائب، والعجز عن صد هجمات البرتغاليين....وأمام استفحال الخطر لم نقف مكتوفي الأيدي...ولا أكتمك سرًّا فإنّ هذه القبيلة الأبية لم تطق حال إقليم السوس الذي أوشك الطوفان البرتغالي أن يغرقه...وقد اهتدت مؤخراً إلى الشريف أبي عبد الله محمد السعدي المنسب إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وبايعته ليخوض بها معارِك الجهاد ضد البرتغاليين....

....

تذكرتُ الحديث الذي دار بيني، وبين صديق الدراسة أحمد الأعرج، وقلت في نفسي:

((ويأتيك بالأخبار من لم تزود))

....

وإذْ أدرك الشيخ الكهل أنّ لي اهتمامات في التاريخ وأدب الرحلات أخذ يشير عليّ باقتناء مجموعة من الكتب النفيسة والمخطوطات التي قلّ أنْ يجدها الباحث عنها في غير جبل مسطاسة في طريقنا مما يلي جبل ((بني مَرَاسَنْ))، وقد تم لي ذلك، إذْ وجدت السكان على الرغم من معيشتهم في قمة جبل شديد البرودة، بعيد عن مدينة فاس لكنهم أقرب إلى علومها ومعارفها، وآدابها الرفيعة أكثر من الفاسيين، بل إنّ كثيرين من أدباء فاس ينتمون إلى هذه المنطقة....

وهم على دماثة خلق، وطيب عيشة وثراء، وحسن هندام، وعزة، وإباء...

ويحسن الكثيرون منهم الكتابة بخط في غاية الإتقان، ولذلك ينسخون عدداً كبيراً من الكتب، ويبيعون مخطوطاتهم في فاس، ولا يؤدون للسلطان أية ضريبة، وإنما يقدمون له بعض الهدايا البسيطة!...

ومثلهم سكان أعالي الجبال الأخرى....جبل بني مراسن، وجبال زيز التي تشتمل على خمسة عشر جبلاً، كلها باردة وعرة، تنبع منها أنهار كثيرة ويسكنها قوم من قبيلة زناكة، مرعبون، أقوياء، وأصحاب بأس وشدة، لا تعرف رؤوسهم غطاءً، ولا صدورهم رداءً، وهم على ذلك صيفاً وشتاءً...يلفّون سيقانهم بخرقٍ مفتولة يستعملونها نعالاً، ويملكون عدداً وافراً من الخيل والحمير والبغال...

والغابات قليلة في جبالهم، وهم أكبر اللصوص، وشر القتلة...عداوتهم للأعراب عميقة متأصلة، ينهبونهم ليلاً، وإنْ لم يقدروا على شيء آخر أخذوا جمالهم ورموا بها من أعلى الصخور نكاية فيهم وهم ينظرون!....

وقد رأينا في هذه البلاد شيئاً يكاد يكون من الخوارق...وهو كثرة الأفاعي التي تزحف في البيوت في غاية الوداعة تماماً كصغار الكلاب والقطط...وعندما يتناول المرء الطعام تتجمع حوله الثعابين، وتأكل قطع الخبز وغيره من المأكولات التي تقدم لها....ولا تؤذي أحداً أبداً إذا لم يؤذها!...

....

ونشق طريقنا في منحدر جبلي وعر متجهين صوب السهل من سفح جبل عيسى الذي تقوم عليه ((مدينة سجلماسة))، والتي أسسها -حسب بعض مؤلفينا- قائد روماني ذهب من موريطانيا فاحتل نميديا بأسرها، ثم

زحف شطر الغرب حتى ((ماسـة)) فبنـى المدينـة وسـماها ((سـجِلُّوم ميسَـي)) لأنها كانت آخر مدن دولة ماسة، ولأنها كـانت كالخـاتم الـذي يسـجل نهايـة فتوحاته، فحرف هذا الإسم بعد ذلـك وتحـول إلـى سجلماسـة...وقـد جـددت ونظمت في العقد الرابع من القرن الثاني للهجرة على يـد عيسـى بـن يزيـد الأسود المكناسي الصفري، الـذي يقـال أنَّ تسـمية جبـل عيسـى نسـبة إليـه، ولذلك قصة يرويها ابن الخطيب وهي أنَّ أهل سجلماسة أخذوا على عيسـى بعض مآخذ أنكروها عليه، فقبضوا عليه، وشدوا وثاقه إلى أصل شجرة في سفح الجبل بعد أن طلوه بالعسل، وتركوه حتى قتلته الزنابير والنحل، فسمي هذا الجبل لذلك باسم جبل عيسى!!

ولئـن شـرع عيسـى فـي تخطيـط المدينـة، وأكمـل بناءهـا ، وأتقـن أسوارها، وقسَّم مياهها، وأمر بغرس النخيل والاستكثار منه فإنه وفد عليهـا من بعده حَدَّادٌ من جالية الربض بقرطبة يدعى أبا القاسم سمفون أنجب ابنـاً ترعرع في بيت حكم حتى تولاه من بعد والده ولقب بأبي المنصـور، وإليـه يعود تأسيس ((دولة بني مدرار)) التي اتخذت سجلماسـة عاصمـة لهـا، وبهـا اختط المصـانع والقصـور، وتبـدو مدينـة ((سجلماسـة)) اليـوم خربـة بعـد أن كانت مدينة متحضرة جداً ودورها جميلة، وسكانها أثريـاء بسـبب تجـارتهم مع بلاد السودان...وهـي حسـنة الموقـع صحيحـة الهـواء، تقـوم علـى نهـر ((زيز))، وأحيطت بسورٍ عالٍ مازالت بعـض أجزائـه باقيـة...تجمـع سـكانها الآن في القصور، وتفرقوا هنا وهناك في الإقليم كله...

وكان علينا أن نقيم في هذا الإقليـم أيامـاً وليـالي نسـتعد فيهـا لقطـع مرحلة بعيدة الشقة تنتظرنا، واتفق أن الحاج مصباح اشـتدت عليـه الحمـى، وخشينا أن تكون حمى أم جنيبة الربعية قد هاجت عليه، مما اضطرنـا إلـى

الإقامة في قصر المأمون، وعندنا علاقات مع أهلها، وعشنا فترة زاهية مع الطريقة الشاذلية الجزولية وهي ترفع راية الجهاد بزعامة أشراف سجلماسة من السعديين الذي يتحرقون شوقاً لملاقاة الغزاة من البرتغاليين في إقليم السوس.

وكان ساح المدينة البادية يعج بالخيالة والفرسان الملثمين...جماعات تتدرب على المنازلة بالسيف.... وجماعات ترمي بالرمح ..وثالثة تتحضر للانطلاق لتنفيذ مهام جهادية ....فأيقنتُ أنّ الصوفية هنا جهادٌ ومواجهة مع الأعداء وليست انزواءً أو هروباً في عصر الهزائم الذي نعيش، وليست تحللاً من الشريعة، ولاخُزَعْبلات، وتمتع بالملذات، وفقد لكل اتزان، فمع بالغ الأسف أصبح كل جاهل في عصرنا يريد أن يكون صوفياً...وذهب كثيرون يقيمون مآدب ينشدون فيها أناشيد غرامية ويرقصون رقصاً طويلاً، ويحدث أحياناً في هذه اللقاءات أن يمزق أحد الحاضرين ثيابه تأثراً بما ينشده المنشدون، أو بسبب الأفكار الطائشة التي قد تخطر ببال أناس فقدوا الحياء، والأخلاق الكريمة، ويقول هؤلاء القوم حينئذ أنهم مكتوون بلهب الحب الإلهي، وما أظن شخصياً إلاّ أنهم مكتوون بالإسراف في الطعام، لأنّ الواحد منهم يأكل ثلاثة أضعاف ما يكفي لشخص واحد، أو أنه على ما يبدو لي أكثر احتمالاً، عندما يطلقون تلك الصرخات المصحوبة بالآهات، إنما يفعلون ذلك من أجل الهوى الذي يكنون لبعض الغلمان المرد...وليس من النادر أن يدعو بعض الأعيان إلى أعراسهم أحد الشيوخ البارزين لهؤلاء المتصوفة مع جميع مريديه، فإذا أتوا الوليمة بدؤوا بتلاوة الأذكار، وترتيل الأناشيد، وبعد تناول الطعام يأخذ المسنون منهم في تمزيق ثيابهم، وإذا سقط أحدهم أثناء الرّقص أوقفه حالاً

على رجليه أحد الشبان المتصوفين، فقبّله العجوز في الغالب قبلة شهوانية!!...ومن ثم جاء المثل السائر على جميع الألسنة بفاس: ((مثل مأدبة النُّساك التي حوّلتنا من عشرين إلى عشرة))، ومعنى ذلك أنّ كل مريد حَدَثٍ يعرف ما ينتظره ليلاً بعد الرقص!..

ويُسمى هؤلاء الصوفيون نساكاً، لأنهم لا يتزوجون، ولا يعملون، ولا يمارسون أية مهنة، بل يعيشون كما اتفق!...

وقد شدّني أحد شيوخ الصوفية الأتقياء الأنقياء إلى قول عبد الله بن المبارك وهو يردده أمام المريدين تهذيباً وتقويماً لهم:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا   لعلمت أنك بالعبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه   فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل   فخيولنا يوم الكريهة تتعب
ريح العبير لكم، ونحن عبيرنا   رهج السنابك، والغبار الأطيب.

....

وكانت مفاجأة سارة لي أنْ أرى الشريف أحمد الأعرج في أحد مجالس العلم، وقد وقف فيهم محدثاً بكلمات بسيطة تنفذ إلى القلوب ومن ذلك قوله: إنّ الأمة المجاهدة قوية بإيمانها، وليست بحاجة إلى إضاعة الوقت في سوق الأدلة لإقناع نفسها بوجود الخالق، ويحضرني في هذا المقام لحظة كان الصليبيون يدنسون باحتلالهم بيت المقدس انشغال البعض في علوم ما فاض من الوقت، ومن ذلك إفراطهم في علم الكلام...

وقد قيل لعجوز بصرية: إنّ الإمام أبا حامد الغزالي جاء بألف دليل ودليل على وجود الخالق، فردّتْ عليه قائلة: إنّ هذا يعني أنّ عنده ألف شك وشك في وجود الله!!...ولو أنّ الرعيل الأول من المؤمنين المجاهدين

الذين فقهوا القرآن الكريم اشتغلوا بمثل ما نحن فيه لتأخرت الفتوحات مئات السنين!!...

ومضى الشريف الأعرج يتحدث وهم له منصتون: ...وهناك من أوغل في بحور الغواية الشعرية، وهام في أوديتها، يتباهى في حفظ شعر المعلقات، ويغرق إلى الأذقان مع شعر النقائض ظاناً أنه قد بلغ بها الطعن والنزال، ونسي قول أبي تمام أنَّ:

السيف أصدق إنباءً من الكتب في حدّه الحد، بين الجد واللعب.

وآخرون دلّس عليهم إبليس وصدق فيه ظنه إذْ راحوا يشتغلون بما لم يُنَزَّل القرآن من أجله، ووقفوا طويلاً ولعشرات السنين أمام ((النملة)) المذكورة في الآية القرآنية: ﴿ **قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم**﴾ متسائلين أهي ذكر؟ أم أنثى؟، وانقسموا فريقين..ولكل فريق حجته!!...

وسواء أكانت ذكراً أو أنثى، فإنَّ الاشتغال بها صدٌّ عن سبيل الجهاد وهروب من مواجهة البرتغاليين الغزاة الذين يسحقون الإنسان قبل النملة!!....

وكان عليهم وعلى غيرهم أن يأخذوا بقوله تعالى :

﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله ، وعدوكم**﴾.

وكان لزاما علينا جميعاً وأرضنا محتلة، وكرامتنا مهددة ألا نخلد إلى الراحة وألا نتطيب حتى نحرر البلاد وندحر الغزاة...وأنّى لمحزونٍ أنْ يلبس التاج؟!

وكي لا يُساء فهم حديثه استدركه بقوله:

غير أني لا أنكر عليكم اغتراف، واكتساب المعرفة والعلم، فإنَّ خير ما يميّز أمتنا غنى فكرها وثراء تراثها، وسعة علومها، وسمو معارفها...وإنما يتحقق ذلك من بعد جهاد يُمَكِّنُ من الاشتغال بسائر علوم الكلام، والفقه والبيان، والطب والهندسة والكيمياء والفلسفة، ولزوم ما يلزم ومالا يلزم، وعندها يكون الشعر ديوان العرب، ويكون تداول قصص المهلهل وأبي زيد الهلالي والزير سالم وعنترة بن شداد مؤانسةً وإمتاعاً، في ما يفيض من الوقت...

وما كاد يراني حتى نهض من مجلسه ، وأسرع إليَّ يعانقني، ويجْلِسني إلى جواره...

وبينما مضى يواصل حديثه سَرَحتْ بي الذاكرة إلى جامع القرويين، وقد تحلّقنا من حول الشريف أحمد الأعرج إثر عودته من بلاد السوس ليصف لنا كرَّهُ وفرَّهُ في معارك البطولة ضد البرتغاليين، ونحن بين مصدق ومكذب، وكيف كان جلداً، عَنُوداً قوي الثقة بنفسه، مفاخراً بعرجته التي كانت لدى البعض محل سخرية وتندر، وكان يردد أمام الجميع أنَّ عرجته تلك بفعل معارك الجهاد، وإنه يود لو يطأ الجنة بها.....

....

وتُكَرَّمُ قافلة السُّلطان، ويَحْتَفِيْ بها الشريف أبو عبد الله محمد السعدي وكان صاحب رأي وحزم، لا يشغل بَالَهُ غير الجهاد ومنازلة المحتلين، وقد وطَّن نفسه وأهل بيعته، على تحرير إقليم السوس من الوجود البرتغالي، ومن أجل ذلك كانت حركته الجهادية، والتي أقام لها تنظيماً إدارياً وسياسياً، وجعل للإقليم روابط وعلاقات تَشُدُّ من أزر القبائل، وتوحد

صفوفها، وتدفع عنها غوائل الفقر، وكأني به يخطط لحركة كاملة لها أهدافها السياسية والاقتصادية والثقافية!!...

ويسير في وداعنا الشريف أحمد الأعرج، وعلماء وشيوخ القبائل وأعيان المدينة، حتى بلغنا مشارف الطريق التجاري الصحراوي عند أطراف نهر زيز، وهو طريق مطروق من قديم ..وقال مشيراً في اتجاه الجنوب:

- مساركم إلى ((تومبكتو)) من هنا، وقد وددتُ لو كنتُ معكم لولا أنني ماضٍ في ركب لتعقب البرتغاليين، وتأمين الخط التجاري القادم من السنغال، والسودان الغربي إلى ((تيدسي)) و ((آقة))...

....

في جوف الصحراء النوميدية

وأخذت قافلتنا تتوغل في أرض قفر، ما بها صافرٌ ولا ديَّار، ولا نافخ ضرمَةْ....قطعناها في تسعة أيام بلياليها، مهتدين بالنجوم من بعد المغيب....حتى بلغنا واحةً تقوم عليها بلدة ((تبلبلت)) فتزودنا من مائها وبلحها، لمراحل قادمة في منبسط صحراوي مديد من صحراء نوميديا، أكبر وأطول مراحل خط سيرنا الذي يصح أن يطلق عليه خط الموت، أو خط السراب الدائم....

وفي جوف الصحراء النوميدية، برزت أمامنا جماعة كبيرة قوامها خمسمائة رجل راكبين على الجمال يتقدمهم أمير صنهاجة تبين لنا عند اللقاء أنهم قدموا من سهل أروان لاستضافتنا...وكان علينا أن نلبي الدعوة

وإنْ كان في ذلك مشقة....فمضارب صنهاجة تبعد ثمانين ميلاً عن الطريق...

وما كدنا نصل إلى الخيام حتى أمر بذبح عدد من الجمال الصغيرة والكبيرة والغنم وبعض النعامات التي اصطادوها في الطريق...وأثناء الغداء لم يتناول أي نوميدي خبزاً، وإنما أكلوا اللحم وشربوا اللبن فقط...

وعندما لاحظ الأمير تعجبنا، قدَّم لنا توضيحاً خلاصته أن الناس وجدوا في هذه القفار التي لا تنبت أية حبة، ويتغذون بما تنتجه أرضهم....وما يتزود به كل عام من الحبوب يدخرهى لإكرام الغرباء، أما قومه فقد تعودوا أن يأكلوا الخبز أيام عيدي الفطر والأضحى...

وقد أقمنا بينهم ثلاثة أيام تبين فيها الكثير من عاداتهم وطبائعهم...فهم لا يخضعون لأي قانون أو شرع، وهم أميون يجهلون كل شيء لا الأدب فحسب، بل الفنون وجميع المعارف، ولا يكاد يوجد في القبيلة بأسرها قاضٍ يستطيع أنْ يفصل في نازلة...وهذا الجهل ناتج عن كون هؤلاء القوم لا يخصصون أي وقتٍ للدراسة ويمتنعون من مغادرة صحاريهم في طلب العلم...فالأعراب خارج الصحراء كالسمك خارج الماء....

ويضع أشراف هؤلاء القوم على رؤوسهم لثاماً أسود يحجبون بطرف منه وجوههم التي لا يرى منها غير العينين، ولا ينزعون اللثام أبداً، بحيث كلما أرادوا الأكل، أخذوا لقمة من الطعام وكشفوا عن أفواههم ثم غطوها في الحين.

ويعللون هذه العادة بقولهم إنَ المرء يخجل لإدخال الطعام خجله من إخراجه!!...ونساؤهم ممتلئات لحماً وشحماً، لكنهن غير شديدات

البياض، أردافهن غليظة سمينة، ونهودهن بارزة، بيد أنَّ خصورهن في غاية الرقة، يتحدثن بظرف، ويمددن أيديهن عن طيب خاطر...وقد يسمحن للرجال بلثمهن لكن تعدي ذلك الحد خطير، يؤدي إلى اقتتال الرجال بضراوة متناهية، وهم لا يقبلون الخدعة في أعراضهم بأي ثمن...

وقبائل صنهاجة شأنهم شأن قبائل ((ونزكة))، و ((تاركة))، و ((لمطة)) و ((بردوة)) يقضون حياتهم كلها في الصيد، واختطاف جمال أعدائهم، ولا يقيمون في أي موطن أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة ريثما ترعى إبلهم كلأه...

....

قلت للحاج مصباح ونحن نقطع ما تبقى من الطريق إلى تومبكتو، وشواهد الأعراب والقبائل الرحل تزدحم في ذهني:

- ما أظن أنّ هناك قوماً أقلّتهم هذه الصحراء، يَعرفون شيئاً عن محنة الأندلس...بعد أن كان أجدادهم فاتحين لها وموحدين...فما الذي تغيَّر؟!
- لعله سؤال تحسر، لا يبحث صاحبه عن الإجابة...وقد رأيتَ مدى تمكن الجهل والأمية من نفوسٍ لا يهمها سوى السلب والنهب، والصيد والاقتتال...فأين سيكون للرسالة منها نصيب؟
- ولكن هل تُترك هذه القوة مهدرة تبتلعها رمال الصحراء؟
- إنّ إصلاحها يبدأ بإصلاح القلب في حواضر الأمة ومواضع قيادتها التي إذا صلحت صلح جسد الأمة.....

....

في مملكة تومبكتو

استقبلنا بخير ما يستقبل به ضيوف الملك، وأنزلنا في مقصورة ملحقة بقصرة في حاضرة «مملكة تومبكتو» -الاسم الحديث لمملكة الزنوج- ، وتومبكتو اسم الحاضرة التي بناها ملك يدعى منسا سليمان عام ٦١٠للهجرة... وهي تقع على بعد اثني عشر ميلاً من أحد فروع نهر النيجر...ودورها عبارة عن أكواخ مبنية بأوتاد مملوطة بالطين، ومسقوفة بالتبن...وفي وسط المدينة مسجد مبني من الحجر المركب، والطين والجير، والقصر الكبير الذي يسكنه الملك، وقد بناهما مهندس أندلسي....وتنتشر في المدينة دكاكين كثيرة للصناع والتجار، لاسيما دكاكين نسّاجي أقمشة القطن.

والسكان أغنياء مترفون لاسيما الأجانب المتيمين في البلاد، حتى إنّ الملك زوّج اثنتين من بناته من أخوين تاجرين لغناهما!...

ولأهل المدينة عدد كثير من الرقيق ذكوراً وإناثاً يعملون في خدمتهم......

وقد فُطر أهل تومبكتو على المرح، وتعودوا على التجول في المدينة بين الساعة العاشرة ليلاً، والواحدة صبحاً، وهم يعزفون على آلات الطرب، ويرقصون...ونساؤهم محتجبات باستثناء الجواري اللائي يبعن المطعومات...

ويستعملون قطع الذهب الخالص لشراء الأشياء التافهة بدلاً من العملة المسكوكة...والملح قليل جداً في هذه البلاد...وقد جعلت الندرة

[الذهب مقابل الملح] ووجدتُ الملح يساوي ثمانين مثقالاً ذهباً، ولندرته هذه لا يوضع في الطعام بل يكتفى بتذوق فص الملح من طرف اللسان!...

....

في حضرة أسكي العظيم

أسكي العظيم هو اللقب الذي تطلقه قبائل وشعوب الزنوج على زعيمهم الملك ((محمد تُوري))، الذي أمكن له أن يؤلف بين معظم قبائل الزنوج، ويخلصهم من طقوس الوثنية، والعادات والأعراف المقيتة، وينجح في توحيد أقاليم البلاد الزنجية، وتنظيم أعمال الدولة وربطها بحاضرتها...

ويتميز عهده بشيوع العدل والأمن، وانتشار مدارس القرآن الكريم، والزوايا، وازدهار الزراعة، والتجارة، والحرف المختلفة....

وفي حضرة ((أسكي العظيم)) الذي امتدت أطراف دولته إلى أرجاء واسعة من البلاد الزنجية قال لنا أهل خاصته وبكل تواضع:

- إننا نُحبكم...نحب المغاربة، ونحترمكم، ونقدمكم علينا...فهدايتنا كانت على أيديكم...ولقد تأثرنا بكم كثيراً، حتى أنَّ مدينة ((تومبكتو)) أخذت طابع المدن المغربية في تخطيطها وتنظيم بيوتها وأسواقها....
- إنها هداية الله لنا جميعاً أن كنا خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله...

وقد دونت عيون الكتب ما بيننا من تاريخ عريق، وتقاربٍ في الأنساب، وصلةٍ في الأرحام...فمنذ أواخر القرن الثاني الهجري أُرِّخ لصلة المشرق والمغرب بأمصار السودان وبلاد الزنج التي شهدت امبراطوريات

وممالك عريقة كتلك التي قامت في غانا، ومالي، وتكرور وكانم، ومندنغ، وداهومي، وصنغاي....

وأخذتُ أصفُ ما خلدته تلك الممالك والامبراطوريات من حضارات عريقة سجلها مؤرخو تلك الفترة أمثال محمد بن إبراهيم الغزاري وابن عبد الحكم، واليعقوبي، ومن تلاهم أمثال ابن بطوطة والبكري والمسعودي وابن حوقل وابن خلدون وابن الرقيق...

وخلصتُ إلى القول أنَّ أمتنا بما لها من جاه وقوة وعمران تتعرض اليوم لهجمات البرتغاليين والأسبان الذين مازالوا أسرى الجهل والتخبط في ظلام الهمجية ولا يجيدون سوى أعمال القرصنة والسطو على الشعوب وخيراتها...

ثم تحدث الحاج مصباح عن الروابط الخاصة بين المغرب وبين مملكة تومبكتو مبدياً قلق سلطان فاس على مصير هذا الموروث العمراني الكبير من امتداد أيدي اللصوص والقراصنة البرتغاليين والأسبان إليه، والذين أخذوا يجوبون السواحل الغربية والسودانية، ويحتلون الأرض، وينهبون الثروات، ويسترقُّون البشر....

وأخذ الحاج مصباح يذكر الحاضرين بأنَّ بداية الخطر كانت منذ تهاوى الدرع الأندلسي، مما أغرى الأعداء بأرض العدوة المغربية، ولما تمكنوا من الاستيلاء على مدينتي ((سبتة)) و ((مليلة))، تتالت هجماتهم وإغارتهم على الساحل الغربي واحتلال جزء من ساحل السوس الأقصى...وكلما أحسوا بضعف المقاومة تمادوا في بسط سلطانهم، وهاهم يقتربون من شواطي السودان الغربي، وقد ازداد طمعهم في الاستيلاء على هذه البلاد لما شاع بينهم وفي عموم بلاد الفرنجة أن هذه الممالك موطن

مناجم الذهب، ومستودع الفضة ومصدر العاج وأخشـاب الأبنـوس، وأرض الرقيق وأقنان الأرض...

وقد تـأكد لهم صحـة هذه الشـائعات مـا عـاد بـه الأمـير ((هـنري الملاح)) ابن ملك البرتغال من رحلته الأولى مـن سواحل السـودان الغربـي والـذي تمثـل بحفنـة مـن تـراب الذهـب، وعشـرة مـن الرجـال لبيعهـم فـي أوروبا!....

ثم قدّم الحاج مصبـاح بعد ذلـك رسـالة السـلطان بيـن يـدي أسـكي العظيم...

وبحكمة الزعامة التي لا تفقد الثقة بالمستقبل أخذ أسكي العظيم يشدُّ من العزائم، ويخفف من وقع الهزائم، ويضع حدًّا للتباكي والنواح قائلاً:

- لا فائدة من العويل يوم يموت البطل....

ولئن خسرنا حروباً لكننا كأمة لم نهزم.....

وإنني لأدعو اللـه أنْ يهبنـي الشـهادة، ومـوت الأبطـال وإن إخوتنـا المغاربة الذين أهدونا نعمة الايمان والاسـلام،لـن ندعهم يواجهـون الخطـر فرادى .."فمن أكل العسل مع صديقه كان لزاما عليه إرواءه "

كـان الملـك يتحـدث ..وكنـا لانشـك فـي صدقـه، فقد عـرف عنـه الوفاء،ومن حوله عدد كثير من القضاه والفقهاء والأئمة يدفـع اليهـم جميعـا مرتبا حسنا،ويعظـم الأدبـاء كثيرا...وهـو مهيـب الجـانب فـي عمـوم بـلاد السودان، يؤدىاليه الخراج مـن جيرانـه ومـن أبـى حاربـه، وبـاع الأسـرى عبيداً وهو عدوٌّ لدود لليهود، لا يريد أنْ يقطن أحدٌ منهم فـي المدينـة، وإذا علم أنّ تاجراً من بلاد البربر يخالطهم أو يتجر معهم صادر أمواله...

....

مع رئيس العطارين، وشيخ الزّاويَة

أخذنا نتجول في سوق المدينة ودكاكينها، ونتعرف على السكان وما يجول في الشارع...وأكاد أزعم أنّ الهموم واحدة، والتفكير في قضايا الأمة لا يختلف بين إقليم وآخر أو مصر وآخر...وفي مشرقها أو مغربها، وشمالها أوجنوبها...

التقينا في سوق العطارين برئيسهم وكان من اليمن فجعلتُ أردد أمامه قول ابن الفقيه في كتاب البلدان:

((أبعد الناس نجعة في الكسب: بصريّ، وحميري...

ومن دخل فرغانة القصوى، والسوس الأقصى، فلا بد أنْ يرى فيها بصرياً أو حميرياً...))

تبسم وأدرك ما قصدت وقال:

- لعلك تريد معرفة كيف وصلت إلى هذه البلاد القصيّة؟

ومضى يتحدث عن مغامراته، وركوبه الأهوال، ومغالبته وحوش الأدغال، ونجاته من سمك القرش في البحار، حتى استقامت تجارته في هذه الحاضرة الميمونة، ثم قال مشدداً في كلماته:

ولم أجد أشق على النّفس، وأنكى للكرامة، وأخطر على الروح، من لؤم اليهود، وجهل الوثنيين، ودموية الإفرنجة.

فقد اضطرتني أعمالي في التجارة إلى التّعامل مع يهودي في مدينة ((جوا)) عند منحنى نهر النيجر، حيث تجارة الذهب...وخسرتُ ما كان معي من المال، فعزمتُ على الرحيل الى تومبكتو،لكني رأيت أن أصل إلى ساحل العاج البعيدة عن تومبكتوعلى مراحل بعيدةٍ في الجنوب الغربي فيها

لوجود من أعرف هناك من الاصحاب يعملون في تجارة التوابل والاعشاب الطبيه والعطور،وهم الذين رأوا أن أكون شريكهم في تومبكتو

وفي طريقي الى تومبكتوأحاط بـي بعض من رجال قبيلة"الكرو" نفروا من أكواخ داخل الغابات،وأخذوا يضيقون علي الخناق حتى اقتادوني إلى رئيس القبيلة، الذي أبقاني تحت الحراسة المشددة في انتظار أجلي المحتوم في ما يسمونه يوم ((تضحية الأسير))...

وتمضي أيام ثلاث تُهدُّ لها الجبال...

في كل يوم أرى أسيراً يساق في مهرجان التضحية، ويعودون بِجمجمته ويضعونها بين الجماجم المعلقة حول كوخ الرئيس!...

ويقترب موعدهم معي...حَيث سأغدو بعد لحظات عظاماً بلا روح، وبِلاَ دم ولحم...إنني هنا في الأدغال بين أكلة لحوم البشر حيث شريعة الغاب، والوثنية، وتقديس السَّلَف، والتي توجب على من يخلف رئيس القبيلة عند موته أنْ يأكل قلبه، أو مخه، حتى يرث صفاته وقواه الجسدية والعقلية!...

وتضطرب أنفاسي، وتخور قواي، ويفرغ فؤادي حين قدم فتيان زنجيان شديدان، وتجرعتُ على يديهما شراباً طويت له معدتي ولعله شراب ممزوج بفلفل وما يشبه الخشخاش، وقاما بعد ذلك بغسل وجهي، ثم دهناه بالفحم، فأيقنتُ أنها ساعة النهاية، وأخذتُ أذكر الله، وأقرأ ما تيسر لي من القرآن بينما القوم في صخب ينتظرون وصول الرئيس الذي أقبل، وقد دهنَ أحد خديه باللون الأسود، والآخر باللون الأبيض، ودهنَ أنفه وجبهته باللون الأحمر، ووضع على رأسه إكليلاً من سعف النَّخل، وطوق عنقه بِخرزٍ ، وقطعٍ من سنّ الفيل....وعضَّ بين فكّيه سيفاً.

سار الرئيس في مقدمة الموكب الهمجي، وهو يؤدي حركات راعشة بينما كانوا يؤدون من بعده رقصات الغاب ابتهاجاً بافتراس إنسانٍ أسير!.... وكانوا يخزون جسمي المنهك بعيدانٍ مدببة فهمتُ منها أنهم يريدون أنْ أرقص مثلهم!....

وأخذت أرقص، وأرقص تماماً كما يرقص الطير مذبوحاً من الألم!...وساروا بي إلى ((وادي الحتْف))، وما أن أوشكوا على الانتهاء من طقوس افتراس الضحية، حتى كان من حولهم جماعة من البِيْض ملأوا الجو بدوي عياراتٍ نارية في كل اتجاه فتحاشر أصحاب المهرجان، واختلط الحابل بالنابل وأهملوني تماماً، ولم أعد الضحية الأسير، لكنني وجدتُ نفسي مطوقاً مثلهم، وأنَّ شراكاً قد نُصبب لاصطيادنا، وبيعنا في سوق النخاسة...وذلك حين سكتت نيران البنادق في اتجاه الساحل بينما استمر دويها في بقية الجهات مما جعل الوثنيين البدائيين يتراكضون نحو الساحل حيث تنتظرهم سفن الاسترقاق...أما أنا فقد سقطت من الإعياء في موضعي، ولم يُلق لي القناصة والقراصنة بالاً...إذْ كانوا يبحثون عن صيدٍ ثمين يتمتع بقوة جسمية....

وسكت لحظة يلتقط فيها أنفاسه ثم قال:

– ما أتعس الإنسان، وما أشد بؤسه، وشقاءه حين يتنكر لآدميته النبيلة، ويحاكي بسلوكه سمك القرش ووحوش الغاب!

الوثنيون يحصد بعضهم بعضاً، ويسترق بعضهم بعضاً...ويتلذذون بأكل لحوم البشر...وهناك من يتربص بهم وبِغيرهم قدموا من بلاد الفرنجة لاسترقاقهم ونهب ثرواتهم وخيراتهم عنوة!...

ألا ما أسعد الإنسان متحرراً من الوثنية والرّق وعبادة الهوى...وها أنذا أَنْعم بالأمن، والإيمان، في حاضرةٍ كرمَّها اللهُ بِدِيْنِ الكرامة والمساواة.

وكان معنا شيخ الزاوية يتابع الاستماع إلى حديث رئيس العطارين حتى إذا فرغ من حديثه أمسك من جانبه بزمام الحديث قائلاً:

- ما أصعب لحظات المطاردة للقبض على الآمنين واسترقاقهم، إذْ ينهالون على هؤلاء البسطاء الأبرياء ضرباً بالسياط ليخرجوهم من أرضهم، ويسلطوا عليهم الكلاب المتوحشة تنهش لحومهم، وتُدمي جسومهم...ومن ألقوا عليه القبض من بعد إجهاد، ولما تزل فيه بقية من حياة، انتقموا منه سريعاً بخرق طبلة أذنه، وكبلوه بالسلاسل، وأثقلوه بالأغلال، ودفعوا به إلى ظهر السفينة كما تُصَاد الحيتان!....

ومما يؤسف له أنْ يقحم على النصرانية ما ليس منها حيث مارس أدعياء أفاقون، العنف طريقةً للتبشير ابتداء من شر ما صنعوه في الأندلس حين قاموا وخلال ثلاثة أشهر من الإكراه بتعميد سكان البشرات ووادي آش، والمرية، وبسطة، وطردوا من أبى التعميد وصادروا ممتلكاته ناهيكم عما نصبوه من محاكم التفتيش الجائرة!...

وامتد أخطبوطهم إلى بلاد السودان يغرونها، ويشيدون الحصون والقلاع على السواحل الغربية لتكون مخزناً لتجيمع الزنوج، وشحنهم رقيقاً إلى أوروبة...

ويالها من مهانة أن يظهر القسس على بسطاء السودان بمسوح الرهبان، ليعمدوا كل رجل وامرأة وطفل جرى اختطافهم ثم يتم وضعهم في الأغلال داخل السفن، ومن مات منهم في عرض البحر، وجدت روحه

الخلاص، وألقي به طعماً يلتقمه الحوت، ومن شَقي بأحله وبقي حيًّا في البرّ الأوروبي، بِيْعَ في سوق النخاسة لتربح به الكنيسة مبالغ طائلة وهكذا راجت تجارة الرقيق!..

....

ثم اصطحبنا الشيخ الفاضل إلى الزاوية، وهي تشتمل على مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم الدين، ومبادئ العلوم الأساسية والتربية الجهادية...وملحقّ بها دار ضيافة للأغراب....

وأخذ يحدثنا عن الزاويا وأعمالها قائلاً:

تنتشر الزوايا في هذه البلاد تواصلاً مع ما هو موجود لديكم في بلاد المغرب، وترتبط بالطريقة الصوفية الجزولية الشاذلية التي نشأت عندكم عندما اشتدت وطأة النصارى على المسلمين في الأندلس وغزوا الساحل المغربي، فكانت بمثابة القوة التي أعلنت الجهاد، وقادت حركته في عموم المغرب، وغدت جزءاً من الحركة العلمية والسياسية في الحياة العامة...وهي عندنا في هذه البلاد كذلك...

ومضى يزيل اللبس الذي وقع فيه البعض حول مفهوم الصوفية والاعتكاف في الزوايا وصلتها بالحياة العامة، خاصة وأنها أفرغت من معانيها السامية في العصور المتأخرة في بلاد المغرب...وقال:

– الصوفية سعي نحو الصفاء والنقاء، واختبارُها الجهاد...

والزواية غير الانزواء، وقد جاءت تسميتها من زاوية المسجد التي يتعلم فيها المسلمون أمور دينهم ودنياهم، ومنها ينفرون لنصرة دين الحق...

وتهدف الزاوية في هذه البلاد إلى تحرير الناس من الوثنية، وتقديس السلف، وهوايتهم إلى الإسلام، وتعليمهم القراءة والكتابة، وتدريبهم على جهاد النفس ومن ثم جهاد الأعداء...

وقد كان لانتشار الزوايا في أنحاء متفرقة من بلاد السودان أثر كبير في اعتناق الإسلام من قبل عدد كبير من القبائل والشعوب.

فقبائل وشعوب الوالوف، والسيرر، والتوكولور، والماندنجو المنتشرة في السنغال والساحل الغربي حتى ثنية نهر النيجر شرقاً يدين معظمهم بالإسلام...وهناك قبائل وشعوب الصنغاي، والماساي والكرو، والأشانتي والأفانتي المتشرة بين ثنية نهر النيجر إلى الجنوب من مدينة تومبكتو وحتى ساحل العاج والجزء الجنوبي المطل على خليج غانة يدين معظم الذين يحيطون منهم بتومبكتو بالإسلام، لكنّ معظم من تبقى مازالوا على الوثنية ودين السلف.

أما قبائل وشعوب الهوسا، واليوروبا، والأبيبو المنتشرة في المناطق المحيطة بمصب نهر النيجر وعلى الأخص إلى الغرب والشرق منه فإنّ معظمهم مسلمون وقلة منهم وثنيون يقيمون في الجنوب...

وعموم السودانيين يعيشون عيشة حسنة، أوفياء، ويحسنون استقبال الغرباء، وهم في غاية الصراحة، يعظمون العلماء، والفقهاء ويوقرونهم، لكنهم يقضون أوقاتهم في اللهو، والمجون، يرقصون، ويولمون بأكثر ما يمكن!...وإننا لنصبر على هفواتهم وزلاتهم، ونُوغل بهم في الإسلام برفق...

....

عدت ليلتها مستمتعاً بحديث رئيس العطارين، وسعيداً بصحبة شيخ الزاوية، غير أني ما كدت أضع رأسي على المخدة حتى أسلمني تعبُ السير نهاراً حول تومبكتو التي لا يحيط بها بستان أو حديقة إلى نومٍ عميقٍ، غزتهُ الكوابيس المرعبة وأحسستُ بانقباض في النفس، وضيق شديد في التنفس، وحاولت أن أتململ..أن أحرك أي عضو من جسدي لأزيح عني الكابوس على نحو ما كنا نُنْصَح في طفولتنا....لكن الإنقباض كان يزداد...لحظتها قلت في نفسي إنه ليس كابوساً، فها أنذا قد أفقت من نومي...إذْن فما سببه؟

لربما كان بسبب ما آلت إليه أوضاع البلاد المغربية!..

ولربما كان بسبب فراق الأهل!...وابتعادنا عن الأندلس!...

ولكن أيًّا منها ليس طارئاً على النَّفس، فقد صحبناها معنا....

وظللت أفتش في الأسباب حتى أشعلتُ فتيل السراج، فأضاء نوراً خافتاً رأيتُ به دخاناً اكتسح مقصورتنا، وسمعتُ صيحات استغاثة، وتعقبت الأمر فإذا هو حريق هائل شب في المدينة وأيقظ من فيها عن بكرة أبيهم، وفي ظرف خمس ساعات كان قد زحف على نصف المدينة، وأضحى لفداحة كارثته يعرف بحريق تومبكتو...

....

ممالك على ضفتي نهر النيجر:

لقد جُبت الممالك الخمس عشرة المعروفة لدينا على طول ضفتي نهر النيجر، وروافده ولا أزعم أنني أحطت بكل بلاد السودان فهناك

مناطق أخرى كثيرة جداً مازالت غير معروفة بسبب طول السفر، وصعوبة، وتنوع اللهجات والمعتقدات...

غير أنّ ما أمكنني زيارته من الممالك كان كافياً لتزويدي بما ينبغي معرفته عن بلاد السودان، وعن الجهود التي يجب أن تبذل، تجديداً، واستمراراً لما قام به المجاهد يوسف بن تاشفين الذي حكمهم ومعه شعوب ليبيا الخمسة، فعلموهم الشريعة الإسلامية، والمبادئ الضرورية لسلوكهم في الحياة، وإنّ مما يجب الاعتراف به أننا قصرنا في بلاد المغرب كثيراً حيال هذه الشعوب، بل إنّ كثيراً من تجارنا لم يكن لهم من همٍّ إلاّ تحقيق الربح لأنفسهم، ولم يكن لمعظمهم البتة بذل قليل عناء لخدمة دينهم، ولا غرابة أن تجد عدداً من التجار البربر يطولُ انتظارهم قرابة عام في «بورنو» لقبض ثمن الخيول التي باعوها للملك، لأنه لم يكن في حوزته من العبيد ما يفي بالثمن!..

وقد شاهدت هذا الصنف من التجار يبيع الخيل بخمسة عشر أو عشرين عبداً!...

إنّ مشكلة الرّق تطغى على ما سواها من المشاكل في بلاد السودان ويكفي أنْ تشاهد في ساحة «كاعو» عدداً لا يحصى من الرقيق ذكوراً وإناثاً يباعون أيام السوق، حيث تساوي الفتاة بنت الخمس عشرة سنة نحو ستة مثاقيل، وكذلك الفتى...وأما الأطفال الصغار، والمسنون فلا يساوون إلاّ نصف هذا الثمن تقريباً!...

وقد يستغرب المرء حين يجد شعباً عاش حرًّا، وفجأةً يُسلب حريتهُ من قبل عبدٍ زنجي!...وهذا ما حدث لسكان مملكة «كاوكا» الذين غدوا عبيداً لأميرٍ زنجي، كان جده عبداً تمكن من قتل سيده ثم أخذ يحارب من

يخرج عليه، ويبيع عدداً كبيراً من العبيد ويستبدلهم بخيلٍ مجلوبة من مصر حتى صار رئيساً، يحظى بالعلاقة الطيبة مع سلطان مصر الذي لا يعرف عنه سوى ما يصله من الهدايا!...

إنَّ الجهل والبوهيمية والفقر، أساس العبودية، فما زال في بعض هذه الممالك من لا ديانة لهم ولا إيمان، وهم كالبهائم يشتركون في النساء والأولاد، وليس لهم أسماء خاصة كما لغيرهم، وإنما يدعى كل منهم حسب الأعراض والخاصيات، فإذا كان طويل القامة دُعيَ بالطويل، وإذا كان قصير القامة دُعيَ بالقصير، وإذا كان منحرف البصر دُعيَ بالأحول...وهكذا...ولا تقتصر ظواهر البدائية على القبائل والشعوب السودانية البسيطة، فإنَّ الممالك المتحضرة هي الأخرى مازالت تَجهل قيمة ما بين يديها من الثروات والخيرات، فقد رأيت الناس في مملكة غينيا يقدمون الذهب غير المسكوك، وكذلك قطع الحديد لشراء أشياء تافهة الثمن كاللبن والخبز والعسل، وتزن هذه القطع من الذهب رطلاً، أو نصف رطل أو ربعه!...

وتكاد مملكة مالي تكون هي الأكثر تحضراً، وذكاءً، واعتباراً من بين جميع السود، لأنهم كانوا من السابقين إلى اعتناق الإسلام، وحَكَمَهم عند إسلامهم أكبر أمراء ليبيا، وهو عم يوسف بن تاشفين، ودام الحكم في عَقِبِه إلى عهد أسكيا.

وقريب من تحضرها مملكة النوبة التي يسكن كبرى مدنها التي تدعى "دمقله" أناس كثيرون معظمهم أغنياء متحضرون بحكم صلاتهم التجاريه بالقاهرة وسائر مدن مصر

ويكثر فـي"دمقلـه" قطـاط الزبـاد،وخشـب سـانغو، والعـاج، والسـكر والحبوب...ويباع فيها ((السم الزعاف)) وفق شروط مشددة، ومن باعه سـرًا تعرض لحكم الإعدام..ومن بين شـروط بيعـه ألاّ يسـتعمل فـي بـلاد النوبـة وألاّ يباع إلاّ لأجنبي، ولا يباع إلاّ بضامن...

ومملكة النوبة التي يطمـع المرء أن تكـون قنطـرة التّحضـر إلاّ أنّ ملكها في حربٍ دائمة، تارةً ضد القرعان، الذين هم من جنسٍ شـبيه بجنـس البوهيميين، الذي يعيشون عيشة ضنكاً في الصحراء، ولا يفهم أحـد لغتهـم، وتارة ضد نوع آخر من قوم يعيشون أيضـا فـي الصحـراء لكـن فـي القسـم الشرقي مما وراء النيل.

....

مهام سلطانية في الأقاليم المغربية

((إذا تفرقت الغنم قادتها العنزة الجرباء))...قولٌ لعله يصدق في ما آل إليه حال الأقاليم المغربية من فرقة وخلاف، وتعدد في الزعامات، التي لا يعنيها من الأمر شيء سوى حب الرئاسة، وإنْ كانت على يد العدو البرتغالي كما حدث مع ((يحيى بن تعفقت))، أو خوفاً على تنازعها كما هو حال سلطان فاس والحركة السعدية!...

وإذْ ازداد قلق سلطان فاس، وأيًّا ما كان سببه وصحته، فقد كنت ممن أوكل إليهم مهام سلطانية إلى هذه الأقاليم لتثبيت الود، والتّعاون وهداية القلوب الزائغة، والوقوف صفاً واحداً في الدفاع عن الديار المغربية، وصد هجمات الأعداء.

....

الدعوة السعدية

زرت إقليم ((درعة))، وفيها التقيتُ الصديق الشريف أحمد الأعرج وهو يؤدي واجب الدعوة السعدية، وما أحوجهم إلى من يوحد بين قراهم، ويوقف الحرب الدائرة فيما بينهم، فقد بلغ بهم الأمر أن يحكمهم عدة رؤساء حتى إنّ قرية بني صبيح وهي أهم قراهم يحكمها رئيسان مختلفان يعيشان في نزاع وقتال دائمين!...

قال لي الشريف السّعدي:

- لا شك يسوؤنا اقتتالهم الدائم، لكننا إذا استطعنا أنْ نوحدهم فسيكونون قوة على العدو...فمن صفاتهم أنهم أشداء كرماء، ويجيدون الرماية بالأسلحة النارية، ولم أر قط أحسن منهم رماية، إذْ ربما يصيبون رأسَ الإبرة!...إننا نريد هذه المهارة لمواجهة البرتغاليين...

....

وانتقلت برفقة الشريف إلى إقليم جزولة الذي صادفت زيارتي له في شهر ربيع الثاني، وهو أحد الشهرين اللذين ينعقد فيهما سوق كبير مع بداية المولد النبوي الشريف، ويستمر مدة شهرين، وتمد إلى جواره موائد الطعام للغرباء حتى لو بلغ عددهم عشرة آلاف، دون أن يؤثر ذلك على أرباح السوق...

وقد أقمنا بينهم أربعة عشر يوماً، وجدت فيها القوم يعيشون منقسمين ومتحاربين، ولا سلطان لهم، كما لا يجدون أماناً إلا عند انعقاد هذا السُوق الذي ينشئون له جيشاً مؤقتاً يعاقب الجناة بحسب أهمية جرائمهم...ومن ذلك أن يقتل السارق على الفور برمح قصير، وتترك أشلاؤه للكلاب...كما لا تطول هدنتهم في ما تبقى من السنة لأكثر من ثلاثة أيام في الأسبوع، وفق ما كان شرعه لهم شيخ زاهد مشهور عندهم بالصلاح!...

ثم مررنا بالقرب من نهر سوس إلى مدينة ((تيْيوت)) القائمة في سهلٍ بديع، ومقسمة إلى ثلاثة أقسام، ولكل قسم رئيس، ويحكم هؤلاء الرؤساء الثلاثة مجتمعين، ولا يطول حكمهم أكثر من ثلاثة أشهر...

وفي المدينة قضاة، وفقهاء لا يُرجع إليهم إلاّ في الأمور الدينية....وفيها عدد كثير من الصناع اليهود لا يؤدون أية جزية، وإنما يقدمون بعض الهدايا الصغيرة إلى الأعيان!....

ومررنا بمدينة ((تيدسي))، فوجدتها مدينة كبيرة، آمنةً، مستقرةً يعيش أهلها في سلام....وهم مهذبون مستقيمون، ولهم نظام جمهوري ويحكمها ستة أشخاص يختارون بالقرعة، ويُعَوضون بآخرين كل ستة عشر شهراً...وفي المدينة جامع يشتمل على كل ما يحتاج إليه من أئمة ومستخدمين وقضاة، وفقهاء....

قال لي صاحبي الشّريف:

ما أظن والدي إلاّ متخذاً هذه المدينة عاصمة، وهي في القريب العاجل ستدخل في طاعته...

....

وانتقلنا من بعدها إلى مدينة ((تراودنت))، وهي مدينة عظيمة قديمة، اتخذها المرينيون مركزاً لإقامة نائب السلطان في إقليم السوس، وهي لذلك أكثر تحضراً من المدن المجاورة...وهي اليوم تخضع لحكم الأعيان ويتداول أربعة منهم السلطة لمدة لا تزيد عن ستة أشهر!...

....

وعند أقدام جبل أطلس على شاطئ بحر المحيط، تقوم مدينة ((ماسة)) وسط غابة من النخيل تمورها قليلة الجودة، وزرت جامعها الذي نسجت العامة من حوله حكايات من وحي الخيال...

وقد نسبوا إلى عدد من المؤرخين أنَّ المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلاً سيخرج من هذا المسجد! وأنَّ النبي يونس عليه السلام لما التقمه الحوت نُبِذَ بالعراء في ساحل ماسة!...

ولعل رواياتهم المتداولة مستنبطة مما يراه الناس في المدينة من الهياكل العظيمة الضخمة لسمك البلين.

وإنك لترى جميع العوارض التي تحمل سقف المسجد من عظام سمك (البلين)، وكثيراً ما يحدث عندما يهيج البحر أن يقذف المدينة بعدد من هذه السمكات العظيمة ميتةً...

ويحكي العامة أنه ما مرت سمكة من هذا النوع بالقرب من المسجد إلا ماتت بسبب البركة التي منحها الله لهذا المسجد!...

وقد أخبرني أحد العارفين أنه يوجد في البحر على بعد نحو ميلين بعض الصخور العظيمة الحادة، فإذا هاج البحر ذهبت هذه السمكات هنا وهناك، وما اصطدم منها بتلك الصخور جُرِحَ، ومات ...فظهر لي أنَّ هذا التأويل خير من تأويل العامة....

ولقد هالني مشهد عظمٍ من عظام السمك الضَّخم على شكل قوسٍ نُصِب عند مدخل بستان أحد الأعيان منذ ما يقرب من مائة سنة، وقد مررنا تحته، ونحن على الجمال، دون أن يمس رؤوسنا لشدة ارتفاعه....

ويوجد في هذه البلاد على شاطئ البحر ((عنبر)) من الدرجة الأولى يباع بأبخس الأثمان إلى التجار البرتغاليين والفاسيين.

....

وفي طريقنا بمحاذاة الساحل أخذ الشريف أحمد الأعرج يشرح لي كيف أنَّ أهل ((حاحا وسوس)) اتفقوا على استرجاع حصن ((أكدير كسيْمَة))

-الذي نحن قادمون إليه- من البرتغاليين، الذين استولوا عليه منذ عشرين سنة، فالتفّ لمساعدتهم عدد كثير من المحاربين الذين أتوا من النواحي النائية، وأنهم اتخذوا والده قائداً لهم، فأقام الحصار أمام الحصن أياماً عدة، مات خلالها عدد وافرٌ من المحاربين الغرباء عن البلد، فتخلى معظم من تبقى منهم عن القتال، ورجعوا إلى ديارهم، ولم يبق إلاّ البعض مع الشريف لحصار البرتغاليين.

وإذْ فاض المال بين يدي الشريف، وأضحى عنده أكثر من ثلاثة آلاف فارس، وعدد لايحصى من المشاة، وكميات هائلة من الذخيرة الحربية، فقد وجد نفسه أمام ضرورة تولي الحكم خاصة أنه أعلن الدعوة من قبل وبايعه القوم...

قلت لصديقي الشريف:

- وهذا ما انتدبني له سلطان فاس، في أن يكونوا يداً مجتمعةً، قوية على من سواهم...ألا يحزنك كثرة الرئاسات حتى أضحى لكل مدينة أكثر من رئيس، بل على مستوى القرية الواحدة فيها أكثر من رئيس؟!!...

علّق كعادته بخبث قائلاً:

- يحزنني تعدد الرئاسات...ويحزنني كذلك وَهْم الفاسيين بسلطانهم الذي لو كان سلطاناً بجدارة ما كانت هذه الزعامات البلهاء المتناثرة في المدن والقرى!.

دافعتُ عن السلطان، وتعرضتُ لسمات الجدارة المتوفرة فيه أكثر من غيره، وعن حاجتنا إلى التعاون، ونبذ أسباب الفرقة، والانصراف إلى العمل، مستذكراً ما دار بيني وبين الشريف من حوار سابق...

لكنه ردّ عليّ -ولعله تحت تأثير الإحساس بقوة والده- قائلاً:

- لا يكون التعاون حتماً إلاً مع من يمتلك أسباب القوة والقيادة...

أما سلطان فاس فإنه لا يحل ولا يربط، وإنما أهل فاس هم الذين صنعوا منه سلطاناً على أنفسهم ..هذا يعظمه..وذاك يخوف به الآخرين...وثالث يبرر تصرفاته البلهاء على أنها عين الحكمة، ورابع يفسر أخطاءه على أنها ضربٌ من الحزم الذي لا بد منه وخامس...وسادس...وكأنَّ الأمة وحكماءها وعلماءها ورجالها وُجِدُوا من أجل السلطان!...

لقد حكم شعب مصر سلطان مملوكي من داخل الحمَّام قرابة أربع عشرة سنة، وهو مختل العقل...لكن المنتفعين من غياب عقله زينوه للشعب، وعتّموا على وجوده في الحمام وسط المدلكين والمدلكات، وجعلوا ما يصدره من صيحات، وما يقوم به من تصرفات جنونية، حالات إلهام، وبلوغ مقام!....

ألا ترى أنَّ سلاطين اليوم لم يعد تعيينهم بناء على شورى عموم الناس وأهل الحل والعقد فيهم، ولا حتى بمقتضى حكمٍ وراثي حقيقي استنبط له المجتهدون أحكاماً أياً ما كانت درجة قوتها، لكن ما يحدث أنْ يجبر كل أمير قبل موته كبارَ رجالِ بلاطه، وأعظمَهم شأناً على مبايعة ابنه أو أخيه خليفة له، وفي كثير من الأحيان كانت مثل هذه البيعات لا يؤخذ بها، ويسعى الناس إلى تعيين من يروق لهم، ويكون في نظرهم أحق بالسلطنة...

ألا ترى أن السلاطين خرجوا عن قواعد الشريعة الاسلامية في تحصيل الإيرادات، واستخدموا أساليب الطغاة المستبدين في تحصيلها، واغتصابها لأنفسهم، وإنفاقها على شهواتهم حتى تدهورت أحوال الزُراع

إلى حدٍّ بعيد، بحيث لم يبق لهم غير القليل جداً مما يستطيعون توفيره لسدّ حاجاتهم المعيشية...

وترى السلاطين يقضون السنة كلها تقريباً في الحرب، إمّا حماية لسلطنتهم أو حفاظاً على سلطانهم، مستعينين بقواد مع فرسانهم على أعمال الحماية....

ونتج عن ذلك كله نفور العلماء وأشراف القوم من هؤلاء السلاطين المؤقتين أو الجلوس معهم على مائدة طعام أو حتى تقبل منحة أو هدية منهم...وأدى الأمر إلى تعدد وكثرة الرؤساء في مدن وقرى الأقاليم!...

- إنني أستثني مما قلتَ سلطان فاس، فهو سلطان ذو دخلٍ محدود للغاية، ولا تتناول يداه إلاّ خُمس هذا الدَّخل، بينما يخصص الباقي نفقات للبلاط، ورواتب للمستخدمين...

ثم إنه يبدي قلقه ومخاوفه على البلاد المغربية عامة، ويمد يد التعاون للأقاليم كافة...أفبعد هذا يُلام؟...ما أظن أننا بإزاء ازدياد هجمات الأعداء بحاجة إلى التلاوم والقسوة على بعضنا بعضاً، والاستغناء عن الجهود المشتركة...

وظللت أحضه على لَمِّ الشّمل، وأنْ يكون عوناً لي في أداء مهمتي التي تعني مصلحة الجميع، وإنقاذ الأمة...فالعدو واحد، وكما هزم الناصر الوطاسي أخو الملك في معركة بولعوان، هزم على يد العدو نفسه كذلك الشريف أحمد الأعرج في معركة دارَت في بادية ((أسفي)) حين تحالف (يحيى بن تعففت) ومن معه من الأعراب مع عامل ملك البرتغال المقيم بأسفي...

....

أخذ الشريف الأعرج يهيء لمعارك جديدة، فالحرب سجال...وكان عليه أنْ يعد العدة، ويسوي الخلافات بين الناس....

وقد ذهبت معه مرة إلى قرية ((إِدَاوْ إزْكّواغن)) لتوطيد الأمن بين السكان...

وعند مرورنا بمبتدأ جبل قبيلة ((إدَاوْ عَاقلْ)) وهو أول قسم من الأطلس عند المحيط قيل بحضوري للشريف السعدي:

((إنّ سكان هذا الجبل يقدمون عشرين ألف مقاتل))...

ومعظم السكان كالأعراب يرحلون من مكان إلى آخر، ولا يلبسون قميصاً، ولا ثوباً مخيطاً بالإبرة لا لشيء سوى أنه ليس عندهم من يحسن الخياطة، فيلتفون بقدر الإمكان في قماش، وهم على العموم شريرون غادرون، وليس في البلد قاضٍ ولا فقيه، ولا من يعرف العقيدة الدينية...

وانتقلنا بنفس المسافة تقريباً وعلى الساحل إلى مدينة ((تفتنة))، وهي ثغر، ومرسى على بحر المحيط، في غاية الجودة للسفن الصغيرة، اعتاد بعض التجار البرتغاليين أنْ يجيئوا إليه ليقايضوا سلعهم بالشمع، وجلود الماعز...

ويوجد في المدينة جمرك وضريبة الملح، ...وتقسم المداخيل بين الرجال القادرين على الدفاع عن المدينة...

وفي المدينة شيوخ، وفقهاء إلاّ أنهم غير مختصين في النظر في جرائم القتل والجروح التي لها أعرافها الخاصة...

وسكان ((تفتنة)) شديدو بياض البشرة، وفي غاية الألفة والمجاملة... وقد مكثنا فيها ثلاثة أيام كانت عندي بمثابة ثلاثة أعوام بسبب كثرة البراغيث التي لا يحصى لها عد، ورائحة أبوال الماعز وأبعارها فلكل

واحد من سكان المدينة عدد من الماعز ترعى نهاراً، وتؤوي ليلاً إلى داخل المنازل، فتنام عند أبواب الحجرات.

وقد ذكرتني شدتها بتلك الليلة الليلاء حين أدركنا المساء في قرية صغيرة في سهل تكتنفه جبال أطلس من إقليم حاحا، تكثر فيها الأسود....فنزلنا بمدشر صغير نصفه خرب، وأعطينا خيولنا كثيراً من الشعير، ثم عقلناها، وخبأناها خلف باب أُحكم غلقه بحاجز كبير من الشوك، ومرزح من الخشب...وصعدنا إلى السطح لننام في الهواء الطلق...

وفي منتصف الليل أقبل أسدان عظيمان جلبتهما رائحة الخيل، وحاولا إزالة الشوك، فأخذت الخيل تصهل، وتضطرب، بينما صرنا نرتعد خوفاً، ويبدو لنا كل شيء على وشك الانهيار، وظللنا على هذه الحال حتى يَئِس الأسدان مع خيوط الفجر!....

....

اتجهنا إلى جبل الحديد حيث تكثر الغابات، وعيون الماء، والعسل فكان سكون النفس، وزوال الهرش...استرعى انتباهنا كثرة النّساك في قمة الجبل، والطيبة المتناهية في قبيلة رجراجة التي تسكن الجبل....والسكان هنا فقراء، فضلاء، أتقياء، وجبليون جانحون للسلم، أمناء...وإذا فعل النساك أي شيء عَدُّوه من الكرامات!...

ويسبب لهم جيرانهم من الأعراب كثيراً من المتاعب، فيؤدون لهم خراجاً معلوماً يتقون به شرهم!....

وقد رأيتُ أنْ أدون ملاحظاتي، وأضعها أمام سلطان فاس والشريف السعدي لغزو الأعراب وتحرير هؤلاء الطيبين...

صلينا الجمعة مع سكان هذا الجبل...وأخذ الخطيب يقرأ علينا من كتاب ((خطب ابن نباتة)) بصعوبة بالغة فقد عميت عليه كلماتها، وتداخلت عليه أسطرها، فلم نفهم منه شيئاً سوى المعنى العام بالتهديد والوعيد، غير أنه لفت انتباهنا وهو يكرر قوله:

اتقوا الله في أنفسكم وأهلكم....ألاّ إنّ (الزّنَاعِمْ والرّبَاطِمْ)، وهما من المهلكات!...

وظل القوم يتساءلون ما هي الزّنَاعِمُ، والرّبَاطِمُ حتى يجتنبوها؟!...

قلتُ لصديقي السعدي:

- أتدري ماذا يعني به الخطيب؟

- بل أدري بما عناه ابن نباتة...أما الخطيب فقد أخطأ القراءة...

وإنّ ابن نباتة يريد أن يقول: إنّ الزّنَا عمٌّ، والرّبَا طمٌّ...

تبسمتُ بألم ، وقلت:

- سامح الله ابن نباتة!...أراد أن ييسر على الناس بخطب جاهزة فأخطأ البعض قراءتها...واستخدمها في غير مواضعها...وما كانت خطب الجمعة إملاءً وتلقيناً ...ولا غمغمة، وتهويماً...ولكن هذا هو واقع الناس، وحال الكثيرين ممن سمحوا لأنفسهم أنْ يعتلوا منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يستحضروا هيبة مقامه، وعظم رسالته ومسئولية الكلمة، وبعدوا كثيراً عن مخاطبة الناس بما يهمهم ، وراحوا يداهنون السلاطين، ويعنون بترصيع البيان...

قاطعني الصديق السعدي قائلاً:

- لا تحمل على سكان البادية وقرى جبل أطلس النائية، فإنّ أمراء على رأس الأمة حيث العلم والعمران مازالوا لا يميّزون في حديثهم بين ((لم))

و ((لن))، ولا بين ((أيها)) و ((أيتها))، ويخلطون بين معنى ((نكاية)) ، و ((كناية))، و ((منتجع)) و ((مستنقع)).....

ولستُ أدري أين يصنف مثل هؤلاء..إنهم في الدرك الأسفل من الجهالة ودون مستوى الأعراب، بل إني أجزم أنّ الأعراب يظلون أرفع منهم مقاماً وحجةً في اللغة، ويكفي أن الأصمعي وأمثاله يعودون إليهم إذا التبس معنى، أو أشكل لفظ!...واستمر في حديثه قائلاً:

- وويل لقوم مكنوهم من ريادتهم...وما أظن علماً يزدهر في كنفهم، ولا أمناً حقيقياً يستتب في ظلهم.

قلت لصديقي الشريف:

- أما أنا فلا أستغرب وجود مثل هذا الصنف، وأتعس ما فيه أنه لا يدري، ولا يدري بأنه لا يدري...وقد حكموا على أنفسهم وعلى عصرهم بالوقوع في أسوأ العواقب...

....

ليس سهلا على النفس أن تكلف بمهمة إلى عدو، ولكني وأنا أتجه إلى بادية ((أسفي)) لملاقاة رئيسها (يحيى بن تعففت) أحمل إليه رسالة السلطان كنت أُصبّرُ النفْس، وأقنع الصديق الشريف بصحبتي في هذه المهمة، بقول المتنبي:

ومن نكد الدنيا على الحر أنْ يرى عدوا له ما من صداقته بُدُّ.

قلت لصديقي أبي العباس الأعرج:

- أما مدينة (أسفي) فقد سبق أن ذهبت إليها حين كنتُ غلاماً في الثانية عشرة من عمري بصحبة والدي، ولكني اليوم أزورها عنوةً إلى من تعافُ النفسُ رؤيتَه، لسوء ما صنع بالمدينة والإقليم....فقد كانت أسَفي

-كما تعلم- خاضعةً لأميرها الشجاع عبد الرحمن بن فرحون، وكان لـه بنتٌ بارعة الجمال، عشقتْ رجلاً من العامة، كان رئيساً لعصابـةٍ كثيرة العدد، يُدعى (علي بن وشيمن)، وقد تمكّن هذا الرجل من معاشرة البنـت أكثر من مرة، بتواطؤ أُمِّها مع إحدى الإماء، وأعلمت الأَمَةُ سيدها عبد الرحمن، فغضب على زوجتـه، وهددها بـالقتل، لكنـه تظـاهر بعد ذلـك بعدم اهتمامـه بـالأمر، ولمـا كـانت المـرأة تعـرف بطـش زوجهـا، فإنهـا أشعرت عشيق بنتها بأنْ يأخذ حذره، وبـدوره أفضـى بِسـرّه إلـى شـاب شجاع يُدْعى (يحيى بن تعففت) وهو رئيس كذلـك لجماعـة مـن المقـاتلين الراحلين كـان يثـق بـه ثقـة تامـة....ولـم ينتظـر الرجــلان المتفقـان إلاّ الفرصة المواتية.

وفي يوم عيد الأضحى بعث الأمير إلى ((علي)) يخبره بأنـه يرغـب في أنْ يقوم معه بعد الانتهاء من مراسيم الاحتفال الديني بنزهة على الخيـل قصد التسلية، وعيَّن له مكاناً ينتظره فيه، ونيته أن يفتك به هناك، لكن عليّـًا قدَّر كل شــيء واستدعى صاحبـه، وأخبره بـأنّ الوقت قد حـان لتنفيذ مـا دبَّراه...

أخذا معهما عشرين من أصحابهما، وتسلحوا بعناية، وهيـأوا سفينة شراعية زعموا أنها سترسل إلى أزمور، وهي في الواقع معدة ليتمكنوا مـن الفرار فيهـا عنـد الاقتضـاء...وتوجهـوا إلـى المسجد، وولـوا بعـد أنْ دخـل الأمير إليه بقليل، وأحرم بالصلاة، وكان المســجد غاصـاً بالنـاس، واقـتربوا من الأمير، وتقدم أحـد المتـآمرين أمامـه، وبقـي الآخـر، وهـو عَلـيّ خلفـه، وطعنه في ظهره بخنجر، في حين أغمـد الأول سيفه فـي جسمه، وحدثـت ضجَّة عظيمـة، وانقض الحـراس علـى المقـاتلين، لكنهـم عندمـا رأوا فجـأة

الرجال العشرين شاهرين سيوفهم ظنوا أن هناك اتفاقاً بين السكان، وانقلبوا هاربين.

ولقد سمعتُ يومها علياً يقول بلسانه إنهما حينما دخلا المسجد لم يكن الأمير قد دخله بعد، ولذلك مكثا في داخله فترة من الزمن في انتظاره، وإنهما لم يخرجا إلى الساحة إلاَّ بعد أن مات، فخطبا في الناس، وأقنعاهم بأنهما إنْ قتلا الأمير، فإنهما على حق، لأنه كان يريد قتلهما...وسكنت روعة الناس بسهولة، ورضوا بأن تكون الإمارة في هذين الرجلين، لكنهما لم يبقيا على وفاق مدة طويلة، بل وقع بينهما الخلاف واشتد...

وفي هذه الأثناء حدث أنّ بعض التجار البرتغاليين -واسمَعْني جيداً- نصحوا ملك البرتغال أن يأمر بتجهيز أسطول يمكنه أن يستولي بسهولة على المدينة، فلم يقبل أن يقدم على هذه العملية إلاّ عندما عرفه هؤلاء التجار المتوافرون آنذاك بأسفي، وأنّ سكانها منقسمون طوائف، وأنّ البرتغاليين تمكنوا بسبب تقديم بعض الهدايا إلى أحد رؤساء هذه الطوائف من أن يربطوا معه أمتن الصلات، ويتفقوا على شبه عقد بأنَّ أخذ المدينة ممكنٌ دون أية صعوبة ولا نفقات كثيرة!...

وقد كانوا -يا أبا العباس- أقنعوا هذا الرئيس بأن يتركهم يبنون داراً حصينة على شاطئ البحر، تكون فيها بضائعهم في أمان، متعللين بأنهم عندما مات الحاكم نُهِبوا تقريباً، وأخذ منهم قِسطٌ مهم من مالهم، وقد بنوا داراً حصينة جداً نقلوا إليها سرًّا أنواعاً من البندقيات داخل براميل الزيت، وحزمات البضائع، وماداموا يؤدون الإتاوات المفروضة فإنَّ سكان المدينة لم يكونوا يطالبونهم بأكثر من ذلك.

ولما تزود البرتغاليون بما يكفي من أسلحة الهجـوم والدفـاع، بـدأوا يبحثون عن مختلف المناسبات لخلق الاضطـراب والخصـام مـع المغاربـة، ودبـرت مكيـدة، أثـار فيهـا غـلامُ أحـدِ التجـار البرتغـاليين جـزّاراً فغضــب، ولطمه...وأسرع الغلام وأغمـد خنجـره فـي صـدر الجـزار، وأرداه قتيـلاً ، ولجـأ إلـى الـدار البرتغاليـة، فهـاج السـكان، ونفـروا إلـى الـدار البرتغاليـــة، وحاصروها، لكن البرتغاليين أخذوا يطلقون عيارات بنـادقهم المختلفـة، ولا حاجة إلى التساؤل ...هل فرّ السكان مذعورين؟! فقـد قُتِـل منهـم أكـثر مـن مائة رجل في هذا الهجوم المفاجئ، غير أن ذلك لـم يمنعهـم مـن محـاصرة الدار أياماً عديدة...

عندئذ ظهر بغتة أسطول قادم من لشبونة، كان الملك جهزه بجميـع أنواع الأسلحة، وقطع المدفعية الثقيلة، علاوة على كميات وافرة من المؤن، وكان على ظهر هذا الأسطول خمسة آلاف من الجنود المشاة، ومائتان مـن الفرسان...لذلك فقد تملك السكان الرعبُ، وتركوا المدينة ملتجئين إلى جبال بني ماجر، ولم يبق فيها غير اسرة الرئيس!! الـذي وافـق علـى بنـاء الـدار البرتغالية، واستولى قائد الأسـطول علـى مدينـة أسـفي، وأمـر بـأنْ يحضـر أمامه الرئيس (يحيى بن تعففت) فبعث به إلى الملك البرتغالي الذي جعل لـه إيراداً حسناً، وأعطاه عشرين خادماً..وبعد ذلك أعاده ليحكـم الباديـة التابعـة لأسفي، لأنّ القائد البرتغالي لا يعرف عادات هذا الشعب، ولا الطريقة التي ينبغي أن يُساس بها...وبقيت آسفي منذ ذلك العهد خالية، وخربت البلاد...

وبعد لحظة صمت قلت:

- أظن أنّ الإفاضة في الحديث له ما يبرره ..فنحن قادمون على نفس الحاكم بعد مرور أربعة عشر عاماً من تلك الأحداث التي لا بد من الوقوف عليها...

ردّ عليّ الشريف أبو العباس السعدي قائلاً:

- خلاصة الحديث أنّ سبب هذا الخراب صراع الأحزاب وحب الرّئاسة وعبث امرأة ...وإني ماضٍ معك لملاقاة ابن تعففت، وأملنا أنْ يعي الحق، فإنْ أبى، فالسّيفُ أمضى على رقاب الخونة...

....

ونحنُ على مشارف مدينة آسفي...أراد صديقي أبوالعباس، أنْ يتثبت من صحة مالديه من رواية حول تسمية المدينة...فطلب أن أحكي ما لدي ....

قلت له:

- حسب معرفتي هناك رواية ذهبت إلى القول أنّ فتيةً عرباً ثمانية كلهم أبناء عم من أهل لشبونة في القرن الرابع الهجري عرفُوا بالفتية المغررين، أو المغرّبيْن، لأنهم عزموا على اكتشاف ما وراء بحر الظلمات فابتنوا مركباً وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ثم دخلوا البحر في أول طاروس الريح الشرقية، فَجَرَوْا بها نحواً أحد عشر يوماً، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج، كدر الروائح، كثير التروش، قليل الوضوء، فأيقنوا بالتلف، فردُّوا قلعهم في اليد الأخرى، وجروا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوماً، فخرجوا إلى جزيرة الغنم، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد، ولا تحصيل، وهي سارحة لا ناظر لها، ولا راعي، فقصدوا الجزيرة، ونزلوها، فوجدوا عين ماء جارية، عليها

شجرة تين بري، وقد ألقي القبض عليهم، واقتيدوا إلى مدينة على ضفة البحر فأنزلوا بها في دار، فرأوا بها رجالاً شقرا زعراً، شعورهم سبطة، وهم طوال القدود، لِنِسائهم جمالٌ عجيب، وظلوا معتقلين ثلاثة أيام ثم أحضرهم الترجمان بين يدي ملك تلك البلاد، فلما أخبروه بهدفهم، ضحك، وقال: إنَّ أبي أمر قوماً من عبيده يركبون هذا البحر، وأنهم جروا في عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء، وانصرفوا من غير فائدة تجدي.

أما الفتية المغررون فقد وعدهم الملك خيراً، وعمَّر بهم زورقاً، وعُصبِّت أعينهم، وجرى بهم في البحر قدروها بثلاثة أيام بلياليها حتى وصلوا بهم إلى البر مكتَّفين إلى خلف، وتركوا بالساحل إلى أنْ تضاحى النهار، وطلعت الشمس، حتى سمعوا ضوضاء الناس فصاحوا بجملتهم، فأقبل الناس، وحلّوا وثاقهم، وأخبروهم بما كان من أمرهم، ثم قالوا لهم أتدرون كم تبعد بلادكم لشبونة من هنا؟

أجابوا أنهم لا يعرفون من ذلك شيئاً.

فردوا عليهم:

إنكم تبعدون مسيرة شهرين...

وهنا صاح زعيم الفتية المغررين متأوهاً:

- وا أسفي ....

فسُمِّي المكان إلى اليوم آسفي...

استقبل الرواية بارتياح...وَ أضاف قائلاً:

- ولديَّ رواية أخرى...أيسرك أن تستمع إليَّ؟

قلت له:

- بكل السرور، وفوق كل ذي علم عليم...تحدث يا أخي...

قال :

- أما روايتي، فتنسب التسمية إلى أنَّ القائد العربي المسلم عقبة بن نافع، كان وصل إلى طرف المحيط من هذا المكان، وخاضَ بفرسه الماء ميمماً شطر الغرب وصاح بأعلا صوته:

((والله لو كنت أعلم أنَّ خلف هذا البحر أرضاً لخضتُه..ولكن وا آسفي!))...ومن حينها أطلق على هذا المكان ((أسفي))!....وقامت عليه المدينة التي خرَّبَها الورثة السُّفهاء...فوا آسفي على حال أسفي!....

....

لقد أضحت مدينة منكوبة، وجمهور سكانها تنقصهم التربية...وكان علينا أن نمر بها مرور الكرام، في اتجاه البادية، حيث يقيم الحاكم (يحيى بن تعففت) بالقرب من مراكش مع جيش من البرتغاليين قوامه خمسمائة فارس، ومعهم من فرسان الأعراب أكثر من ألفين!...

وعلى صعوبة ما طُوِّق به من جيش الأعداء المحتلين، والأعراب المرتزقة فقد كان العزم على ملاقاته أملاً في اختراق قلبه الذي إنْ تمَّ فسينتهي من بعده مثل هذا الحشد الباغي...

لم أكن في حديثي واعظاً ولا مقرعاً، وإنما آثرتُ معه منطق المصلحة التي قادته إلى الارتهان، فقد يُحرره ذلك منه، فهو يبغي الحماية من عدو ضد أهله، ونحن نتكفل بحمايته دون الحاجة إلى العدو...وهو في حكمه الحالي يجبي الضرائب ويرسلها إلى ملك البرتغال، ونحن لن نطلب منه شيئاً من الضرائب، لتكون خالصة له ومن معه وأهل مدينته وإقليمه....ثم إنَّ الأمور لن تستقيم له على يد عدو يرى فيه وأمثاله قنطرة

عبور إلى البلاد التي كانت في ماضي العز مصدر قوة للبلاد الأندلسية!....

لم أجد للكلمات وقعها لديه...ولكنه وعى الرسالة، وأدرك أهميتها لما علم أنها رسالة السلطان الوطاسي والشريف السَّعدي في آن معاً....

....

وفي طريقنا إلى مراكش من ناحية دكالة، وأطراف إقليم حاحا، مررنا بمدينة ((أديكيس))، ولي فيها ذكريات، فقد أقمتُ ذات مرة في بيت فقيه هذه المدينة، وكان فظًّا غليظاً، إلاَّ أنه معجب بالبلاغة العربية، ومن أجل ذلك حبسني عنده أشهراً رغم تمنعي، وزعم أنه لا يليق بي أنْ أذهب دون أن يشيعني بنفسه، لما كنتُ أظهره من وُدٍّ للعرب، لأنه هو وأهله من العرب...

وهكذا استبقاني عنده بهذه التَّعلَّة إلى أنْ فرغتُ من مؤلف صغير في البلاغة قرأتُه له...

ومن ثم رجعتُ إلى مراكش، فلم تلبث المدينة إلاَّ قليلاً حتى دُمرت في الحرب ضد البرتغاليين...

وفي هذه المرة أمضيت مع الفقيه بمعيّة الشريف السعدي أياماً من القراءة والمناقشة والحوار، كانت بدايتها سؤالي عن الوجبة التي قدمت إلينا حيث أجاب الفقيه قائلاً:

- إنها العصيدة...تذوقها بلسانك...فما خُلِقَ اللسان للكلام فحسب، بل وللتذوق...والتذوق أحد أدوات المعرفة!....

وخضنا في الحديث عن المعرفة، وبخاصّة المعرفة في عصر الترهات قال صاحبي الشريف السعدي:

- كل شيء في عصر الترهات يغدو صورة مزيفة للحقيقة، بما في ذلك الفقه الذي يشرع فيه الفقهاء للترهات! حتى أنّ بعضهم ذهب للانشغال بفقه الفرضيات المستحيلة كقولهم: هَبْ أنَّ برغوثاً كبُر، وكبُر، حتى غدا بحجم عجل، ثم ذُبِحَ ، وسُلِخَ جلده، ودُبِغ...أتجوز عليه الصلاة؟

وآخرون من جهلة المتصوفين راحوا يدللون على خوارق أهل الخطوة والحظوة والواصلين، بقولهم: إنَّ أعمَىً في الأندلس يبصر برغوثاً في الصين!...

عدتُ أتساءل أمام صاحبيَّ:

- وما الذي أوصلنا إلى عصر الترهات؟

رد الفقيه قائلاً:

- حب الدنيا، وكراهية الموت: أوصلنا إلى عصر الترهات..

- وكيف؟

- الحكام لا يطيقون سماع الحق، ويعتقدون أنَّ من يذكرهم به إنما ينازعهم السلطان، فيبطشون به...وأخف أنواع البطش ((دس السُّم في العسل)) ألم تسمعوا بقول الأولين: إنَّ لله جنوداً من عسل؟!

أما العلماء فقد جعلهم حب الدنيا يشتغلون بما لا يثير حفيظة الحكام حتى سقطوا في الترهات، وباتوا لا يملكون إخماد فتنة ولا إيقاف حرب....

وهذا الإقليم كما ترون في حروبٍ لا تنقطع، وهي حروبٌ أهلية لا تمس الأجانب...وإذا أراد أحد الأهالي أنْ ينتقل من مكانٍ إلى آخر، فعليه أن يصحبَ معه بعض علماء الدين أو النّساء من فريق خصومه!...أنظروا أين أضحى علماء الدّين؟! ويكاد دورهم لا يتجاوز ما ذكرت!...

....

مسكينة أنت أيتها الأقاليم المغربية....
وجود الحكام والأمراء فيك ظلم وطغيان....
وغيابهم عنك فوضى، وفقد عدالة.....

....

مسكينة أنت أيتها الأقاليم المغربية
منذ أكثر من أربعين عقداً، وأنت على هذه الحال
لا تسمعين إلا دعاءَ عاجزٍ، وادّعاء كاذب....

....

حتى مدنك العريقة غدت خرائب تؤوي جرذان المقابر
وهذه مدينة ((مراكش العظمى)) التي شاخت قبل الأوان، لم يعد مسكونٌ منها سوى الثلث، وسكانها لا يستطيعون أن يملكوا شبراً واحداً من الأرض الصالحة للفلاحة خارج الأسوار لكثرة تعسف الأعراب....

تجولنا داخل المدينة، ووجدناها فقدت شهرتها القديمة التي اكتسبتها منذ أسسها الأمير يوسف بن تاشفين عام ٤٥٤ للهجرة، عاصمة لدولة المرابطين، وظلت كذلك لدولة الموحدين، لتصبح اليوم أثراً بعد عين في معظم معالمها، حتى أن مدرسة القصبة ، لم نجد فيها سوى خمسة طلاب مع أستاذٍ، جهلهُ بالفقه فاحش، وليس له سوى معرفة سطحية، غامضة بالآداب، وأقل من ذلك بعلوم أخرى.....

كما يوجد قرب القصبة جامع يعد من أبهى معابد العالم، لكنه اليوم مهجور، لأنَّ سكان مراكش تعودوا ألا يقيموا فيه غير صلاة الجمعة، ولأنَّ المدينة قليلة السُكان جدًّا لاسيما في الحي المجاور لهذا الجامع، وحتى الوصول إليه يتعذر كثيراً، بسبب أنقاض الخرائب المتراكمة في الطريق،

وكان تحت رواقه قديماً نحو مائة دكـان للكتبيين، لـم يبـق منهـا اليـوم ولـو دكان واحد!....

وعلى الرغم من قلة آثار الماضي الباقية في هذه المدينة، فإنها تدل على الفخامة والعظمة السائدتين في عصر المنصور، إذْ لم يبق مسكوناً في أيامنا هذه سوى قصر الأسرة الملكية، وقصر حرس الرمـاة الـذي يقيـم فيـه الحجاب، والمكلفون ببغال الأمير الحالي....أما سائر القصور فيعشش فيهـا الحمام والبوم والغربان، وما شابهها...وكذا البستان الذي كان مـن قبـل فـي غاية البهجة أصبح اليوم مزبلة للمدينة ...والقصر الـذي كـانت فيـه خزانـة الكتب، استعمل اليوم جناح منه للدجاج، وآخر للحمام، وأصبحت الخزانـات التي كانت توضع فيها الكتب أقفاصاً لهذه الطيور.

قلت لصاحبي:

- لا أكاد أصدق ما أرى، وليست هذه أول زيارة لي إلى هذه المدينة، لكني أستصعب هذا الواقع المحزن بعد مـا كـانت هـذه المدينـة عاصمـةً لِمُلْكٍ عظيمٍ –يحكمه المنصـور الموحـدي منْهـا– يشـمل المنطقـة الممتـدة مـن ماسة إلى طرابلس الغرب...ولم يكن قطع مملكتـه فـي أقـل مـن تسـعين يوماً طولاً، وخمسة عشر يوماً عرضاً...وكان يملـك أيضـا فـي أوروبـا كل إقليم الأندلس المعروف بغرناطـة والممتـد مـن جزيـرة طريـف إلـى إقليم ((أركون)) شاملاً قسماً من قشتالة والبرتغال....

وها قد مضى على تأسيس هذه المدينة قرابة خمسمائة سنة، ولسـتُ أدري ما إذا كان سيضاف على إهمالها وهجرها خمسـمائة سـنة أخرى، أم أنّ الله سيقيّضُ لها ملكاً صالحاً مصلحاً يعيدها إلى سابق مجدها؟!...

قال صاحبي:

- ما أظن أن يعود إليها عمرانها، ويتجدد مجدها إلاَّ بوحدة المغرب...

فالوحدة أساس العمران والقوة...وإني عاقد العزم على أنْ تُدار من هذه المدينة إمارة السعديين ...ولن نتأخَّر عن ذلك بمشيئة الله سوى بضع سنين تهيء لقيام الدولة السعدية....عنوان الوحدة، واتحاد البربر والعرب على رفع عار الحصار، وتلافي الخطر المحيق، وتحصين البلاد من هجمات البرتغاليين، وغيرهم، وعودة الحياة إلى المدن المغربية كافة.

....

لم يبق من خطة حركتنا سوى زيارة مدينة ((أغمات)) التي تدعى مراكش الثانية، وفيها قبر المعتمد بن عباد، ونهر جميل، وبساتين بديعة، وحقول كروم ممتدة...ونكون عندها في أقرب منطقة مجاورة لإقليم جزولة.

وفي أغمات...أقمنا في حصن تحت المدينة في منزل ناسك، كان أخوه من أقرب أصدقائي، لأنه كان طالباً مقيماً بمدرسة مجاورة لمنزلي بفاس، وكنا نحضر معاً مجلساً في ((العقائد النَّسفية))..

أما الحصن فيسكنه هذا الناسك مع مائة من مريديه، وجميعهم لهم خيول في غاية البهاء، وقد عملوا على أن يُعترف بهم كحاكمين، لكنهم لم يجدوا من يحكمونه!...

استغرب صاحبي أبو العباس طموح الناسك ومُريديه قائلاً:

- كيف يجتمع في الناسك تبتلٌ ، وانقطاعٌ للعبادة، وعزوفٌ عن الدنيا...وسعيٌ قويٌّ إلى سدة الحكم؟

قلت له:

- لا تستغرب ذلك، فقد جاور الناسك ومريدوه قوماً فيهم حمقٌ وغفلة، وسذاجة، وتقوم في مدينتهم أغمات مئذنةٌ لا نظير لها في بلاد المغرب، وكان أنْ أبدى أحد الملوك إعجابه بها، فأستأذنوه بنقلها إلى بلده على سبيل الهديّة!....

وأياً ما كانت صحة الرواية، فإنَّ هذه المدينة لم تعد سوى مأوى للذئاب والثعالب والغربان، وما شاكلها من الطيور والوحوش...وسوى ما ترى شاهداً على قبر المعتمد بن عباد....

وعند قبر المعتمد بن عباد قال أبو العباس متسائلاً:

- ألستَ معي بعد الذي رأيت في تجوالك في أقاليم المغرب أن صاحب هذا القبر أعطى ضعاف النفوس القدوة في التمرد والفرقة والشتات؟!...

- لا وجه للمقارنة، ولا مجال للتشبيه بينه وبين من تهافتوا وتقاتلوا على مواقع القيادة المتشرذمة...فقد كان -كما تعرف- ملكاً على جميع أشبيلية بكل ما اتصل بها من مدنٍ وقرى وحصون تدين له جميعها بالولاء والطاعة....

وإنما كان العيب في صراعه مع الممالك الأخرى...أما حالنا في المغرب فمختلف جداً، فقد غدت مملكة الوطاسيين فسيفساء متناثرة، متنافرة، ليس على مستوى الأقاليم فحسب، بل على مستوى المدن والقرى في كل إقليم، والتي يعيش معظمها حالة من الفوضى، بدون سلطان، والقليل القليل يدفع الضرائب للعاصمة ((فاس)) وليس غير الضرائب ما يشير إلى ارتباطه بها.

والتفتُّ مخاطباً صاحبي:

إنَّ وحدة المغرب وقوته كانت مصدر النجدة والإغاثة للبلاد الأندلسية، وصاحب هذا القبر يذكر بذلك، أو هكذا يوحي لي وجوده هنا...

- إذن على وحدة المغرب نلتقي، ومن أجلها نجاهد، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون...وما أظنك تغفل الكيفية التي تحققت بها الوحدة....
- حاضرة قوية، غير منخورة بسوس الفتن والفساد، شكلت النواة لبناء مجتمع حر يقوم نظامه على التكافل والتعاون، والعدل بين الناس....
- بمعنى آخر فقد تكون هذه الحاضرة القوية هي ((فاس)) وقد تكون ((مراكش))...ودون هذه وتلك إرادة في التغيير ((إنَّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)).
- ولكنه خيار صعب...
- تقصد التخيير بين مدينة ((فاس)) حاضرة المفارقات المحزنة ومرتع المشعوذين والمستغلين والعابثين، وبين مدينة ((مراكش)) التي غدت في خير كان؟
- فعلاً ...فإنَّ ما في مدينة فاس من النقائض ما يستغرقُ إصلاحه زمناً وجهداً كبيرين، ولعلك تبينت بنفسك تردي الحياة الاجتماعية فيها، وسيرها من سيء إلى أسوأ..

المشعوذون يغشون الساحات العامة، ويجوبون المدينة، يُرقّصون القردة، ويحملون الأفاعي في أيديهم وحول أعناقهم، ويقومون برسم أشكال من خط الرمل، ويخبرون النساء بما سيكون في المستقبل!..

وصنف من الكيميائيين ينشطُون في الحصول على إكسير تزييف العملة!...

ومازال في فنادق المدينة رهط يقال لهم ((الهيوى)) وهم رجال يرتدون ثياب النساء، ويتحلون بحليهن...يحلقون لحاهم، ويقلدون النساء حتى في طريقة كلامهن...ولكل واحد من هؤلاء الأنذال صاحب يتسراه..ولهم في الفنادق زوجات مومسات، ولهم كذلك ترخيص بشراء الخمر وبيعه دون أن يزعجهم موظفوا حاشية السلطان...

ويختلف إلى هذه الفنادق أولئك الذين يعيشون أشنع عيشة، فيغشاها بعضهم للسكر، وبعض لإتيان شهوتهم مع باغيات مرتزقات، وبعضهم الآخر يكون بمنجاة من الحاشية إذا ما أتى بتصرفات غير شرعية، ووضيعة!...

ووسط هذه المباءة القذرة وانتهاك الأخلاق لا يمكن لأي مسلم أنْ يمارس مهنة صياغة الذهب بحجة أنه يؤدي إلى الرِّبا حين تباع المصوغات الذهبية والفضية بثمنٍ أعلى مما يساويه وزنها!...

وبهذه الحجة وكلت صياغة الذهب والفضة إلى اليهود الذين حلوا في جزء من المدينة كان مقاماً قديماً لحرس الرُّماة...

تذكرتُ -أمام صاحبي- تلك العلاقات الجائرة بمشاهدها المأساوية عندما كنت أعمل كاتباً في بيمارستان المدينة حيث أدْخل عَنوةً إلى القسم الخاص بالمجانين، رجلٌ بكامل عقله ووعيه، ولم يأبَهْ لاستنجاده واستغاثته أحد...

وحاولتُ أن أعرف الحقيقة، فوجدتُ أن الرجل صاحب حق تعجز الحاشية عن سداده، فدبرت له مكيدة أنه مجنون ليعيش وسط حمقى ومجانين يتغوطون غالباً في الحجرات التي قُيِّدوا فيها، ويتعرض معهم

لضربات قاسية من عصا غليظة يحملها المكلف بحراستهم كلما رأى من بعضهم هياجاً...

أشفق صاحبي من تزاحم الشواهد المحزنة وقاطعني قائلاً:

– كفى بما ذكرت دليلاً على مدى الحاجة إلى تحرير الناس من المظالم والترهات وحمايتهم من المفاسد، فالوحدة لا تكون إلاَّ في مجتمع نسيجُهُ العدل والحرية والمساواة.....

....

وعدتُ إلى مدينة ((فاس)).... وفي الرّاس أكثر مما دونته في الكراس... عن أحوال الأقاليم المغربية.... عن اين تعففت..... عن السعديين الأشراف، عن وقائع الكر والفر وأعمال المقاومة وصد هجمات البرتغاليين.... عن الأعراب وغاراتهم على أهل المدن....عن كثرة المظالم....عن غياب الدولة، وتعدد الرئاسات....

وكان لابد لي من ترتيب ذلك كله قبيل مقابلة السلطان، لكني وصلت إلى دارنا على مشكلة في بيت الجيران، علا فيها الصراخ، وعكّر علينا صفو الليل...وقد علمت من والدتي أنّ جارنا أصابه مسٌّ من الشيطان فجعل يضرب زوجته المسكونة ضرباً مبرحاً حتى تسقط العصا من يده، ويخفت صوت الجني الذي سكن جسمها!...

وقد حاول والدي التدخل للإصلاح فلم يجد منفذاً للعقل في وسط استحكمت فيه الخرافات والشعوذات والترهات... وأخذ يحدّثني عن هذا الوسط الموبوء قائلاً:

– لا تستغرب يا بني أن يشغل الناس بما يلهيهم عن رسالتهم، فهذه رسالة حكام عصر الترهات!.. أما مشكلة الجيران فهي واحدة من مشاكل

كثيرة من صنع العرافات الخبيثات اللاتي يزعمن عند العامة أنهن يرتبطن بصداقة مع الشياطين الذين يحلون في أجسامهن، ويغيرن حينئذ أصواتهن ليوهمن أنّ المتكلم هو الشيطان، فيطلب المتضرعون من الرجال والنساء ما يريدون أنْ يعرفه الشيطان، ويتركون له الهدية...

وحقيقة الأمر أنَّ هذا الصنف من العرافات، يعرفن بين الذين يتمتعون بالاستقامة والعلم وبين ذوي الخبرة، بالانحراف والشذوذ...وقد يوقعن في لعبتهن من ينشرحن لهن، فيتظاهرن بالمرض، ويستدعين العرافات، ويصنعن وليمة فخمة، تقصم ظهر الزوج الأبله الذي يترك زوجته تذهب إلى المغامرة... لكن هناك من الأزواج -وأحسب جارنا منهم- يخرجون الأرواح من أجسام نسائهم بضربات عصيٍّ قوية متظاهرين بأنهمْ قد أصابهم مسٌّ من الشيطان، فيخدعون العرافات مثلما خدعن نساءهم!...

- الخادع والمخدوع كلاهما منكوب في النهاية بواقع موبوء بالسحرة والعرافين والمشعوذين وآسري الحيات، وأصحاب أسرار الحروف، ومنتحلي الصوفية، وغيرها من الشعوذات والخرافات التي لا تنمو وتتكاثر إلاّ في مستنقعات الهزائم والنكبات!..

- ولكن هذا الواقع من صنع ناسه... أليس في الحاضرة سلطان وعلماء ومصلحون؟

- بلى يا والدي... ولكن هناك خللاً في العلاقة بين السلطان وبين العلماء والمصلحين أحسبه في وجود الجفوة بين القلم والسيف.... ولا يستقيم الأمر إلاّ حين يغدو القلم شريك السيف... والسلطان الذي يعلو سيفه على الكلمة لا يمكن أن يكون إلاّ سلطاناً جائراً بسيف الباطل...

ومشكلتنا اليوم في ضعف السلطان، وبطش الحاشية، وجور الحكام، وجبن العلماء وعجز المصلحين، وجهل العامة...

- إنك تذكرني يا بني بقصة (المنذر بن سعيد) قاضي قرطبة، مع الخليفة عبد الرحمن النّاصر، والتي يتجلى فيها اقتران الكلمة بالسيف...

فقد اشتهت زوجة الخليفة عبد الرحمن الناصر لو بنى لها الخليفة مدينة يسميها باسمها، تكون خالصة لها، فاختار الخليفة موقع المدينة على جبل في الجانب الغربي من أطراف قرطبة على مسافة ستة عشر ميلاً، وسماها مدينة الزهراء وقد أفاض في وصفها المؤرخون والشعراء، وتحدثوا عن مدى سرف ما أنفق في بنائها، وروعة زخرفها، وإبداع فنّها، وتميزها على سائر المعمورة....

وكان قاضي قرطبة المنذر بن سعيد يرى أنّ زهرة الزهراء، صائرة إلى ذبول، فمن الإسراف أن يستغرق الرجل العظيم أوقاته في إيجاد ما ستذهب به يد الفناء!..

وبعد أن انتهى الخليفة من بناء الزهراء، انهمك في استكمال زخرفها، حتى تعطل مرة عن إدراك صلاة الجمعة في مسجد قرطبة، فلما احتفل بافتتاح الزهراء، قام المنذر بن سعيد خطيباً في المسجد، والخليفة حاضر، فابتدأ خطابه بقول الله تعالى:

﴿أتبنون بكل ريعٍ آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون* وإذا بطشتم بطشتم جبّارين* فاتقوا الله وأطيعون* واتقوا الذي أمدكم بما تعلَمون* أمدكم بأنعام وبنين* وجنات وعيون* إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ (الشّعراء : ١٢٨-١٣٥).

ثم أتبع الآية بخطابٍ طويل أفاض فيه وأحسن، وأمعن في ذم القصر المشيد، والاستغراق في زخرفته، والسَّرف في الإنفاق عليه...

فاستخذى الخليفة وبكى، وندم على ما سلف منه، واستعاذ بالله من سخطه، واستعصمه برحمته، إلاَّ أنه وَجَدَ على المنذر بن سعيد، للفظه الذي قرَّعه به، فشكا ذلك لولده ((الحكم)) بعد انصرافه، وقال له:

والله لقد تعمَّدني منذر بخطبته، وأسرف في ترويعي، وأفرط في تقريعي، ولم يحسن السياسة في وعظي، وصيانتي عن توبيخي...ثم استشاط وأقسم أنه لا يصلي خلفه الجمعة أبداً..

فقال له ابنه الحكم: وما الذي يمنعك من عزله والاستبدال به؟

فزجره الخليفة وانتهره وقال له: أَمثْل ابن سعيد في فضله، وورعه وعلمه وحلمه -لا أُمَّ لك- يُعزل في إرضاء نفسٍ ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون...وإني لأستحيي من الله أن لا أجعل بيني وبينه شفيعاً في صلاة الجمعة مثل منذر بن سعيد، ولكنه وَقَذَ نفسي، وكاد يذهب بها، والله لو أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بِملكي... بل يصلي بالناس حياته وحياتنا، فما أظننا نعتاض منه أبداً!...

- نعْمَ العالم!...ونعم الخليفة!.. وإنما كان ذلك في أوج بناء دولة الخلافة الأندلسية الواحدة... بخلاف ما وصل إليه عصر دويلات الطوائف إذْ كانت العلاقة بين الأمراء والعلماء تقوم على الترويض، فمجلس الأمير مشغول بالحديث عن بنات قشتالة الأدق أخصاراً، والأقوم قدوداً، والأظهر أكفالاً وأردافاً، والموصوفات بلذة الخلوات وأنه لا تُمَلّ لهن عشْرة!...

ولعلك يا والدي سمعت بالأمير ((ابن رُزَين)) الذي وصفته الروايات الأندلسية بأنه كان جباراً جاهلاً فظاً، وأنه قتل والدته...هذا الأمير اشتهر مجلس أنسه بين مجالس ملوك الأندلس بفنون الطرب والغناء، واقتناء أجمل الجواري والفتيات البارعات في الحسن والموسيقى والغناء حتى إنه اجتمع لديه مائة وخمسون جارية ومغنية...ولم نسمع بعالم ولا فقيه يزجره، ويرده عن غيه، بينما الخطوب تُلِحُّ على البلاد الأندلسية... فأين الثَّرى من الثريا؟!...

- حين كان القلم والسيف شريكين، كانت للأندلس دولة واحدة... وحين افترق القلم والسيف تعددت ممالك الطوائف، وغدت عشرين دويلة متناحرة، متحاربة، متنافسة على استرضاء عدوهم جميعاً، تُقدِّم له من الحصون، والقلاع، والمدن، ما بلغ إجماليه قرابة نصف مساحة الأندلس ثمناً لعونٍ مُدَمِّر حصلوا عليه ضد بعضهم بعضاً...

وعلى مدى نصف قرن ظلّ التآكل من الداخل، وكان يكبر على الواحد منهم أنْ يتنازل لأخيه عن شبر من الأرض، لأنه يعد ذلك تفريطاً بالأرض، والويل كل الويل لمن يحاول أنْ يُذَكِّر بالأُخُوَّة ويدعو إلى التَّسامح حتى هلك الجميع... وما أشبه الليلة بالبارحة، لا بل ما أتعس الليلة قياساً بالبارحة، فشعوبنا اليوم في علاقتها بأمرائها أشبه ما تكون بقافلة الجمال المثقلة بالأحمال، والمنقادة من خطامها المربوط بذيل حمار!...

- ولكن الجمال نجائب كريمة قد يطول صبرها حتى إذا استنفدته، كانت ثورتها شديدة...ومدينة فاس -فيما عدا العيوب المعروفة عند الناس الظاهرة للعيان- تضم أناساً من أشرف خلق الله، كرُمت بهم المدينة، وازدهرت بعلومها، وفكرها، وصناعتها، وتجارتها...

-هذا صحيح، ولكن هذه الكثرة الطيبة مازالت دون مستوى الوصول إلى مرتبة إصدار أو صناعة القرار الذي تستأثر به القلة النكدة من الحاشية الأفاقة المحيطة بالسلطان....

....

سفيــه السُّلطــان

مضيت لمقابلة السلطان في مجلسه العام، وقد عقدت العزم على أنْ أَبوح له بأسرارٍ ترددت في الماضي عن مصارحته بها، فحال الدولة لم يعد يقاوم الأحداث والشدائد... فالرَّعية في حــال مـن السـخط والتذمـر، ومثلهـم الجند وُكلَ أمر تدبيرهم إلى قُوّاد أكلوا أرزاقهم، واشتغلوا بالكسـب، وإيـذاء الرعية حتى لم يعد للقواد والجند أقل معرفة بمكائد الحروب، بل ولا تحقيق الانتفاع بهم عند الحاجة...وجعلتُ أنظم في ذهني ما قوله مناسباً للسـلطان، لتدبير شئون الدولة، وما يمكن النصح به في مثل هذه الأحوال...في سياسة نفســه وبدنــه، وسياســة أهـل خاصتـه وحاشـيته، وسياسـة جمهـور الرعيــة، وعمارة الأقاليم، وتدبير الجند، وتقدير الأموال، وتمثُّل الحق والعدل في كل الأمور...

وفي المجلس العام وجدتُ السلطانَ محاطاً بحاشية من الأتبـاع مـن ذوي النفاق والمكر، يضمُرون الشَّر، ويتظاهرون بـالود، مطَّرحيـن الدِّيـن، والمراقبة، وهم أرجى لعدوه منه، وكان من بين هؤلاء قائده على رِيْفِ بَنِي زروال، وهو امرؤسّيء الصِّيت، جثم على أنفاس القوم، وأوقع فيهم الفساد، وكـان يُعـرِّض مـن يبطـئ فـي دفـع الضريبـة المجحفـة إلـى سـمل عينيــه، مستعيناً برجل من بني زروال ذميم الخلقـة والخلـق، يقـال : إن أمـه ولدتـه عند فرجة في بطن وادي بني زروال، تنفث باللهب، وتدعـى بفـم جهنـم... وكان قد أصيب في طفولته بمرض الجدري، الذي أفقده إحدى عينيه، فنشـأ

حاقداً على كل ذي عينين.... ومازال يضايق الناس، ولا تقف له سفاهة حتى يحثى بحفنة من المال...

ومما هو مؤسف حقاً أنْ يقدم هذا السَّفيه في المجلس العام أمام السلطان بقول القائد:

- لقد عزَّ عليَّ أن يكثر المتقولون على سلطانك، وليس في مجلسك من يوقفهم عند حدِّهم...وإني قد جئتك من بني زروال بمن لا يدانيه الحطيئة...وما أحوج سلطانك إلى مثله....

ويعزز فقيه السلطان رأي القائد قائلاً:

- نعم ..... ما أحوج مقامكم العظيم إلى هذا الصنف فقد جاء في الأثر: ((ذل من لا سفيه له))!....

لم أطق صبراً بما سمعت، ورأيت، واستأذنتُ السلطان بالحديث قائلاً:

- ما وجدنا في أثر الأنبياء والعلماء والحكماء والفلاسفة والعقلاء والعادلين من الحاكمين شيئاً من هذا الهراء.

إنه لمن العار على مملكة فاس الوطاسية أن تستحدث وظيفة يطلق عليها : ((سفيه السلطان))...

مضيت أمحض النصح للسلطان في حسن اختيار الأتباع وأهل خاصته ومن لا يستغني عنهم قائلاً:

- إنَّ أمر الدولة في خطر، وقد تحملتَ أمانتها، ولا بُدّ لك من يعينك على نظم الأمور، وحسن التدبير، ولن يتم لك ذلك إلاّ أنْ يكون معك وزير عالم حميد الأخلاق، حسن العقل، حلو اللسان، عامر القلب بالنصيحة، معتقد الخير والصلاح...

وكاتب عارف ذكي فطن متأدب حسن الخط والإعراب، عالمٌ بالحقوق بصير بالشهود، خبير بالإقرار والإنكار وما يجب فيهما...

وحاجب عاقل، ذو خلق واسع، ومنطق بارع.

وقاضٍ ورع، فهو ميزان السلطان، ولا بد أن يكون فقيهاً نزيهاً عفيفاً خبيراً بمذاهب الناس، وأن يكون ذكياً فطناً عالماً عاقلاً عارفاً بأدب القضاء، صادعاً بالحق على من وجب عليه، غير مراقب.

وحاكم عادل، لا يقبل هدية، ولا يسمع قول شفيع في شيء من أمور الحكم...

وصاحب شرطة حليم مهيب، حفيظ، ظاهر النزاهة، عارف بمنازل العقوبة، يقيم الحدود، ويسوي في العقوبة بين الخاص والعام....

وجند أقوياء من ذوي البأس والنجدة، قوادهم من أكابرهم قدراً، وأعرفهم بالوقائع والحروب، تُوفى أرزاقهم أولاً بأول ويمنعون من اتخاذ الصنائع ويؤخذون دائماً بالرياضة والفروسية، وليؤمر قوادهم بعرضهم دورياً لتفقدهم .. وتذكر أيها السُلطان ما كتبه أرسطو إلى الاسكندر:

تفقد جندك، فإنّهم أعداء، تنتقم بهم من أعداء.

....

قلت كلمتي، وما دريت أنها ستكون بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، فما كادت أشهر معدودات تمضي حتى أخذت أجني ثمارها حين وُضعتْ أختي عنوةً في بيمارستان المدينة بدعوى أنها مصابة بالجذام وقد كانت وشاية ومكيدة مدبرة من القائد الزروالي، الذي كان طلب يدها من والدي فاعتذر عن أن يقدمها سلعة، ورقماً يضاف إلى أرقام عدة من أزواج

الزروالي اللائي أضحين خدماً في بيت طاعته أو معلقات أو مطلقات أو في عداد الموتى!...

وقد كان مصير الاعتذار وَضْعُها بين المجذومين دون اكتراث لعِرض وشرف، ودون مبالاة أو اعتبار لمن يعمل بإخلاص وتفانٍ في بلاط السلطان!...

وقد أعيتني الحكمة وأنا أبحث عمن يخلصنا من هذه المحنة... وكم كانت حاجتنا شديدة إلى رجل مثل الحاج (مصباح أبو الضياء) الذي وجدته يحتضر حتى فارق الحياة، فراراً من واقع منهار، وأسىً وكمداً على فراق الأندلس وضياعها!...

وينبري للزروالي صديق الطفولة والدراسة هارون المنقب الذي عقد كاتبان بالعدل كتاب القران بينه وبين أختي المحتجزة في البيمارستان...

مكثتُ في مدينة ((فاس)) غير كثير من الشهور، أتلظى فيها بهموم الأسرة، وأكابد فيها مشقات الحياة اليومية، والتي كانت على حساب العمل للداخل الأندلسي...

كان يزيدني ألماً تلك الابتسامة التي ترتسم على شفتي طفلتي ((زينب)) ..إذْ لم أهنأ بمداعبتها بصفاء دون أنْ يشوبه كدر من مشاغبات الحاشية والوشاة الذين أمطروني بوابل حقدهم، وإنْ كان ذلك لم يزدني إلاّ إصراراً على محض النصح للسلطان وذكرته في أنْ يجتهد في استمالة قلوب الرعية، وأن يجعل طاعتهم رغبة لا رهبة، وألاّ يجمع المحسن والمسيء بمنزلة واحدة فيزهد أهل الإحسان، فقد ذهب عزُّ بني أمية حين أبعدوا عنهم المخلصين الصادقين توثقاً من صداقاتهم، وقربوا أعداءهم

اجتلاباً لمودتهم، فخسروا أصدقاءهم، ولم يربحوا خصومهم.... ذكرته أنَّ الزروالي الذي ذهب يسمل عيون الرعية لقاء عشرة آلاف مثقال في السنة يؤديها إلى السلطان، لن يستمر في ما هو فيه، ولن يدفع عن السلطان غضب الله وثورة جمهور الرعية....

لشدَّ ما كانت حيرتي أن كان السلطان آذاناً صاغية، يهز رأسه بالموافقة والتأمين على كل ما أقول، لكنَّ واقعه كان غير ذلك، فقد كان واقعاً مُرًّا يتحدث بعجزه وضعفه أمام تلك الحاشية الشريرة التي طوقته، وبات أسير إرادتها!...

حاول أن يشعرني بهيبة سلطانه، مبالغاً في الحديث عن علاقاته بالملوك والسّلاطين.... واصطحبني إلى معارض للهدايا في قصره، وأخذ يقف عند كل هدية يُفصل الحديث عن الهدية وعن مهديها...

وإذْ رأى أنَّ هدايا المشرق شبه خالية التفت إليَّ قائلاً:

إنَّ إخوتنا في المشرق قوة لا يستهان بها، وعلينا أن نوطد العلاقة معهم، ونعيد الاتصال بهم...وإني لأرى فيك خير سفير إلى كلٍّ من قانصوة الغوري في مصر، والسلطان سليم الأول في الأستانة، وتنقل للأخير تهانيَّ بتوليه كرسي الخلافة العثمانية...

قلتُ له –وفي النفس توق إلى الترحال–:

– لك السمع والطاعة... وأستأذنك في أداء فريضة الحج كذلك، وسأصطحب معي أفراد أسرتي إلى تونس موطن أهل زوجتي...وإني لأطمع بمكرمة منك في أنْ يفرج قاضي القضاة عن أختي المظلومة!...

....

إذْ بلغ الأمر مسامع الزروالي، أقسم ألاَّ تخرج أبداً طالما كان على قيد الحياة...

استخدم للبر بيمينه الفاجرة الظالمة امواله الحرام لدى قاضي القضاة، فيما كان هارون المنقب هو الآخر قد أقسم على أنْ يُخلِّص الناس من شر الزروالي الذي لم يجد دولة تردعه عن غيِّه، وظلمه وعدوانه بل كثيراً ما تأتمر بأمره...

تسارعت الأيام...فبينما كنتُ أستعد للرَّحيل حملت إلينا الأخبار نبأ مقتل الزروالي على طريق بلاد الريف...

وحامت الشبهات حول أهالي بني زروال، ثم حول هارون، وازدادت حين توارى عن الأنظار منذ فترة....

جرى التشديد على بني زروال، والبحث عبثاً في كل مكان عن هارون....

خشيتُ على أختي أن يتعقد أمرها، ويطول مكثها في البيمارستان، ولكن سرعان مازالت عني المخاوف حين تلقيت رسالة عاجلة من هارون ذكر فيها أنه دبَّر أمر هروبها مع كثيرين من سجيني البيمارستان مشيراً إلى أنَّ لقاءنا سيكون في تونس...

وإذْ رأى قاضي القضاة أنَّ صديقه الشرس الزروالي قد قُتل، وأنَّ عدداً من مظلوميه قد فروا من البيمارستان، وأنَّ الحكيم هو من اتَّعظَ بغيره فما كان منه إلاَّ أن أحنى ظهره للعاصفة متظاهراً أنه كان عازماً على إخراجهم بأمر السلطان...ومن ثم فقد كفَّ جنوده عن مطاردة الفارين!...

زيـــارة المشـــرق

شعورٌ غامضٌ داهمني، ونحن نستعد للسفر إلى تونس، وبلاد المشرق، لم أتذكر أني تعرضت لمثله على الرَّغم من كثرة أسفاري التي جبتُ فيها أمصاراً مشرقية عدة؛ منها : العراق، وفارس وأرمينيا والتتار، في طفولتي المبكرة...

قد يكون لهذا الشعور ما يبرره، وبخاصة وأنّ الزيارة هذه المرة حافلة بمهام سياسية، وأعمال سفارة وتجارة، وحج إلى بيت الله الحرام وزيارة المصطفى عليه الصلاة والسلام، والمسجد الأقصى ببيت المقدس...فإنّ احتمال التّعرض لمخاطر الأسفار واردٌ عند كثرتها ...ثم إنّ دعوة الأجداد السَّبئيين تنطوي على شيء من ذلك حين دعوا الله، فقالوا : ﴿ربّنا باعد بين أسفارنا، وظلموا أنفسهم﴾..

لكن ما ذنب الأحفاد حتى يؤخذوا بجريرة الأجداد؟، إذْ ((ولا تزر وازرة وزر أخرى))... ثم إنّ أسفاري ذات مقاصد كريمة ومن قبيل الضرب في الأرض أبتغي من فضل الله، وأسعى إلى خير الأمة...

هكذا مضيتُ أحاور النّفس، وأبدد عنها الهواجس والشعور المبهم، وأبدي علامات الابتهاج والانشراح أمام الأهل ورفاق السفر الذين علت وجوههم إشراقات الأمل باستقبال حياة جديدة في تونس من بعد محن وإحن أبعدتهم من الأندلس، وضيّقت عليهم الخناق في فاس!..

التفتُّ إلى والدي أسأله:

– أترانا نعود إلى فاس؟

- ما أظن أنَّ من تقدَّمتْ بِه السِّن مثلي بمقدوره العودة إلى فاس، أما أنت يا ولدي -أمد الله بعمرك- فما زال بإمكانك العودة إليها، غير أني لا أرى عودتك إلاَّ إذا غدت في حال حسنة...

أحسستُ لحظتها أني كذلك لن أعود ...ولعل هذا هو سبب الشعور الغامض لديَّ.

....

في المغرب الأوسط

مملكة تلمسان

اخترنا إلى تلمسان طريق ((تازة - دبدو))، وبعد ثمانين ميلاً ، قطعتها القافلة بين ((تازة)) في أرضٍ قفرٍ، شحيحة المياه، قاسية المناخ...كان لا بُدَّ أنْ نريح في مدينة ((دبدو)) معقل قبيلة ((بني ورتاجن)) التي ينتمي إليها أمير تميز بحبه للغرباء، وباعتداده بأسرته التي يعود إليها فضل حماية هذه المدينة من غزوات الأعراب....وكنتُ حملت إليه توصية من سلطان فاس، ومن أحد إخوته زوج إحدى بناته، فأحاطنا بعناية فائقة.

لهذا الأمير قصة مع سلطان فاس عايشتُها، وهي واحدة من قصص عدة في عصرنا المنكسر، رأيتُ أنْ أوردها لأنها تسجل المعارك الدائرة بين الأعراب وبين المملكة تارة...وبين المملكة وبين الإمارات تارةً أخرى شاهدة على استقواء الأخ على أخيه، وإهدار الشجاعة والبطولة والتضحيات في شهوات الانتقام!...

خلاصة القصة أنَّ الأمير نُصحَ ذات مرة بانتزاع مدينة ((تازة)) من يد سلطان فاس، فحبك لذلك مؤامرة، لكنها سرعان ما فُضِحَت، وجعلت السلطان يزحف بجمع كبير من الجند لاحتلال مدينة ((دبدو)) ، فأخذ الأمير ينسج حيلته مع الجبليين، فتظاهروا بالتراجع، وكان عددهم قرابة ستة آلاف ...وتركوا قسماً من الجند يتوغلون في منعرجات الجبل الضيقة، ثم انقضوا عليهم، وهم منهكون...فحدث فرار كبير بينهم وتساقطت عليهم الصخور، ودُقَّت أعناق الكثيرين، ...وبلغ عدد القتلى زهاء ثلاثة آلاف!...

وقد أدى هذا الفشل إلى أن يقوم السلطان بتجهيز حملة أخرى تضم خمسمائة من قاذفي السّهام، وثمانمائة من حاملي البندقيات..الأمر الذي اضطر معه الأمير إلى أن يستسلم للسلطان بطريقة ملتوية تزيّا فيها بزي رسول، تقدم إلى خبائه ليسلمه خطاباً كتبه بيده باسم أمير ((دبدو))، ولم يكن يعرفه السلطان...

حين قرأ السلطان الخطاب طلب من الرسول رأيه فأجابه قائلاً:

– أعتقد أن أميري مجنون حقاً ...لكن الشيطان يستطيع أن يضل الكبار والصّغار...

صاح السلطان متوعداً:

– والله لو سقط في يدي –كما أتمنى ذلك– لسلخت جلد ظهره، ومزقته حيًّا إرباً، إرباً..

أجاب الرسول:

– وإنْ حدث وارتمى الأمير بين قدمي جنابك ملتمساً العفو والصلح عن خطيئته ...كيف تعامله؟

ردَّ السلطان بأنه سيصفح عنه، ويقربه منه، ويقره في حكمه...

فلما استوثق الرسول من وعد السلطان، ارتمى بين قدميه، قائلاً:

- أنا الأمير...

فعفا عنه السُلطان، وزوّج اثنتين من بناته من بنيه!..

هكذا كان الصلح بين الإخوة، بعد إراقة الدماء التي كان أولى بهم أن يدخروها لمواجهة أعدائهم من البرتغاليين والأسبان...

نمرُ بمدينة (وجدة) إحدى المدن القديمة التي بناها الأفارقة، وتقع في سهل فسيح جداً، وأراضيها الزراعية غزيرة الإنتاج تحيط بها حدائق، غرست فيها على الخصوص الكرومُ وأشجارُ التين...لكن أهلها الذين لم يتجاوزوا خمسمائة دار يعيشون فقراء بسبب ما يؤدونه من الخراج لملك تلمسان، وللأعراب المجاورين لهم في مفازة أنكاد...

مدينة (وجدة) واحدة من المدن المتضررة على الدوام المتعرضة للنهب والدمار أثناء الحروب بين ملوك فاس، وملوك تلمسان...

في غياب الوحدة تتجاذب الأطماع مناطق الأطراف بين الممالك المتجاورة المتخاصمة وتجر معها الويلات، والدّمار ، والأحقاد....

وندخل أقاليم مملكة تلمسان، وهي في معظمها جافة قاحلة لا سيما في جزئها الجنوبي...

على بُعد ميل جنوبي ((تلمسان)) مررنا بمدينة ((العُبّاد))، وهي مدينة صغيرة شبه ربض، اكتسبت شهرتها من ضريح ((سيدي مدين))، ذلك الرجل الولي، الصالح العالم الأندلسي الذي قدم من أشبيلية، واستقر في تلمسان، بعد أنْ تنقل بين فاس وبجّاية، وذلك في نهاية القرن السادس للهجرة.

وفي المغرب الأوسط، أقمنا في عاصمة الدولة الزيّانية ((تلمسان)) بين حاشية السلطان..أما السلطان فإنه يتّبع مراسم شديدة، فلا يظهر إلاّ للعظماء، ولكبار الشخصيات من رجال حاشيته ولا يستقبل أحداً سواهم، ولعل ذلك ناجم عن الوضع القلق الذي اتسمت به هذه الدولة عبر ما يقارب الثلاثة القرون، حيث ظلت تتعرض لضغوط الدولة الحفصية من جهة الشرق، ولضغوط الدولة المرينية من جهة الغرب، وحوصرت آلاف المرات على وجه الخصوص من قبل المرينيين وكان من أسوأها الحصار الذي ضربه رابع ملوك بني مرين والذي حُمل على إثره السلطان الزياني أسيراً إلى فاس، ودُقَّ فيها عنقه، وأُمر برمي جثته في مزبلة المدينة! . وظلت تلمسان بين مطرقة المرينيين وسندان الحفصيين حتى دالت دولتاهما، وحل الوطاسيون محل المرينيين، ولكنهم ظلوا منشغلين بأقاليم دولتهم، بينما أخذ والي ((بجاية)) الذي أعلن استقلالها مملكة منفصلة عن تونس يزحف على ما جاورها حتى تمكن من إخضاع مدينة الجزائر التي كانت تابعة لتلمسان مدة طويلة...

تتالت الأحداث، وعمل أهل الجزائر في الإغارة على جزر ((مَيُورْقَة)) و ((مَنُورْقَة)) و((اليابسة))، فأرسل الطاغية الكاثوليكي فرديناند أسطولاً عظيماً لمحاصرة الجزائر حتى انتهى معه السكان إلى هدنة...

ثم جاء بربروس التركي، فحاصر ((بجاية))، لكنه اضطر الى الالتجاء لقصر ((جيجل)) عندما تركه الفلاحون، وذهبوا إلى فلاحة الأرض.... ولدى وفاة الملك الأسباني فرديناند، اتخذ الجزائريون ((بربروس)) قائداً لهم، فقتل زعيم الأعراب القاطنين بسهل ((متيجة)) الذي كان حاكماً على الجزائر عندما احتلّ الأسبانيون ((بجاية))...

الشيء بالشيء يذكر فمدينة وهران تلك المدينة الكبيرة المنتشرة في السهل والجبل المطلة على البحر المتوسط والمحاطة بأسوار عالية جميلة، عاش أهلها في عداء مع ملك تلمسان، ولم يقبلوا أي والٍ من ولاته قط ماعدا أمينَ مالٍ، وقابضاً لمداخيل الميناء...وكانوا ينتخبون ((رئيس مجلس)) ينظر في القضايا المدنية والجنائية...ويغزو تجارهم سواحل قطلونية وجزر يابسة ومنورقة وميورقة ويعودون بالأسرى المسيحيين الذي زخرت بهم مدينة وهران، وقد أدى ذلك إلى تعرضهم لهجمات الأسبان واستيلائهم على المدينة...

....

حضرتُ جُلّ هذه الأحداث، ونزلت ضيفاً عند السفير الذي بُعث به إلى أسبانيا، وعاد حاملاً معه زهاء ثلاثة آلاف مخطوط عربي اشتراها من مدينة ((شاطبة)) إحدى مدن مملكة ((بلنسية))
التي ظل عرب الأندلس يجدون فيها ملاذاً آمناً لحفظ ما تبقى من المخطوطات...

خرجتُ من الجزائر قاصداً بجاية، فوجدت ((بربروس)) محاصراً قلعتها ومكثت عنده أشاهد نهاية المعركة إلى أن هرب، والتجأ إلى ((جيجل)) فانصرفت بدوري إلى قسنطينة في الطريق إلى تونس، وكان قيل لي إنّ بربروس قتل في ذلك الوقت بتلمسان، وبويع أخوه خير الدين أميراً على الجزائر...

وعلى الرغم من كثرة الحروب والمعارك، فقد تحيّنتُ من الوقت ما أتاح لي عقد صحبة مع هذين القائدين التركيين، وقد سُرّا بسفري إلى

القسطنطينية عاصمة الخلافة العثمانية، ودلاني على أسباب نجاح زيارتي، وعرفاني بمن سألتقيهم ويكونون عوناً لي لدى السلطان سليم.

....

لم أتمكن هذه المرة من مواصلة السير على خط الساحل وإنْ كان فيه متعة وجمال، وتنقل بين المدن والموانئ التجارية العريقة مثل ((القُلّ)) و ((سكيكدةْ))، و ((عنابة)) و ((طرقة)) و ((بنزرت))، لكن المرور بالمدن الداخلية لم يكن أقل أهمية ومتعة، وإنْ كانت مدنه قليلة...

....

في المغرب الأدنى

مملكة تونس

في طريقنا إلى قسنطينة إحدى مدن مملكة تونس الكبيرة التي يوليها الملك اهتماماً خاصاً ويجعل عليها أحد مقربيه نائباً له، مررنا بتخوم ((بجّاية))، وهي بحكم موقعها في الأطراف بين مملكتي تونس وتلمسان، سعت إلى أن تكون دولة مستقلة ذات سيادة، شأنها شأن تلك الأقاليم التي اعتقدت أن قُوّتها في انفصالها، فذهبت تبرر لانسلاخها بأنه نزوع نحو السيادة والاستقلال!...

غير أنّ ((بجاية)) لم تكن في الواقع حاضرة مُلْك إلاَّ منذ قليل، وظلت حكومتها تابعة لمملكة تونس بعد صراع عنيف وحروب ومعارك مع مملكة تلمسان، مما أغرى بها الطاغية فرديناند، فانتزعها من أميرها التونسي بقوة السلاح!...

قلتُ مستنكراً:

- أليست مهزلة أن تمتد سطوة فرديناند إلى هذه البلاد؟

أيكون هذا العلج بهذه القوة لو لم تحل على أهل المغرب لعنة ممالك الطوائف؟!

رد والدي قائلاً:

- إنَّ أرض المغرب واسعة، والحصون والقلاع فيها منيعة، ورجالها شجعان أبطال ...ولكن تنقصهم القيادة الصادقة أو وحدة القيادة الصادقة...أنظروا إلى قسنطينة ... إنها كما ترون واقعة على جبل شاهق، وهذه أسوارها العالية، سميكة الجدران، مبنية بالحجر الأسود المنحوت...يصعب الصعود إليها إلاّ من طريقين صغيرين ضيقين، سلكنا أحدهما الذي هو من جهة الغرب عند قدومنا، وخرجنا من الآخر الذي هو من جهة الشرق عند توجهنا إلى تونس...

ويوجد بالجانب الغربي من المدينة قلعة كبيرة حصينة...وأبواب المدينة مصفحة تصفيحاً جيداً، وفيها ثمانية آلاف دار، ولها موارد كثيرة، وأهلها شجعان مقاتلون، ومتحضرون جداً، وفيها عدد من التجار والصناع البارعين...لكن أسباب القوة مجتمعة لم تستثنها من سوء الأحوال، واضطراب الأوضاع،فقد كان عليها نائب سلطان تونس يدعى القائد ((نبيل)) المعروف بدهائه، لكن غروره ذهب به إلى أن يضرب سكةً باسمه من تلقاء نفسه، وكانت أفضل من سكة السلطان، مما أدخله في مناورات، وحيل أودعته في غياهب السجون، وكلفته دفع غرامات باهظة، أنهك بسببها السكان بالضرائب، وأراق دماء الكثيرين، ووقع في محاصرة شديدة انتهت بموته حزناً وهمًّا وغماً وكمداً!...

ويشتغل كثير من أبناء مدينة قسنطينة بالتجارة، فيجتمعون مرة في السنة في قافلة تذهب الى نوميديا يحملون إليها أقمشة الصوف، وحشيشة الكيف، ويدفعون أموالاً كثيرة لبعض الأتراك من حاملي البنادق لحمايتهم من هجمات الأعراب...وفي تجارتهم مع تونس لا يؤدون واجبات الدخول إليها، ويكتفون بما يؤدونه عند الخروج منها، غير أن متعة الفجور تستنفد ما حصل عليه البعض منهم فيها...

ويشاهد خارج قسنطينة بنايات عديدة عتيقة وأراضٍ جيدة خصبة يبلغ إنتاجها ثلاثين ضعف ما يزرع فيها...ويوجد في السهل على طول النهر بساتين في غاية الجمال...ويوجد بقرب النهر تحت الصخرة درجٌ للنزول منحوتة بالحديد في الحجر، وبجانب الماء رواقٌ مقوس منحوت كذلك بالحديد، بحيث أنَّ السقف والأعمدة والأرض كلها قطعة واحدة، تأتي إليها نساء المدينة لغسل الثياب...

وعلى مسافة نحو ثلاث رميات حجر من المدينة يوجد حمام من عين ماء ساخن يتدفق بين صخور ضخمة، تكثر فيه السلاحف التي تعتقد فيها النساء أنها من الشياطين، وإليها يَعزون إصابتهن بالحمى، ويذهبن إلى الاعتقاد بأن البرء منها لا يكون إلاَّ بذبح دجاجة بيضاء توضع في إناء بريشها الكامل، ثم تربط حول الإناء شمعات، وتحمل إلى العين...

وقد استفاد من هذا الاعتقاد الساذج نفر من الظرفاء الذين كثيراً ما تتبعوا النساء وهن يتوجهن إلى العين يحملن الدجاجة والإناء حتى إذا انصرفن أسرعوا إلى أخذ الإناء وطبخ الدجاجة وأكلها!....

وفي موضع آخر توجد عين ماء بارد، يقوم بالقرب منها بناءٌ من رخام يعتقد العامة أنه كان في الأصل مدرسة آداب، وكان أستاذها، وتلامذته فجرة، فمسخهم الله، ومدرستهم رخاماً عقاباً لهم على ذنوبهم!...

قلت لوالدي والحسرة بادية على الجميع:

– يبدو أن الاعتقادات الساذجة، والخرافات والشعوذات قد سرت في عموم المغرب من أقصاه إلى أدناه، حتى في هذه المدينة العريقة الحصينة ..انتكس فيها العقل، وتعامل مع الرخام أنه إنسان ممسوخ! ونظر إلى السلاحف المائية أنها شياطين!..

ترى ما أهمية شجاعة الشجعان في هذه المدينة والعقل فيها غائب؟.. كيف لمثل هؤلاء أنْ ينظروا إلى أعدائهم؟

ألم يدركوا آثار العمران وما خلفه لهم آباؤهم من علوم العقل والنقل؟ من أين وكيف دخلت عليهم هذه الجهالات والضلالات؟

رد عليَّ والدي قائلاً:

– ما أراك تبحث عن إجابة...ولكنك تبحث عن حل لما حلّ بالأمة...فقد حدثني كثيراً عما صادفك في زياراتك للأقاليم المغربية وما وصل إليه عصر الترهات، وعيوب السلاطين والعلماء الذين قصّروا وأخطأوا في أداء مسؤولياتهم، لكن دعني أضيف إلى ما طرحت من الآراء والأفكار القيمة مالاحظتُه في سلوك الحكام، واهتمامات الفقهاء، مما كان له أثره في انتكاسة العقل، وإيمان العامة بالترهات...فقد اختلط على الناس أمر الحاكم الذي يهلك الحرث والنّسل، ويسعى ليفسد في الأرض ثم هو في صلاة الجمعة يتقدم صفوف المصلين، لا ينافس موضعه في الصف

الأول منافس إلاّ حرس وحاشية بقصد الحماية، ولزوم الهيبة حتى في بيت الله!...

وتسمع الخطيب لا يختتم خطبته إلاّ وقد دعا لهذا الحاكم، وأمَّن عليه المصلون...ويحسبون من بعد ذلك جميعاً أنهم مهتدون!...

وخيرُ من تبقى من الفقهاء أولئك الذين انزووا إلى الإنشغال بفقه المسألة الواحدة، وخاضوا في تفاصيلها على حساب الأمور الكبيرة والأساسيات...ترى أي محنة نكبت بها الأمة أكبر من أن تستباح حرمات الأرض والعر، لكن هذه المحنة ليست شغل فقهاء المسألة الشاغل، فما زالوا يقرمون مسألة الثوم والبصل وعلاقتهما بالصلاة، على ما سواها من الأساسيات....ومثلهم أولئك المنشغلون بدم البرغوث هل يفسد الوضوء؟...وأظن أنّ الانشغال بفقه المسالة قديم، وأذكر أنّ قتلة الشهيد الحسين بن علي كرم الله وجهه، ظلوا يستفتون في دم البرغوث، ولم يعبأوا بسفكِ دمِ مسلمٍ شهيد!. ألا يؤدي ذلك كله إلى الضعف والانهيار؟

لقد تراكمت العيوب والأخطاء حتى طغت على عصرنا فطبعته بهذه الترهات...ومالنا من مخرج منها إلاّ بالعودة إلى كتاب الله، وسنة رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام....فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها...وقد كان حملة الرسالة وقادة الفتح بناة أمة وعمران...

– أليس في ذكر حملة الرسالة وقادة الفتح ملاذٌ لمن لا حول له ولا طول، فيكون تَغَنّيه من قبيل الهروب إلى الماضي؟

نحن أبناء اليوم فلِمَ لا نفكر برؤية اليوم؟

– ذكر الماضي لا يتناقض البتة مع التفكير برؤية الحاضر...

فالذين يستشهدون بشعر امرئ القيس ومالك بن الريب وعنترة بن شداد، والنابغة الذبياني والأعشى ودريد بن الصمة وغيرهم من شعراء العصر الجاهلي، أو من جاء بعدهم في العصر الإسلامي في عهوده الأموية والعباسية أمثال المتنبي والبحتري والمعري وابن الرومي والفرزدق وجرير وغيرهم وغيرهم....

لم يَعْنِ ذلك إغراقاً في الماضي، وامتناعاً عن قول الشعر في الحاضر...وإنما كان بقصد الوعي والتذوق لحضارة أمة...فإذا كنا نسوغ لأنفسنا استحضار الشعر والأدب لمختلف العصور فلماذا ننكر على أنفسنا الحديث في البناة الحقيقيين من حملة الرسالة وقادة الفتح؟ ثم لماذا لا ينكر الفرنجة على أنفسهم استحضار أرسطو وأفلاطون وفيثاغورث وغيرهم من علماء وفلاسفة الإغريق القدماء؟..

إنّ تواصل الحاضر بالماضي لا يفسد المستقبل بل ينهض به حين تستحضر الأمة وقادتها وعلماؤها المبادئَ والقيمَ والأسس والثوابت التي كونت الأمة وجعلتها قوية....

....

ونصل إلى مدينة ((القيروان)) المدينة التي درس فيها معظم فقهاء أفريقيا، والتي أسسها عقبة بن نافع قائد جيوش الفتح التي أرسلها عثمان بن عفّان ثالث الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم.

بَنَاها على بعد ستة وثلاثين ميلاً من البحر المتوسط، ونحو مائة ميل من تونس بقصد تحقيق الأمن للجيش، وحرز الأموال التي غنمها من مدن أفريقيا ونوميديا...وسوَّر المدينة بسورٍ جميل بناه كله بالآجر كما شيَّد بها جامعاً عظيماً عجيباً قائماً على أعمدة بهيجة من المرمر، اثنان منها

قرب المحراب، ارتفاعهما لا يتصوره العقل، ولونهما أحمر قانٍ مع نقط بيضاء، كأنه رخام سماقي...

وقد تطورت القيروان وتبحّر عمرانها على عهد ملوك بني الأغلب إلى حدّ أنها لم تعد تسع جميع السكان، فبنى الملك مدينة أخرى أطلق عليها اسم ((رقّادة)) وسكنها مع أكبر أعيان حاشيته..ومنها كان فتح صقلية...

وقد ازدهرت العلوم الإسلامية بالقيروان في فترة من تاريخها، وظلت شاهداً على عمران عرب الرسالة حتى جاءها عرب التغريبة ومن بعدهم من الأعراب فخرّبوها وأضحت مدينة البؤس، ليس فيها اليوم غير صُنّاع فقراء، أكثرهم يصبغون جلود الغنم والماعز، ويبيعون ملابس جلدية في مدن نوميديا، بالإضافة إلى أنّ سلطان تونس يثقل كاهلهم بالضرائب، وبذلك غدت معيشتهم ضنكا!..

....

في حَاضرة الدّولة الحفصية:

لكل واصلٍ دهشة! هكذا يقال في من يفد إلى مكان جديد عليه، لكنني ومنذ اللحظات الأولى لوصولنا إلى تونس حاضرة الدولة الحفصية، أنستُ إليها، ولم أشعر بأدنى غربة فيها...

قد يكون هذا الشعور بسبب وجود أسرتي جميعها، وأهل زوجتي وصديقي هارون، وأعداد كبيرة من الأندلسيين، وتجار مدينة فاس...غير أنّ أهل تونس الذين يمتازون بالطيبة، واللياقة، يُضفُون على القادمين مشاعر الحب، ويسكبون عليه برد الطمأنينة والسلام...

يرتدي الصناع والتجار والفقهاء وجميع من يتقلد وظائف لباساً ممتازاً، ويضعون على رؤوسهم عمامة مكسوة بقماش طويل، وكذلك العسكريون وأصحاب الحاشية، إلاّ أنهم لا يضعون قماشاً عليها....

وتمتاز مدينة تونس حقاً بجمالها الفائق، ونظامها الرائق...تقوم على ربوة خضراء نضرة، تأتلقُ جناتها، وسط بحر من شجر الزيتون، وتشع مبانيها البيضاء بالجمال المنبعث من الحجارة المزلوجة والمنحوتة على أكمل وجه، وتحلق بمن حلّ فيها بجناحي المحبة إلى بيوتها المزدانة سقوفها بالفسيفساء والجص والمجزّع بطريقة فنية عجيبة، والمصبوغة باللازورد وغيره من الألوان الزاهية الجميلة، بينما بلطت الحجرات بمربعات لماعة، ذات لون فاتح، ومثلها الساحات...وغالب المنازل ليس بها سوى طابق أرضي، ومدخلها جميل ذو بابين، أولهما يفضي إلى الخارج، والآخر يتصل بالمسكن، ويرقى إليه بسلم من بضع درجات مزدانة بتبليط جميل...ويتنافس السكان في تجميل مداخل بيوتهم لتكون أكثر أناقة وزخرفة من غيرها، لأن هناك يجتمع الناس للتحدث مع أصدقائهم أو لقضاء بعض الشؤون مع خدّامهم.

ولمدينة تونس جامع كبير يعرف باسم جامع الزيتونة، في غاية الجمال والسّعة، كثير المستخدمين، عظيم الموارد، وهناك العديد من الجوامع في المدينة، وفي الأرباض وإن كانت أقل أهمية من الجامع الكبير، وفيها عدة مدارس للطلبة، وبعض الزّوايا للمريدين المتنسكين، وتكفي أوقاف هذه المؤسسات الدينية للإنفاق عليها لتستمر في القيام بوظائفها بكيفية لائقة...

ومما يجتذب اهتمام الزائر أسواق تونس المنسقة والمتعددة الصناعات والسلع...فلكل من أرباب الحرف موقعهم الخاص، وجل السكان نسَّاجون، وتضم بعض أسواق تونس عدداً كبيراً من تجار القماش الذين يعتبرون أغنى سكان المدينة كما تضم غيرهم من التجار والصناع كالعطارين، وبائعي الأشربة والعقاقير المحلاة بالسُّكر، وتجار العطور، والحرير، والخياطين، والسراجين، والفرَّائين، والفاكهانيين، واللبانين، والخبازين، والقصابين...

والنساء يُتْقِنَّ الغَزْلَ غاية الإتقان، فيجلسن في مكانٍ مرتفع، ويرخينَ المغزل كثيراً إلى أسفل، يقعدن مثلاً في نافذة، ويتركن المغزل يَنزل إلى ساحة الدار، أو ينزل من ثقب السّقف بين طابق وآخر، فيتكون الخيط بواسطة ثقل المغزل، ويأتي جيد الإنبساط والفتل، منتظم الغلظ.

والسيدات التونسيات يرتدين لباساً حسناً، ويتأنقن في زينتهن ويسترن وجوههن عندما يخرجن مثلما تفعل الفَاسِيَّات: يغطين الوجوه بوضع خمارٍ يدعى ((سفساري)) على عصابة عريضة جداً يعصبن بهن جباههن، بحيث تبدو رؤوسهن وكأنها رؤوس عماليق، لايشتغلن بغير زينتهن وعطرهن، حتى إنَّ العطارين هم دائماً آخر من يغلقون دكاكينهم!...

هنا في تونس يستفحل خطر تجار الفرنجة الذين غدوا طبقة كبيرة ومؤثرة، فقد تحولت مراكز تجمعهم المعروفة بالفنادق إلى مؤسسات اقتصادية وعسكرية تهدد ما تبقى للدولة الحفصية من وحدة سياسية، انحصرت في حاضرتها، وقد أوشكت أنْ تتحول إلى المسيحية أكثر من مرة لولا الدور الجهادي العظيم لمدرسة جامع الزيتونة.

. وويفتك البؤس بضعفاء الشعب في تونس، ويؤدي بالبعض إلى الاتجار بالمحرمات، واسترخاص الأعراض!...

لم تكد تمضي سوى بضعة أسابيع حتى كان زفاف أختي وهارون في عرس حضره جمعٌ غفير من أبناء تونس، والأندلسيين والفاسيين، ورجال بلاط السلطان الذين راعهم هذا الحضور الكبير لأبناء المغرب الكبير، فجعلوا يرسلون في طلبي على البلاط لأحظى فما بعد بعنياة السلطان الفائقة..

ولبلاط الملك نظامه وتقاليده وموظفوه...فيأتي بعد الملك نائبه الذي يسمى ((المنفذ))، ويليه ((المزوار)) وهو بمثابة القائد العام، ثم (قائد القصر)، ومن بعده (والي تونس)، فالكاتب الأعظم، وقائد الديوان وأمين المال ومدير المكْس، ومدير الجمرك، والقائم بالصرف...

ولملك تونس ألف وخمسمائة فارس جلهم من النصارى المعتنقين للإسلام، ومائة وخمسون من الفرسان المولودين على الإسلام وهم المستشارون العسكريون للملك وأركان حربه...ويصحب الملك في حركته داخل المدينة وخارجها مائة من الرماة أكثرهم نصارى أسلموا، إلاَّ أنَّ الذين يلونه مباشرة ويحيطون به هم حرسه السِّري المؤلف من المسيحيين القاطنين في الربض، ويتقدمه حرس آخر راجل مكون من أتراك مسلحين بالقسي، والبندقيات...ويتقدم أمام الملك رئيس السَّيافين، ممتطياً فرساً ومصحوباً من جانب آخر بالضابط الذي يحمل حربة الملك، ومن جانب آخر بالضابط الذي يحمل ترسه، ومن ورائه حامل قوسه، ويسير حوله بعض الضباط مثل رؤساء أركان الحرب والحجاب المكلفين بالمراسم الملكية...

ذلك هو النظام الموضوع حسب القواعد المعهودة والعادات المألوفة في بلاط ملك تونس، لكنه معروض بصفة عامة، لأنّ الفرق شاسع بين الأسلوب العادي لحياة الملوك الأقدمين، وأسلوب الحياة الخاص للملك الحالي، فهذا الملك حقاً مختلف تمام الاختلاف عن أسلافه طبعاً وعادةً وسيرة، وسأخجل حقيقة إذا ذكرت العيوب الشخصية لأحد الملوك كيفما كان، غير أنني لو تركت جانباً الحديث عن هذه النقائص فلا بد أن أقول إنّ هذا الملك بارع في استخلاص المال من رعاياه، فيعطي بعضه للأعراب، وينفق سائره لبناء قصوره، حيث يعيش عيشة كلها مجون وخلاعة بين الموسيقيين والمغنين والمغنيات، تارة في القصبة، وأخرى في بساتين عجيبة...إذا أراد رجل أنْ يغني أو يعزف على آلة موسيقية بين يديه بدأوا بعصب عينيه مثلما يفعلون بالبزاة، ثم يدخل إلى الحجرة التي يوجد فيها الملك مع حظاياه!

قال لي والدي بعد أنْ أحاط علماً بهذه التفاصيل:

- الآن تيقنت لماذا يكرهون احتجاجنا بالرعيل الأول أمثال عمر بن الخطاب الذي قال فيه رسول ملك الفرس حين رآه نائماً تحت الشجرة دون حراسة:
- حكمت، فعدلت، فأمنت ، فنمت!...

قلت لوالدي:

- وأدركت اليوم سر تعمد الحكام في نشر الاعتقادات الساذجة وتشجيع الترهات...فقد شاع في تونس أنَّ من يُرمى بالحجارة فهو من الصالحين!... وتطبيقاً وتجاوباً مع هذه الترهة أمر الملك ببناء زاوية

جميلة جداً لأحد المجاذيب يسمى ((سيدي الداهي)) لأنه كان يمشي في الأزقة عاري الرأس، حافي القدمين ويرمى بالحجارة!...

وتنتشر على الأرض المحيطة بتونس مدن عريقة قديمة مثل قرطاجنة، ونابولي، وكمرت، والمرسى، وإريانة، والحمامات وإهريقلية وسوسة، والمنستير، والمهدية، وصفاقس...

وقد جدد العرب بناء عدد منها، وهدم الأعراب عدداً آخر، وحدُّوا من اتساع ما تبقى...ويعمل سكان هذه المدن في الزراعة وبعض الصناعات والصيّد...ويشترك الجميع في الأنين من وطأة الضرائب التي تجبى لبلاط الملك وملذاته....

....

سفارة القسطنطينية

اتجه بنا الأسطول من حلق الواد مقلعاً نحو الشرق، بينما كنت مشدوداً إلى لحظات العاطفة المتألمة على فراق الأهل والأحباب، واستقبال غيب لم يسعني إلا التسليم بقدره...

وتختفي الأيادي الملوحة بالوداع، وأخذ الأسطول يبحر في الأعماق حتى تلاشى كل أثر للبر، ولم نعد نرى سوى زرقتي البحر والسماء...وبات علينا ونحن مشبعون بهواء البحر الطيب أن نعيش سحر البحر، وتكسر أشعة شمس الضحى على صفحة مائه المتموج...

استمعت من البحارة إلى مغامراتهم، ومقامراتهم، واعترافاتهم... كانوا بسطاء في أحاديثهم، صادقين في ما يقولون عن النفس الانسانية دقيقين في وصفها في حالات الضعف والقوة...

مضوا يقولون: إنْ اشتدت بنا عاصفة البحر، وهاجت علينا أمواجه أو هجم علينا سمك القرش وبتنا أمام مواجهة موت محقق لا محالة أحسسنا بضعفنا وضآلتنا فلا يسعنا لحظتها إلاّ أنْ ندعو الله مخلصين، معترفين بذنوبنا، طامعين في غفرانه، ونجاتنا....حتى إذا وطئت أقدامنا البر أوزالت عنا المخاطر نسينا ما كنا فيه من خوف والتماس نجاة من الرب، وأخذنا نتسابق إلى ملذاتنا...

لم يكن ليعنيهم في شيء حديث معارك البحار، وتاريخ حروبها، لكنهم يولون مطاردات الأساطيل العثمانية للأساطيل البرتغالية اهتماماً بالغاً لصلة ذلك بصراعهم مع القراصنة...فاستمعت إلى ما يقولون وهم يصفون عظمة الأسطول العثماني، ودوره في حماية ديار الإسلام، وشطآنها ومراسيها...

لم أعانِ دوار البحر، ولم تفزعني أهواله، ولعل مالاقيته من الأهوال وواجهته من الأخطار طيلة أسفاري كان قد أكسبني الصبر والتحمل...

أخذت أسرح ناظري في صفحات تاريخ من جاب هذا البحر ممن كانوا رسل عمران، أو نذر دمار...

مخرت عبابَ هذا البحر أساطيلُ الفينيقيين حاملة على متنها الحروف الأبجدية وأسباب العمران إلى مناطق أقاموا فيها مدن جنوة، والبندقية وقرطاجنة، وشلاً، واكتشفوا مناطق أخرى مثل شبه الجزيرة

الأندلسية التي رأوا في برها الأرانب فأطلقوا عليها اسم ((أيبيريا)) أي بر الأرانب...

وحمل هذا البحر أساطيل الروم، وهي تصول وتجول تؤسس مدناً، وتهدم أخر، وتحمل جيوش الامبراطورية الرومانية خلفاً للإغريق وتخوض حروبا مع آخر الفراعنة، ومع (هاني البال) حتى جاءت امبراطورية بيزنطة، فكانت حروب المواجهة بينها وبين جيوش الفتح العربي الإسلامي بدءاً بتأسيس أول أسطول بحري حربي، خاض به المسلمون معركة ذات الصواري بقيادة عبد الله بن أبي السرح في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم ماتلا ذلك من تطور للأسطول الحربي الاسلامي في العهود الأموية والعباسية والفاطمية والأيوبية والمملوكية التي خاضت حروباً بحرية في سجالٍ عنيف مع أساطيل الصليبيين التي تدفقت بجحافل الفرنجة على سواحل سورية وفلسطين...

ويبسط الأسطول العثماني اليوم أجنحة قوته على هذا البحر، وما اتصل به من بحار تفر إليها أساطيل البرتغاليين.

وفي عرض البحر، وفي جو مفعم بالأمل، شرعتُ في نظم القصيدة التي سألقيها في حضرة السلطان سليم...

قرأتها على رفيق المهمة صديقي هارون الذي استحسنها، وأمّن على معانيها ومقاصدها مبدياً إعجابه بقوله:

- إننا قادمون إلى سلطان فتي شديد، تعوّد سماع المديح، ولم يغلب على قصيدتك إلاّ حديث القوة وواجب الأخوة، وليس فيها ملق ولا تزلف، ولا وقعت في شباك البكائيات والمرثيات التي اصطبغ بها عصرنا...

....

ويقترب الأسطول من الساحل الشرقي لبحر مرمرة، فنلتقي أسطولاً تجارياً لعرب الاسكندرونة كان لتوه تعرض لأعمال قرصنة، فأسرعتْ إثر استغاثة أصحابه بعض الحاميات العثمانية لتعقب القراصنة....

أعجب صديقي هارون بما رأى وقال:

- ألا ترى أنَّ إخوتنا في المشرق أفضل حالاً منا في المغرب...ينعمون بحماية دولة قوية، فلا يقلقهم قراصنة البحر، ولا هجمات الأعراب وربما ولا جور الحكام!...
- أنت في عرض البحر لا ترى، ما على البر..فالأمر في بلاد المشرق أَمَرٌ مما نحن فيه في أمور، ومتشابه معنا في أمور...فقد وصل الأعراب في المشرق إلى سدة الحكم في معظم الإمارات، وانهار بوصولهم إلى الحكم نظام المدينة، وتمكن من حولهم من الشعوبيين والباطنيين من الزّحف إلى الدَّاخل...
- المعروف أن الفتوحات والزّحف لكسب المزيد من الأمصار إلى رقعة الإسلام أما أن يكون الزحف إلى الداخل فأمرٌ غريب، لا يصنعه إلاَّ شعوبي أو باطني...فمن يا ترى أتى هذا الأمر؟
- إنه الشاه اسماعيل الصفوي الذي ظهر في فارس ثم أخذ يزحف على بغداد، وبلاد الأناضول، وقد بلغ به الحقد أن يتحالف مع ((البندقية)) ضد العثمانيين...وقد نسج على منوال الفاطميين الذين زحفوا قبله من بلاد المغرب في اتجاه المشرق حتى استقروا في قاهرة المعز لدين الله الفاطمي، ثم أخذوا يرسلون الدعاة إلى أمصار المشرق الأخرى، وكان من بينهم الداعية الاسماعيلي حسن الصَّباح، صاحب قلعة ((آلموت)) الذي أنشأ فرقة الحشاشين الاسماعيلية...

- ولكن يقال أنه مازال في المشرق خليفة عباسي يُدْعى ((المتوكل))؟
- فعلاً، لكنه لم يعد سوى لقب مجرد من كل صلاحية، ولا يغير من الأمر شيئاً...وقد أضحت بلاد المشرق نهب الأعراب المتآمرين، وفزامة المماليك المسنين، ومشاغلة الصفويين الشعوبيين، وتهديدات البرتغاليين... وليس في الساحة إلاَّ العثمانيون يتعقبون البرتغاليين، ويصدون توسع الصفويين...وتعلم أننا قاصدون القسطنطينية مهنئين السلطان سليم الأول بالنصر الحاسم الذي أحرزه ضد جيش اسماعيل الصفوي وإخماد اضطرابات جماعة ((قيزلباش))، وتمكنه من وضع حدٍّ للتحالف مع الأعداء، فضلاً عن تقدمنا نيابة عن ملوك المغرب في طلب الحماية من هجمات البرتغاليين والأسبانيين، وبحث مأساة الأندلس...
- ولكن أتعتقد أنَّ السلطان سليم قادر على نجدتنا، والأمة كلها تتجه إليه تطلب نجدته في آنٍ واحد معاً؟...فهذا شريف مكة المكرمة، اقترح إرسال وفد إلى القسطنطينية لحماية البحر الأحمر، وساحل الحجاز من هجمات البرتغاليين، وإنْ كان السلطان المملوكي ((قانصوا الغوري)) قد منع ذهاب الوفد...
- لا أشك في قدرته، فقد قام بتحديث الجيش والأسطول، واستعاد الهيبة الإدارية والحربية التي عرف بها والده ((بايزيد)) وجده ((محمد الفاتح))، وتمكن من وضع حدٍّ للإمبراطورية الايرانية بعد أن سجن وأعدم نحو أربعين ألفاً من أنصار الشاه اسماعيل الصفوي..ثم إنه ليس جديداً على القسطنطينية أن يطلب منها المغرب الحماية....فقد سبق أنْ تمّ التحالفُ بين القبائل البربرية في بوادي الجزائر، والقبائل العربية في طرابلس

مع العثمانيين، وتمركز الأخوان القائدان التركيان عروج وخير الدين في حصن جيجل، ثم نقل عروج قاعدته إلى الجزائر كما تعرف...

- حسن ما قلت، ولكني أتوقع أنْ يقوم بنجدة الأراضي المقدسة أولاً وقد يؤدي دخوله منطقة نفوذ المماليك إلى احتدام يشغله عن نجدتنا.... ولكن دعني أسالك بحكم صلتك بالمشرق.... كيف كان وصوله إلى قيادة السلطنة العثمانية؟
- قيل أنه وهو أمير كان يطالب بعملٍ قوي ضد اسماعيل الصفوي حتى كسب إلى صفة تأييد الانكشارية، وإذْ تقدم السن بوالده وأنهكه المرض، ولم يعد في وسعه السيطرة على الموقف، أجبره ابنه سليم على التنازل من السلطنة، وحل محله...ثم أخذ يتخلص من إخوته الذين نافسوه على العرش الواحد بعد الآخر .
- إذاً فقد بدأ سلطانه بالعنف والدم!
- لا تذهب بعيداً ، وتتعجل في إصدار الأحكام من مجرد حديث مقتضب بيننا، فهناك مآثر حميدة لم نتطرق إليها...وعلى كلٍّ فإنه لا يختلف عن أولئك الذين ولدوا للفتح والسلطان من بني أمية وبني العباس، وإني لأتغاضى شيئاً ما عن سيف السلطان طالما اقترن بجهاد الفتح.
- قد أتغاضى عن تبريرك، ولكني لا أمتلك وإياك أن نغير في شريعة الحق، ففي ظل الهزائم والانكسارات يغدو من يصنع نصراً، أو يحقق فتحاً محل تعظيم الناس له، ومحط أملهم وعين رضاهم فلا يرون فيه عيباً، وقد جاء العثمانيون لحظة سقوط الأندلس، وتمزق بلاد المغرب، فبدا سلاطينهم شموعاً في ليل الانحطاط!!..

قد يكون رأيك في سلاطين بني عثمان صحيحاً لو استثنينا منهم القائد العظيم محمد الفاتح جدّ السلطان سليم الأول، فإنه أكبر من شمعة، وأعظم من سلطان، فقد استحق امتداح الرسول عليه الصلاة والسلام : ((لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش))، وهو القائد الذي لم يخلط بين جهاد الفتح وبين سيف السلطان، وقد أثر عنه أخلاق التواضع حتى أنه كان يصلح بنفسه حذوة حصانه، وحين حقق الله على يديه فتح القسطنطينية، دخلها ساجداً لله، محافظاً على حرماتها، حائلاً دون تعريضها لأعمال النهب...وتعلم أنّ فتح القسطنطينية شيء عظيم فقد توالت محاولات فتحها في الصوائف والشواتي منذ عهد معاوية بن أبي سفيان الذي جهّز جيشاً بقيادة سفيان بن عوف، وخرج معه عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وأبو أيوب الأنصاري، وأمَّرَ على الجيش ابنه يزيد، واقتتلوا مع الروم برًّا وبحراً، وسقط منهم شهداء كثيرون من بينهم الصحابي الجليل ((أبو أيوب الأنصاري)) الذي دُفن خارج أسوار القسطنطينية، ثم كانت المحاولة الثانية في عهد الوليد بن عبد الملك الذي شرِع في إرسال الحملة، ولكن سرعان ما وافته المنية، فأنفذها من بعده أخوه الخليفة سليمان بن عبد الملك الذي رابط في مرج دابق، وجعل مسلمة بن عبد الملك على رأس الحملة، ففتح القرى والمدن حتى بلغ القسطنطينية، وعبر بحرها بالأساطيل الشامية والمصرية، وشدد عليها الحصار حتى أوشكت على السقوط لولا أن ((ليو الأزوري)) الذي كانت متحالفاً مع الحملة قد نصب نفسه في اللحظات الأخيرة امبراطوراً على بيزنطة بدلاً من امبراطورها المكروه من شعبه، واستدرج الأساطيل الاسلامية ليوقعها تحت لهيب النار الإغريقية...وهكذا ظلت المحاولات

مستمرة حتى بلغ عددها اثنتي عشرة محاولة شارك في آخرها من العثمانيين السلطان بايزيد الأول، والسلطان مراد الثاني، حتى كللت بالفتح المبين على يد ((محمد الفاتح)).

- حقًّا إنَّ محمد الفاتح قد غير مجرى التاريخ، ويعتبر المؤسس الحقيقي للخلافة العثمانية، ومازلت أتذكر أحاديث آبائنا عن فتح القسطنطينية، ونحن في وضع الاكتئاب في المغرب، فتشرق قلوبنا بالأمل، وخاصة عندما تميَّز البابا من الغيظ، واستصرخ الكنائس العالمية شاكياً ومؤلباً على القائد محمد الفاتح الذي قال عنه أنه زيَّن مدينة القسطنطينية بالزهور والورود والرياحين بعد أنْ كانت متحف الأيقونات والأقانيم!...
- لقد حاول البابا أن يشوه الحقائق، وما درى أنَّ التاريخ منصف وسيعيب عليه وعلى التَّعصب الكاثوليكي سوء أعمالهم في الأندلس، وهناك فرق كبير بين فتح القسطنطينية، وبين سقوط غرناطة...تماماً كالفرق بين قيام حضارة وبين انهيارها...

فقد دخل القائد محمد الفاتح القسطنطينية وهي تعاني من انحطاط وبؤس لعهود طويلة، لم تقو على إصلاح الخراب الذي أحدثته الحملة الصليبية الرابعة للافرنجة، فكان أن قام الفاتح بإصلاحها، وأبقى على المسيحيين يمارسون حرياتهم الدينية، ويقومون بإدارة ملتهم تحت سلطة زعيمهم الديني المعترف به رسمياً من السلطان، وظل البطريرك على رأسهم، ولمحكمته حق النظر في شؤون كل اليونانيين الأرثوذكس الموجودين في الإمبراطورية ويتمتع البطريرك برتْبة باشا بثلاثة أطواغ، وهذا بخلاف ما صنعه الملكان الكاثوليكيان ((فرديناند وإيزابيلا)) في مسلمي الأندلس.

- أعلم أن القائد محمد الفاتح، استعان بالصناع والمهرة من مختلف أنحاء دولة الخلافة لتحسين المدينة، وترميم مساكنها، وتشييد المباني العامة، وبناء السَّراي واستحداث الأسواق، ونشر دور العلم والصنائع ...ولكني أسمع نفراً من النصارى يشكون حال كنيسة أياصوفيا التي حولها القائد محمد الفاتح إلى جامع، ويقولون لا فرق بينه وبين القائدين الكاثوليكيين في غرناطة في اعتداء الطرفين على حرمات المعابد وتغييرها..
- هذا محض افتراء، وحجة واهية، ولا مجال للمقارنة...

فدخول غرناطة لم يكن عنوة، بل جاء نتيجة مفاوضات أسفرت عن تحرير معاهدة نصت على الإبقاء على دور العبادة وحرية التدين...لكن الملكين سرعان ما نقضا العهد وغدرا أهل المدينة وعبثوا بهم وبدور عبادتهم...بينما دخول القسطنطينية تمَّ نتيجة حرب دائرة لم يذعن فيها أباطرة بيزنطة لأيّ معاهدة أو اتفاق، فدخلها المسلمون عنوة، وتعلم ما يعنيه دخول أي مدينة عنوة...أن تصبح مباحة أمام مقتحميها..ومع ذلك فقد تجنب جيش محمد الفاتح إلحاق أي ضرر بالسكان والمدينة بل عملوا على تأمين أهلها وإبقائهم على دينهم، وجعلوا المدينة ملاذ المضطهدين...ولو أنّ دخولها تم دون حرب لظلت كنيسة أيا صوفيا كما هي، شأن كنيسة القيامة والمهد في بيت المقدس التي دخلها عمر بن الخطاب دون حرب، فأبقى على كنائسها وصلبانها...

- لستُ بحاجةإلى إقناع، غير أني أردتُ أنْ تشاركني تفنيد دعاوى الحقد الذي ينفث به بعض أدعياء النصرانية..وإني لأعلم مدى حب البلقان الأرثوذكس للقائد محمد الفاتح الذي انطلق من القسطنطينية لتحريرهم من طغيان الإقطاع، وتوحيدهم مع الأناضول المسلمة في دولة واحدة

وشعورهم بالمساواة في الحقوق والواجبات، فقد تعامل محمد الفاتح مع رعايا الدولة العثمانية من مختلف الأصناف والأجناس على صعيد المساواة، وحمى الفلاحين من استغلال السلطات المحلية، ولم يطالبهم بالعمل في أرض ((السَّباهي)) أكثر من ثلاثة أيام في العام، خلافاً لما كان عليه قانون ((دوسان)) الذي يطالب الفلاح بالعمل يومين في الأسبوع عند سيده الإقطاعي، الذي يسلبه حريته، وجهده، وقوته.

* * * * *

ونقترب من مرفأ ((غَلَطَةْ))، وقد تجلت المدينة عن جمال أخاذ توشت به على سبع رُبىً وتباب، تعلوها المآذن السامقة والقباب...وهي بجمالها المهيب تُشرف من عليائها من جهة الغرب على بحر يشكل تقويرة ((القرن الذهبي))، وفي الشمال مضيق البوسفور الذي يربط بين البحر المتوسط والبحر الأسود، ...إنها تأخذ شكل أنفٍ جبلي يلتقي على عليائه ألوف البشر منذ آلاف السنين...

....

في حاضرة الخلافة العثمانية:

نحن الآن في حاضرة الخلافة وأمان السلطان، نأخذ سبيلنا إلى الخان، وسط جموع حاشدةٍ من رجال يعلو محياهم البِشْر، ونساءٍ يتفجرن جمالاً، غاديات رائحاتٍ مطمئنات، قدموا من مختلف حواضر الدنيا ومن مختلف الألوان والأديان...قصدوا هذه المدينة الوحيدة من بين كل الحواضر، بقلوبٍ مفتوحة، وعقولٍ واعية وفتحت أمامهم كل

الأبـواب...ارتادهـا التجـار والصنـاع والمهرة وأربـاب الحـرف، وطـالبو الكسب، والباحثون عن الأمن والأمان...

تجد في ساحاتها الشاميين والمصريين يعملون في البناء والخـزف، والإيرانيين يشتغلون بتجارة الحريـر، والصربيين والملدافيين يتفنّنون فـي صناعة الأجبان والبسطرما، والغجـر يصنعـون أوانـي الحديـد، ويلاعبـون الدببة...

وإليها تجلب كميات مهولة من المنتوجات الغذائيـة مـن بـلاد بعيـدة فمن مصر يأتيها الأرز والقطن والسكر والقمح، ومن جزيرة العرب تأتيهـا الخيل، والقهوة، والتوابل، ومن فارس يأتيها الحرير والزرابـي، ومـن آسـيا والشرق الأقصى تأتيها اللآليء والأحجار الكريمة وكـذا الحريـر والتوابـل، ومن أوروبا تأتيها المنتوجات الصناعية وقطع النقود من ذهب وفضة...هذا فضلاً عما تغدقه عليها البلاد المحيطة من خيرات أرضها، فمن الأنـاضول وتراسيا تأتيها الحبوب والغلال، والخيـل...ومـن بـلاد البحـر الأسـود تأتيهـا اللحوم والحبوب والعسل، والصوف والخشب والمعادن...

إنها مدينة الخير العميم، والرزق الرغيد الذي لم أصادف مثلـه قـط في أي مصر أو مدينـة...وهـي كخليـات النحـل دائبـة النشـاط والحركـة، لا يشغلها إلاّ ما تقدمه من إنجاز، وتضيفه من جلل الأعمال، وإلا ما ينشغل به التاجر في اتساع تجارته، والصانع في براعة فنه، وطالب العلم في اكتساب العلوم والمعارف...وما سُمِع حديثٌ بين اثنين إلاّ كان عن فتوحات جديـدة، أو نبأ عن استسلام أسطول برتغالي أو هروبه....

ولكن حديثاً واحداً بات يشغل الجميع، ويعلمه القاصي والداني وهو حديث حملة الربيع التي يتهيأ لها السلطان سليم إلى بلاد الشام لحسم الخلاف مع المماليك..

* * * * *

في سراي السُّلطان:

بعيداً عن سكنى المدينة وجلبة أسواقها، يقوم قصر السراي الجديد في الطرف الصخري المشرف على القرن الذهبي والبوسفور، وبحر مرمرة، وسط حدائق غناء ذات أفنان كثيفة الظلال وأسوار عالية حصينة...

خففتُ إلى المقابلة مبكراً، مسرعاً ، أطوي بقدمَيَّ أحياءَ المدينة العديدة المتنوعة ماراً بحي ترس خانة، وطوب خانة، وكاغد خانة وغيرها من الأحياء الصناعية وميدان السباق وجامع بايزيد، وشيئاً فشيئاً حتى اقتربت من السراي...وقد علمت أنَّ للسراي ثلاث بلاطات، تفصل المصالح الخارجية، عن القصر الرسمي، والأخير عن الأجنحة الخاصة بالسلطان...وعلمتُ أنَّ دخول البلاط الأول لا يحتاج إلى رخصة، وبإمكان الناس أيًا كانوا تخطي هذا الباب والذي يعرف باسم (بابي همايون)، ثم إذا كان دخول البلاط الثاني وهو عبارة عن بوابة عالية من الرخام الأبيض والأسود كان السكوت واجباً...وقد كان في انتظاري عند هذا الباب أحد موظفي المراسيم السلطانية والذي أخذتُ أحاكي خطوهُ، وصمتهُ، وقد اصطف على جانبي البلاط جنود الانكشارية والخيالة الذين يقرب عددهم

من الثلاثة آلاف، وهم على كثرتهم لا تسمع لهم ولا لخيولهم المطهمة نأمة، ولا ترى منهم حركة، ولا يرف لهم طرف... حتى ليساورك الشك في ما ترى ..أأحياءٌ أم تماثيل منحوتة؟ أم رسوم نقشت على الرخام؟ حتى إذا كنا وسط فناء فسيح مزدان بالزهور والورود تنفست الصعداء، وأحسست بالحركة والحياة داخل هذه الحدائق وقد استجابت لرقائق النسيم بتمايل أغصانها وشدو بلابلها، وجري نعاماتها، لكن مرافقي أخذ يُبطئُ الخطى بإيقاع منتظم ثقيل حتى تسمَّر في موقعه هو الآخر، عندها أدركت أنني الآن في مقام حضرة السلطان، المتربع على دكة معمورة بالحرير والزرابي تتوسط ديواناً يأسر بزخرفهِ اللباب...

وبسرعة خاطفة كومضة البرق أمكن لي أنْ أنظر في وجه السلطان، وأُحدِّق في عينيه المتوقدتين...ولستُ أدري كيف أبحرتا بي في هذه اللحظة الخاطفة بعيداً إلى الشواطيء الأندلسية عند الجزر الشرقية: ميورقة، ومنورقة، ويابسة قبالة بلنسية، وعند مرفأ المرية ومالقا...ورأيتني والسلطان سليم في قصر الحمراء، وتحديداً في صالة السفراء، وهو يتلقى تهاني الفتح، ثم يتنقل بين المدن الأندلسية يعيد لها وحدتها، ويُحيي فيها العمران!!...

فهذا حالُ من غدا فرداً لاحول له إلاَّ الإغراق في الأحلام، والهروب إلى متاهات الخيال!!.. وما أفاقني من غمرتي على سرعتها إلاّ همهمته الأعجمية وقد غفرتها له طالما علّقتُ عليه أمل التحرير...

أومأ بما يفيد الإذن لي بالكلام، فالتقطت أنفاسي، واستجمعتُ كياني، واستويتُ ثابتاً، وأخذت ألقي بتؤدةٍ، وحضور، قصيدتي التي أعددتها في البحر، بينما أخذ يفتل شاربيه الطويلين تارة، ويعابث بأنامله عمامته

المشدودة على رأسه، وقد برقت من غرته ياقوتة ثمينة، وكأني به يتقصد هذه الحركات لاختبار أعصاب الملقي، وفعلاً كنت لا آبَهُ لغير التفاعل مع أبيات الشعر، حتى إذا فرغتُ كان قد مدَّ يده الخشنة القوية لمصافحتي، استحساناً لحسن الإلقاء، واستمتاعاً بجرسها الموسيقي، مؤجلاً بثقة وتقدير استيعاب معانيها لترجمان القصر...ثم خلع عليَّ بردةً من وبر الجمال، وأجزل العطاء للوفد، وإنْ كنا لغير هذا قد قدمنا، غير أني عولتُ على وعدٍ منه بقدومه فاتحاً للأندلس في بضع سنين...واستبقيت تفاصيل رسالتي المغرب وتونس لبحثها مع من كلفهم للجلوس مع الوفد.

ويأخذ الحديث فسحته ويستوفي غرضه، وقد استبنتُ منهم أنَّ الوجود العثماني في مياه الغرب الإسلامي وسواحل بلدانه لا بد أن يسبقه انضواء المشرق تحت الراية العثمانية، فهم يسعون حالياً إلى أنْ يضيفوا إلى دولته الإسلامية الكبرى في الأناضول وشرق أوروبا بلدان الخلافة العباسية والدولة المملوكية بضم العراق والشام ومصر والحجاز...وعليهم أن يلبوا نجدة إخوانهم خانات تركستان المجاورة لمنع الروس من احتلال حوض الفولجا حتى لا يقطعوا على الحجيج اتصالهم بالأراضي المقدسة عبر القرم....وهم في الوقت نفسه يخططون للزحف المتدرج على السواحل الشمالية للبحر المتوسط كيما يغدو بحيرة إسلامية، وتراهم يجوبون بأساطيلهم مياهه ليل نهار يتعقبون قراصنة روما، ويستولون على جزره واحدة إثر أخرى، وتبلغ أساطيلهم مداها في المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر يطاردون الأساطيل البرتغالية الغازية...إنَّها مهام جسيمة، وأولويات لا يمكن تجاوزها، وهذا ما عناه السلطان في بلوغه الأندلس في بضع سنين!..

قلت لصحبي وقد عادت إليَّ الحسرة:

هكذا يكون وضع من جعل مصيره بيد غيره...إنَّ العثمانيين بناة دولة لها أولوياتها، ولستُ متفائلاً في أنْ يصلوا إلى الأندلس في بضع سنين، فليس السلطان سليم هو السلطان محمد الفاتح، ولِلّه الأمرُ من قبلُ ومن بعد...

وجعلتُ أغالب الاكتئاب أمام الطرف العثماني، وأتساءل ما إذا كان الإنشغال في حسم الصراع مع المماليك وضم بلدان الخلافة العباسية الذي لن يتجاوز بضع سنين كما يزعمون سيكون محل رضى وتسليم من الشعوب، وما إذا كان العنف هو الوسيلة الوحيدة للحسم بين أبناء الملّة الواحدة؟

رد أحدهم متسائلاً:

- ولِمَ لا؟

قلت : إنَّ شائعات المماليك والصفويين التقت في التشكيك بالوجود العثماني، وجعلوا يقولون إنه وجود غزو وسيطرة واستيلاء، واستبداد...وقد يدفع ذلك إلى المقاومة التي قد تحول دون الحسم.

عاد متسائلاً:

- ولكن ماظنك بحكام مزقوا دولة الخلافة الإسلامية، وأضعفوا ما تحت أيديهم من البلدان؟ أليس ذالك كافياً لإزاحتهم من الطريق؟

قلت : لا شك أنهم يرون في العثمانيين حكاماً منافسين، والبديل المنشود في العالم الإسلامي، ومن ثم كان لابد من بث شائعاتهم التي يحاربون بها العثمانيين.

ردَّ بثقةٍ قائلاً: إنَّ الشائعات لا تسقط الدول القوية، ولا تحول دون اتساع أقطارها، وهي تواجه بما هو أقوى منها، فالقائد محمد الفاتح سبق أن خاطب سلطان المماليك بقوله : ((إنَّ مسؤوليتك أنْ تحفظ طرق الحج مفتوحة للمسلمين، وواجبنا هو مدها بالغزاة الفاتحين))...ويعلن السلطان سليم هذه الأيام على العرب أنّه قدم ليحررهم من النير المملوكي، ولحماية العالم الإسلامي..ألا ترى أنه محق في قوله في زمن انزوى فيه مماليك البرجية عن هموم أمتهم، وضعفوا أمام قراصنة البحر وأساطيل البرتغاليين الذين يهددون أمن البحر الأحمر، وجدة ومكة؟!..

قلتُ: رحم الله مماليك البحرية أمثال السلطان قطز والظاهر بيبرس الذين وقفوا في وجه التتار، وانتصروا عليهم في معركة ((عين جالوت))...تبسم محاوري وانشرحت أساريره وقال : إنَّ مماليك البرجية من أصول شركسية، ومماليك البحرية من أصول تركية!!..

قلت له : أما هذه فلا تعني عندي شيئاً، وما حارب السلطان قطز إلا جهاداً في سبيل الله، ومازالت صيحته ((واإسلاماه)) تسقط كل الدعاوى الواهية...ثم استويتُ أخاطب الجميع قائلاً:

- لقد منَّ الله على هذه الأمة أنْ جعل منْ ينافح عنها، ويزيد في أقطارها قادة وشعوباً، تنوعت أجناسها وتوحدت غاياتها وصدرت جميعها عن عقيدة التوحيد الواحدة...

فكما شرف الله العرب بحمل رسالة الإسلام إلى شعوب الأرض انضوى معهم في أمة واحدة أجناس وأعراق مختلفة كان منها مشاركون

في الذود عن حياضها، وفي اتساع رقعتها...أمثال طارق بن زياد ويوسف بن تاشفين، والمنصور الموحدي، وصلاح الدين الأيوبي، وقطز والظاهر بيبرس، ومحمد الفاتح، يحذون حذو من سبقهم من الرعيل الأول من الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام، والقادة العظام من عدنان وقحطان، ممن انتموا إلى أمة القرآن ورسالة الإسلام، واندرجوا في ما عنته الآية الكريمة ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله**﴾.

سُرَّ الجميعُ لما سمعوا، وأمَّنوا على ما قلت بكلمة الاستحسان التركية: عفارم، عفارم.

وأردف أحدهم قائلاً:

ومنذُ اللحظات الأولى لتكوين أمة القرآن آمن بالرسول عليه الصلاة والسلام نماذج من مختلف الأعراق والألوان والطبقات لبّوا نداء الحق لحظة لاقى الرسول الكريم العنت والصدود من قريش، ومن هؤلاء بلال الحبشي وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وغيرهم من المستضعفين والمضطهدين والموالي، والعبيد الذين غدوا قوة هائلة في كيان الأمة.

قلت منوهاً إلى ما دار بيننا من حديث:

- لاشك أن الجميع يشاركني الرأي في استهجان الصراع بين أحفاد القادة العظام، وبناة النواة الأولى لأمة القرآن، وما أظن استعادة الأندلس مشروطة باحتدام المعارك بين أبناء الأمة الواحدة، وإني قادم إليكم من المغرب الإسلامي الذي مزقته الإحن والأحقاد الداخلية، وأسقطته بين براثن الأعداء المتربصين.

حملة السلطان:

- إنَّ السلطان يرمي إلى وحدة الأمة، وعودة الخلافة واستمرارها ونشر لوائها في الخافقين، ساحقاً كل من يقف في طريق التوحيد، أو يوقد ناراً للفتنة.
- ذاك ما نرجوه، ونرجو لتمامه أن نتأكد من قيام دولة قوية ذات كيان متماسك، وغير مصطنع، يتأسس على التعاون والأُخُوة، وتجنب سفك الدّماء، واحترام العقل والإحتكام إلى شرع الله، وعدم الانشغال عن الفتوحات بالصراعات الداخلية.

....

كنتُ أتحدث، وأتمثل أمامي ما تعنيه حملة الربيع من فتنة وما تنطوي عليه من عُنف وقهر، ودماء وأحقاد، حين تلتقي الجيوش الإسلامية في مواجهة خاسرة ضد بعضها بعضاً...

وخرجتُ من اجتماعنا أرتدي على غير إرادة مني وشاح الكآبة مستعجلاً سفر الوفد إلى الاسكندرية عسى أنْ نسهم في الحيلولة دون التقاء الجيشين.

....

زيارة أرض الكنانة:

لم يكن بودي أن أفارق القسطنطينية هكذا على عجل، لولا حرصي على تلافي أخطار فتنة كبرى توشك أن تشتعل بين العثمانيين، وبين

المماليك، وليس أوجب على المسلم من أن يبادر إلى إخماد مثل هذه الفتنة...فسارعتُ وصحبي إلى السفر بحراً من ميناء ((غَلَطة)) في طريقنا إلى الاسكندرية....وودت ساعتها لو كانت للسفينة أجنحة الريح فتحملنا قبل أن يتحرك السلطان الأشرف قانصوة الغوري الذي شاع في الباب العالي أنه عازم على الخروج بجيش جرار من مصر والشام...

وفي عرض البحر حاولت أن أستبق الأحداث السوداوية، فأكتب من مداد الماء وزرقة السماء مواثيق أخوة، وصفاء، وأنسج من فسحة الأفق ثوباً من التسامح والأمل العريض، لكني رأيت البحر عند العودة مركباً صعباً يختلف عن بحر الآمال والأحلام...وأحسست أنَّ السفينة كانت محمولة على كفّ عفريت، تشُق طريقها بصعوبة بالغة، وبطء بشديد، مترنحة وسط الأمواج الهائجة...

قلت لهارون:

- أرانا لا نتقدم إلاّ لنعود إلى نقطة البدء، وما أحسبنا إلا دائرين في .حلقات مغلقة...

ردّ علي صاحبي مخففاً ما نحن فيه:

- قد تكون السفينة بطيئة السرعة نوعاً ما ..لكن استعجالك الوصول، يصور لك أنَّ الحركة لا تكاد تدرك، وأننا ندور حول أنفسنا...

ثم انتقل بحديثه إلى القول:

- وهل الحياة إلا جملة من دوائر؟! كلما اكتملت دورة بدأت دورة جديدة...وإذا كان حظنا أنا نسير اليوم في دائرة النكد، لكننا لم نُخص بهذا النكد دون سوانا، وتاريخ الأمة حيٌّ متحرك، فكما أنه يسجل الفتن

والوقائع والطبقات فإنه من جانب آخر يُسَجل السمو والرقي والفكر، وازدهار العمران، وأسباب القوة والمجد.

ثم ما الذي يحزنك إزاء دولة المماليك التي أصبحت خائرة القوى، لا حول لها ولا طول أمام استهتار البرتغاليين؟!..

قلت : ليس هذا ما يحزنني...إنما الذي أنا وأنت بصدده أننا حريصون ألاَّ يلهينا اقتتال قادة الأمة وشعوبها عن وحدتها وقوتها وهي مجتمعة في مواجهة أعدائها...صحيح أنَّ المماليك أضحوا ضعافاً ..لكنهم سيقْوَوْنَ بإخوتهم العثمانيين إذا ما اتحدوا...

– ولكن العثمانيين يعتقدون أنَّ وحدة الأمة بوحدة قيادتها...

– لا يمنع أنْ تتحقق وحدة القيادة للعثمانيين، ويبقى المماليك على ملكهم على أنْ يرتبطوا بالسلطان العثماني مباشرة...

– ولكن حب الزعامة شهوة لا تقاوم....وإنه ليصعب على المماليك أنْ يسلموا للعثمانيين بالقيادة وقد جاءوا من بعدهم...

– أعرف ذلك، ولكن مواجهتهم بالحقيقة خير من دخولهم في اقتتال....

– إذاً فلنفكر في هذا السبيل، ولا ندع لليأس والأسى سبيلاً إلى نفوسنا.

ومضينا نقلب في الذاكرة صفحات الفقه السياسي، وقد كان في ريادة المشرعين لمثل هذه الأوضاع الإمام أبو الحسن الماوردي صاحب كتابي : الأحكام السلطانية، وقوانين الوزارة...والكندي صاحب كتاب الولاة والقضاة، وعلى أساس من تشريعاتهم ساد نظام ((الإلتزام)) حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية، فكانوا يقطعون الولايات على أنّ يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً من المال...وسار سلاطين السلاجقة على نفس المنوال حيث كانوا يسندون إلى بعض مماليكهم الذين يظهرون كفاءة خاصة أو صفة

حربية ممتازة حكم إقليم من أقـاليم الدولـة السـلجوقة ويعهـدون إليـه بتنشـئة أحد أبنائهم...

....

وصَلْنَا وَجُلْنَا في ساحات الفقه السياسي، وما درينـا أننا ونحـن فـي عرض البحر إنمـا نخـوض فـي أمـر سبق فيـه السيف العـذل علـى أرض اليابسة، فما أن وَصَلْنَا مرفأ الاسكندرية حتى صُدمْنَا بنبأ تحـرك السـلطان الأشرف قانصوة الغوري بنفسه على رأس جيشٍ جرار إلى بلاد الشام.

....

وإذْ تأكدت لنا صحة النبأ كان من المحتم علينا أن ننتظـر فـي بـلاد مصر حتـى تتجلـى الأمـور، وإذْ ذاك يكـون فـي مسـتطاعي أنْ أذهـب إلـى أرض الحجاز لأداء فريضة الحج في السنة القادمة

....

وندخل الاسكندرية –عاصمة مصـر البحريـة– مـن مرسـى الـبرج ذي تقصده سفن حوض البحر المتوسـط ومـن فلانـدرا وانجلـترا وبسـكاي لبرتغال ويتصل به تجار طرابلس وجربة وقسنطينة وتونس..وتزدحم فيـه اصة السفن التركية واليونانية...ويحتمي بمينائها أجمل السفن وأهمها من اصفة والعواصف..والعاملون في هذا الميناء مثال اليقظة، حتى لا تكـاد اويل القـادمين تنجـو مـن تفتيشـهم الدقيـق خشـية أن يخفـي البعـض فـي ها كمية من قطع الدنانير التي يؤدّى في هذه المدينة عنها قدر في المائة لو كانت سلعاً...

ولمدينة الاسكندرية أربعة أبواب على جهاتها الأربـع...وقـد سـرتُ واريها- ووقفت إلى جوار بـرج قديم علـى السـاحل فـي أعـلاه مـرآة

كبيرة من الفولاذ كانت تعد من عجائب الدنيا، ويروى أنَّ فيلسوفاً يدعى بطليموس هو الذي شيَّده لتأمين المدينة من العدو حيث تحرق مرآته كل سفينة تمر بالقرب منها، لكنها لم تعد صقيلة كما كانت، ويقال أن يهودياً إبان الفتح الإسلامي فركها بالثوم حتى صدئت وزال بريقها!...

واسترعى انتباهي ضريح في قلب المدينة يقدسه السكان، يقال إنه قبر الاسكندر ذو القرنين الذي يعتقدون بأنه كان نبياً وملكاً، وإليه تنسب الاسكندرية!..

قال لي هارون: أتدري أنَّ القائد الفاتح موسى بن نصير كانت هذه المدينة

بداية نهايته المأساوية حين مرَّ منها ومعه أموال الأندلس وغنائمها يريد الذهاب بها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، فطلب منه سليمان بن عبد الملك أن يتأخر في الإسكندرية طمعاً في موْت الوليد الذي اشتد عليه المرض حتى يستولي سليمان عليها.

لكن القائد موسى بن نصير لم يكترث لطلبه ومضى إلى دمشق، غير أنَّ المنية كانت قد وافت الخليفة الوليد، فاستولى سليمان على الغنائم وحقد على موسى بن نصير، ونكَّلَ به شر تنكيل حتى غدا واحداً من مستحقي الصدقة..

قلت لصاحبي: لقد كانت تلك طباعُ سليمان الهوجاء تتكرر مع عدد من ولاة أخيه الوليد أمثال محمد بن القاسم الثقفي، وقتيبة بن مسلم الباهلي، وأسرة الحجاج، إذْ نكل بهم، وحقد عليهم، وغلب أطماعه وأهواءه الخاصة على ما سواها من الأخلاق مما تسبب في عزوف الولاة فيما بعد عن الولاء والإخلاص لمن كانوا وبالاً عليهم...

....

وانتقلتُ إلى القاهرة -إحدى كبريات مدن العالم العجيبة، وَأقربها إلَى نفوس زائريها- أنتظر عودة السلطان الأشرف لأبلغه رسالة المغرب...

قدمتُ إليها والقومُ في هرج ومرج يراقبون أخبار الحرب أولاً بأول وقد حزَّ في نفسي أني وجدتُ القاهرة غير تلك المدينة التي عرفتُ في زيارتَيَّ السابقتين فقد اعتورتها ظروف قاسية غطَّت على العظمة والقوة والمنعة والصيت الحسن، وشغل الناس بالترهات، وتعرضوا لسوء الأحوال...وباء الطاعون يحصد آلاف الأرواح، وداء الإفرنجة يعطب الكثيرين من السكان أو يتلفهم، ويرزح معظم الناس تحت وطأة الأمراض الفتاكة، وعملهم قليل...ويتجمعون في الساحات العامة لأتفه الأسباب، وهم مع كل ذلك لا يزالون يحتفظون لأنفسهم بجانب كبير من الظرف والمرح.

ولشدَّ ما آلمني أني رأيتُ نفراً من صناعهم ومهرتهم يتبارون في توافه الأمور، وقد اتَّفق لي أنْ شاهدتُ احتفالاً بأحدهم وقد ألبسوه سترة من ديباج، وجعلوا يطوفون به من دكانٍ إلى دكان، مصحوباً بالموسيقيين، لأنه صنع سلسلة لبرغوثة كان يمسكها مقيدة بها على ورقة ...وكان أحد أصحابه يظهرها للناس ويجمع النقود...

وشاهدت على نفس المنوال انتصاراً آخر حققه أحد السقائين، إذْ راهن شخصاً على أنه سيحمل قربة من جلد عجل مملوءة ماء، ومربوطة بسلسلة من حديد أياماً عدة، وحمل فعلاً هذه القربة المعلقة بسلسلة على كتفه العاري مدة أسبوع، وكسب الرهان، وسار في تكريم انتصاره هذا

موكب ضمَّ مختلف المغنين، وجميع السقائين بالقاهرة ويقدر عددهم بثلاثة آلاف ...

وليت الأمر متوقف عند هذا الحد، فإنَّ جموع سكان القاهرة تنفر عقب صلاة الجمعة من كل أسبوع إلى ساحة الأزبكية لمشاهدة عدد كبير من البهلوانيين الذين يُرقِّصون الإبل والحمير والكلاب...ولست أدري أيَّ أثر تتركه صلاة الجمعة وخطبتها فيهم حتى ينقادوا للترهات والمسليات القبيحة، ومن ذلك تحلقهم حول بهلواني يرقص حماره قليلاً ثم خاطبه بأنَّ السلطان يعتزم القيام ببناء كبير تستخدم له جميع حُمُر القاهرة لحمل الجير والحجر وغيرها من الأحمال الثقيلة، فيسقط الحمار على الأرض، وينقلب رافعاً قوائمه في الهواء نافخاً بطنه، مغمضاً عينيه كأنه ميت، فيظهر البهلوان تفجعه على فقدان حماره طالباً من المشاهدين المساعدة لشراء حمار آخر، ...وبعد أن يجمع منهم التبرعات يتابع قائلاً: ((لا تظنوا أنَّ حماري مات فالشَّرِهُ يعرف فقر مولاه، فيتماوت لأشتري له علفاً بما أعطيته)) ثم يلتفت إلى الحمار، ويطلب منه أن يقف، لكنه يتململ، وينهال عليه ضرباً بالعصا وهو رغم ذلك لا يبدي أدنى حركة، فيستأنف الرجل كلامه المنمق قائلاً: ((سادتي ليكن في علمكم أنَّ السلطان أصدر المرسوم التالي: على جميع سكان القاهرة أنْ يخرجوا غداً لحضور دخوله المظفر، ويأمر جميع نساء الطبقة العليا وكل حسناوات القاهرة أن يركبن حميراً جميلة، ويطعمنها شعيراً، ويسقينها من ماء النيل العذب)) وما يكاد المهرج يفوه بهذه الكلمات حتى يقفز الحمار على قوائمه متصنعاً الزهو، متظاهراً بالسرور والبِشْر، ويتابع المهرج قائلاً: ((حقاً إنَّ رئيس الحي طلب مني أن أعيره حماري الظريف لامرأته العجوز الشمطاء)) وحينئذ يغض الحمار

طرفه وكأنه ذو ذكاء إنساني، ويأخذ في المشي متصنعاً العرج كما لو كان كسيحاً فيقول له سيده البهلوان : ((إذنْ تعجبك الشابات؟)) فيطرق الحمار رأسه وكأنه يجيب بنعم، فيتابع البهلوان حديثه قائلاً لحماره: ((هيا هنا الكثير من الشابات، فأرنا منْ أعجبتك أكثر)) فيدور الحمار مسرعاً حول حلقة المشاهدين، ويوجد من بينهم دائماً بعض النساء المتفرجات، فيختار أحسنهن ويتوجه نحوها، ويلمسها برأسه، فيصيح الجمهور على الفور: ((إيه! يا ذات الحمار)) استهزاء بالمرأة، ثم يقفز المهرج على حماره، ويمضي إلى حلقة أخرى....

وهكذا اختلط على الناس الجدّ والهزل،اختلاط مرسوم السلطان بحمار البهلوان، والدعوة لاستقبال دخوله المظفر، بما تردد من أنباء انكسار جيش المماليك في معركة ((مرج دابق))، وتجريد السلطان من شرفه وسلطته فور موته في أحداث المعركة...

وقد أصيب الناس بالفزع والخوف بعد إذ تأكدت أنباء هزيمة المماليك خاصة وأن سكان القاهرة ليس لديهم كبير شجاعة، ولا يمتلكون سلاحاً، بل لا توجد في بيوتهم سكين لقطع الجبن إلاّ بمشقة، ويشرون لحم الجاموس قطعاً جاهزة من الجزارين، وحين يتشاجرون ويتبادلون اللّكمات يُسرع إذّ ذاك المئات من النظارة، ولا ينصرفون حتى يتم الصلح بين المتخاصمين.

لقد أوقع سلاطين المماليك فيهم الرعب، وفرضوا على الجناة عقوبات شديدة القسوة تفجع السامع والناظر، فالسارق يشنق، ومن اعتقدوا أنه قتل أحداً غدراً عرضوه للقصاص التالي:

((يمسكه أحد أعوان السَّياف من رجليه، وآخر من رأسه، ثم يقطع السياف جسد القاتل شطرين، ويوضع الشطر الأعلى على كومة جير حام، وقد يستمر حياً هكذا عشرين دقيقة وهو يتكلم، وهذا شيء رهيب تفزع منه الإنس والجان، أما القتلة والثوار فتسلخ جلودهم وهم أحياء، ثم تحشى بالنخالة، وتخاط بحيث تشبه الناس في المظهر، ويضعونها على بعير يطوفون به في المدينة كلها، وهم يعلنون عن الجريمة التي ارتكبها الممثل به.

وهذا لعمري أقسى عقاب قضائي رأيته في العالم، لأنَّ المحكوم عليه يقاسي كثيراً من الآلام، ويظل حياً إلى أن تصل سكين السالخ إلى السرة فيموت...

وعلى الرغم من أنَّ العقوبة لا توقع إلا على مرتكب الجريمة، لكن الرعب الذي حل في النفوس أفزع الصالح والطالح، وشاع بين الناس سلوك التنصل من كل مسؤولية من شأنها أنْ تؤدي إلى إصلاح، أو تقويم اعوجاج، خشية أن تفضي في النهاية إلى مواجهة أو تأويل سيء من قبل حاشية السلطان الأشرف قانصوة الغوري، وذلك هو حال من أذن الله بأفول سلطانهم! بينما أخذ السلطان سليم يكتسحُ بجيش دمشق والقدس عابراً صحراء سيناء إلى مصر، معلناً لحظة اقترابه منها أنه قدم لتخليص المصريين من نير المماليك، فلم يجد منهم مقاومة سوى مواجهة ((طومان باي)) في معركة الريدانية خارج القاهرة والتي سرعان ما انهزم فيها الأخير، لكنه حاول بعد قراره مواصلة المقاومة مع عصابة لم يقدر لها الاستمرار إذْ تمَّ القبض عليه وإعدامه على ((باب زويلة))...

....

وإنصافاً للحق فقد كان ((طومان باي)) مثال القائد الشجاع، والمخلص في شعبه لكنه برز في ظرف أضحى فيه الشّعب لا يثقُ بسلطانه، ولا يجد فرصة كافية لاستعادة ثقته، وعلى الرغم من قصر المدة التي خلف فيها السلطان الأشرف قانصوة الغوري، فقد عمد إلى إحداث العديد من الإصلاحات والحدّ من الغلاء، وتأمين الناس من الفزع وانتشار السرقات واختلال الأمن، وكان حريصاً على أن يعي الناس الهيبة القائمة على الحب والثقة، لا على الخوف والرهبة، ويطلب منهم المودة والتعاون معه بعيداً عن إطراءات التعظيم الأجوف، لكنه جاء في لحظات الزمن الضائع، وواجه قدره شجاعاً بطلاً، أبياً تأكد للناس صدقه وثقتهم به لحظة إعدامه شنقاً!...

وبدت القاهرة كسيرة حزينة، خاصة وأنّ الجيش الانكشاري قام بنهب ضريح السيدة نفيسة وهي من آل بيت الإمام علي كرم الله وجهه، ويقال إنهم وجدوا فيه خمسمائة ألف دينار أشرفي نقداً فضلاً عن المصابيح والسلاسل والفضة والزرابي، وكان العامة من الناس يعتقدون بوجود عدة كرامات لصاحبة الضريح فيزورون قبرها ويقدمون لها الهدايا حتى أصبحت الصدقات السنوية تصل إلى مائة ألف دينار أشرفي، ويزعم القائمون على جمعها أنهم يوزعونها على الفقراء!...

ولئن أمر السلطان سليم بإعادة قسط كبير من هذه الذخائر إلى الضريح، لكنَّ عملية النهب أحْدَثت سُخطاً، وولدت استياءً وسط الجمهور.

وكشأنِ القائد المعتد بملكه لم تبهره قلعة السلطان المشيدة على رأس جبل المقطم بمظاهر جمالها وأبهتها، وأسوارها الشاهقة المتينة، وما يكتنفها من قصور بديعة يعجز الواصفُ عن وصفها وما فيها من قطع

المرمر مختلفة الألوان، والسقوف المكسوة بالذهب والنوافذ المزدانة بالزجاج الملون، والأبواب الخشبية المنقوشة بفن رائع، والمموهة بالذهب....

وقد أمر السلطان سليم بحذف الولائم الرسمية التي كانت تقام فيها وكذا كان أمرهُ بإلغاء استقبال السفراء والمراسم الكبرى التي كانت تجرى فيها...

لكن مدينة عظيمة كقاهرة المعز وفسطاط عمرو بن العاص، ما كان لقائد طموح يخطب ود العرب أن يدعها حزينة أليمة...فسرعان ما استعادت مظاهر عظمتها التي أوشكت ان تتوارى لحظة أفول عصر المماليك، فالقاهرة تظل تتحدى الظالمين، وتقارع الطغاة..وتبقى برغم عوادي الزمن محط آمال الأمة، ومواطن العمران...

وقد تذكرت ما تناوله المقريزي -ابن القاهرة- في كتابه ((إغاثة الأمة بكشف الغمة)) عن تاريخ المجاعات التي نزلت بمصر من أقدم الأزمنة حتى عام تأليف كتابه ٨٠٨هـ، ١٤٠٥م حيث لم يكتف بالحديث عن المجاعات والطواعين وارتفاع الأسعار بل تناول الأسباب التي تؤدي إلى ما ينزل بالناس من هذه المحن والشدائد...وَعَزَا ذلك إلى سوء تدبِير الزعماء والحكام، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد!!...

وإنْ هي إلاَّ أشهر قليلة حتى عادت أسواق القاهرة إلى ماضي ازدهارها..وبحكم انتمائي إلى مهنة التجارة فقد أخذت أجوب أسواقها، ومن ذلك زقاق التجار، والذي يمتد من باب النصر إلى باب زويلة، وهناك يوجد معظم نبلاء القاهرة وعدد من المدارس التي تثير الإعجاب بحسن بنائها

وزخرفتها، وكذلك عدد من المساجد المنسجمة البديعة، منها جامع الحاكم بأمر الله المنصور، الذي كان المقريزي أحد أئمته.

وصلّيتُ الجمعة في ((جامع عمرو)) المدهش بجماله وكبره وإتقانه بمدينة مصر العتيقة، وسمعت الخطيب يدعو في نهاية الخطبة الأخيرة لخادم الحرمين الشريفين السلطان سليم الأول...دعاء لم أسمعه من قبل.

وعقب الصلاة تساءلت بلطف وحذر...فأجابني إمام الجامع قائلاً:

– لما انتصر السلطان سليم الأول في موقعة ((مرج دابق))، ودخل مدينة حلب، صلى في مسجدها الكبير بحضور الخليفة العباسي ((المتوكل))، ولقب يومها بخادم الحرمين الشريفين، تشبهاً بسلاطين المماليك الذين حملوا لقب ((حامي الحرمين الشريفين)).

قلت مُتسائلاً من جديد:

– أليس من الأنسب، وقد أضحت الدولة تبسط أجنحتها على بلاد العرب والعجم أنْ يلقب بلقب العباسيين أو الحفصيين، فيدعى أمير المؤمنين أو أمير المسلمين.

قال موضحاً:

– إنّ حق حمل لقب الخلافة العامة للمسلمين أو إمارة المؤمنين في اعتقاد أهل السُّنة، قاصرٌ على نسل قريش، وإنّ الخليفة ((المتوكل)) آخر الخلفاء العباسيين ظل متمسكاً بهذا اللقب على الرغم من ضعفه، وعدم تأثيره، ولم يتنازل عنه للسلطان سليم...على أنّ السلطان سليم قد حصل على صيت عظيم لحمايته الأمصار الإسلامية وأراضيها المقدسة، ولا ينقص من صيته هذا أنه لم يلقب بلقب الخلافة الذي ظل ((المتوكل)) محتفظاً به في غير معنى ملموس.

وأدار إمام الجامع وجهه صوب القبلة وواصل حديثه قائلاً:

- حتى شريف مكة، حين أضحى لا حول له ولا طول، في مواجهة البرتغاليين الذين دخلوا البحر الأحمر لمهاجمة جدة ومكة هذا العام، ما كان منه إلاّ أنْ يستنجد بالأتراك العثمانيين، حيث هبَّ القبودان التركي ((سلمان)) لصد هجمات البرتغاليين، ومطاردتهم ...وبمقتضى ذلك أرسل الشريف بمفاتيح الحرمين الشريفين إلى السلطان سليم، وأعلن له الولاء.

قلت مؤكداً حديث إمام الجامع:

- حقاً إنَّ هذا الصيت الذي اكتسبه السلطان سليم لدفاعه عن أمة الإسلام وحمايته لمقدساتها أقوى من لقبٍ لا يحترمه أهله!

....

وكعادتنا في كل جمعة نقضي بقية النهار خارج مدينة القاهرة فيما حولها من الأراضي الزراعية، وعلى ضفاف نيلها الجميل، نطَّرحُ هموم أسبوع حافل بأعمال التجارة، والتنقل بين حلقات العلم، والتجوال المفيد...لكن صاحبي لم يعد يطيق فراق الأهل والوطن وقال ذات مَرَّة:

- لقد طال علينا أمد الانتظار، ولا أرى في الأفق ما يُسَوّغُ لنا طول البقاء وإني لن أستطيع معك صبراً، وقد استنفدت ما تبقى لديَّ من الحق الذي أشغل به نفسي عن الباطل، وبتُّ لا أُلْقي بالاً لما حولي من جمال الطبيعة، فالشوق إلى الأهل والولد بات يؤرقني، ويشغلني عن مكث بات لا جدوى منه.

قدّرت ما فيه من همٍّ، وأخذتُ أُسرّي عنه قائلاً:

- إنْ هي إلا بضعة أيام، ويصل عظيم الترك إلى القاهرة، وسنتحين الفرصة المناسبة لنُسَيِّر وفداً من التجار المغاربة والأندلسيين، مهنئين، ومذكرين بحال المغرب الإسلامي والحاجة إلى نصرته.

ردَّ علي منفعلاً:

– أفي كل مرة نزفُّ التهاني، وندبح الخطب، ورصيع البيان، ومديح الشعر؟!

أهذه ضرورة لا بُدَّ منها لاستقامة العلاقة بين الحكام والمحكومين؟

قلتُ موضحاً:

– إنها ليست الضرورة الشرعية، بل هي عادة دخيلة على تقاليدنا الاسلامية لكنها أصبحت ظاهرة العصر، ومدخل المحكوم لعرض حاجته أمام السلطان!...

رد ممتعضاً:

– وماذا بعد ذلك؟

قلت مخاطباً:

– تعود إلى تونس بالنتائج المبشرة...

– وأنت؟

– أتوجه إلى أرض الحجاز لأداء فريضة الحج.

....

وإذْ تأكد لصاحبي اقتراب موعد عودته إلى الأهل، تدفق الدَّم في عروقه، ورأيته وقد انفرجت أسارير وجهه عن فرحة غامرة، وهدأت أنفاسه، وطابت نفسه...

تأمل في ماء النيل هنيهة ثم قال:

- يَاللّه!. ما أشبه حال النفس بالماء!

إنْ ســـال طـــاب   وإنْ لم يَجْرِ لم يطب

....

كان حظنا من اللقاء بالسلطان سـليم تجديـد وعـده بنصـرة المغـرب الإسلامي، واستعادة الأندلس في بضع سـنين!...فهو يعـتزم توطيـد أركـان دولته ثم الزحف من جهة البلقان خطوة خطوة...

قال صـاحبي:

- لقد أقحم السلطان سليم نفسه في مواجهة واسعة أخالها تبتعد به عن بلوغ الأندلس...أما أنا فقد رضيتُ من الغنيمة بالإياب....

والتفتَ إليَّ يعانقني عناق مودع، وقد غلبت علينا العبرة قائلاً:

- اذكرني ..واذكر الأندلس عند ربك...في بيته العتيق.

....

في أرض الحجاز

قصدت أرض الحجاز من مصـر العليـا فـي رحلـة نهريـة قضيتُهـا أياماً خفف عني سحر ليلها، وجمال نهارها بعضاً مما أحمـل مـن الهمـوم، حتى تماسيح منفلوط التي طالما أذعرت الناس كانتْ فرجة لي...ومن مدينة قنـا، اتجهنـا شـرقاً فـي أرضٍ فـلاة إلـى مينـاء القصـير، ثـم إلـى ينبـع علـى الساحل الشرقي المقابل...

في عرض البحر الأحمر قبالة موضع يقال له ((الجحفة)) وهو ميقات أهل الشام كان علينا أن نُحرم إيذاناً بالشروع في مناسك الحج...ويتعالى بإيقاع جماعي خاشع دعاء التلبية:

(لبيك اللهم لبيك ...لبيك لا شريك لك لبيك ...إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك...)

وكما أحرم البدن، وتجرد من زينة الملبس والطيب، أحرمت النفس وتجردت من هواها، وتَعَرَّت النظرة لخالقها، وخلصت الروح والجوارح لبارئها...

ونصل ميناء جدة العتيد، المزدحم بسفن التجارة والحجيج، وتبرز لنا المدينة المشرقة بدورها المبيّضَة بالنورة، والمزدانة بالمشربيات....

وسرت في أسواقها القائمة في أكواخ خشبية، وسط أجناس وألوان شتى من البشر، قدموا مثلي يلبون دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام ((وأذن في الناس بالحج، يأتوك رجالاً، وعلى كل ضامر، يأتين من كل فجٍّ عميق..))

وتتجاذبني دواعي الآخرة على ما سواها، وتلح عليّ بمواصلة السير إلى مكة المكرمة، دونما إبطاء سوى المرور سريعاً على مقام أُمّنا ((حواء)) عليها السلام، وانضممت إلى أول قافلة بعد غياب طويل عن سفر البر قضيتُه في البحر والنّهر...غير أنّ سفر البر هذه المرة يختلف كلية عن كل مرة في المقصد والمسلك، فهو خالص لوجه الله تعالى ومع كل تلبية أسمع منادي الإيمان يناديني: الرحيل، الرحيل...إلى بيتٍ كريمٍ جليلٍ.

وتسير بنا القافلة في صحراء قاحلة مقفرة، حتى إذا كنا عند مشارف مكة، استقبلتنا جبالها السوداء الحارقة، وقد جفتْ عليها الشمس

بحرارتها الشديدة، وعرّتها من أثواب الخضرة، وحجبت عنها في نهارها رقيق النسيم، فجعلت الجبال تضم وليدتها مكة بين أحضانها في وادٍ غير ذي زرع...وكأنّ الحكمة الإلهية أرادت أن يكون الحج إلى هذه الأرض ترويضاً للنفوس وتهذيباً للسلوك، وسياحة خالصة لله وتذكراً ببدء رسالة الحق تربيةً وإعداداً للاستمرار في أدائها...

وجعلت أنظر في الكعبة المشرفة...وأتساءل:

ترى ما الذي يُميّزُ هذا البيت العتيق؟

ما الذي يختلف فيه عما سواه من دور مكة ودور الأرض قاطبة؟

دققتُ كثيراً ...فلم أجد في بنائه ما يميزه عن أي دار بسيطة بمكة ...فالحجر والطين هما مادتا بناء الكعبة...بل إنّ التاريخ يذكر أنها تعرضت لخراب سيلٍ جارف فجُدّدَ بناؤها قبل البعثة النبوية بخمس سنوات..وقد زيد في ارتفاعها عن أصل البناء تسعة أذرع، وغدا ارتفاعها ثمانية عشر ذراعاً، ورفع الباب عن الأرض بحيث لا يُصعد إليه إلاّ بدرج...

ولما ضاقت بهم النفقة الطيبة –التي كانوا جمعوها– عن إتمامها على قواعد اسماعيل، أخرجوا منها ((الحِجْر))، وبنوا عليه جداراً قصيراً على شكل نصف دائرة من جهة الشمال علامة على أنه من الكعبة، وهذا الجدار القصير يسمى ((الحطيم)).

وعلى الكعبة من جهة ((الركن اليماني)) يوجد ((الحجر الأسود)) في الزاوية الشرقية منه على ارتفاع بسيط من القاعدة يسهل على الطائف تقبيله أو لمسه...فهذا هو البيت الحرام...بسيط جداً في مبناه...لكنه عظيم في معناه التعبدي، فهو قِبلة المسلمين في صلاتهم، وقصدهم في حجهم

وعمرتهم...يقول فيه تعالى : ((إنَّ أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً، وهدى للعالمين، فيه آياتٌ بينات، مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، ومن كفر، فإنَّ الله غني عن العالمين))

إنَّ من يتأمل حركة الطائفين والطائفات حول الكعبة المشرفة، وسعيهم بين الصفا والمروة يجدها حركة دائبة لا تنقطع ليل نهار، طيلة الأيام، وفي كل الأحوال... شدة ورخاءً، سلماً وحرباً....وكأنها إشارة الانصياع لأمر الله واتساق الطاعة البشرية مع طاعة السماوات والأرض لله الواحد الأحد الذي لا شريك له!!..

ومن يتأمل في تعظيم شعائر الحج يَخْلُصُ إلى وحدة الأداء، ووحدة القصد، وسواسية التكليف...

ولا أنسى ساعة وقوفي تحت الميزاب بين يدي رب غفور، أدعوه مخلصاً في دعائي، فغشيني خشوع في كل ما دعوت، إلاَّ أنَّ هاتفاً تقحَّم عليَّ خشوعي وأنا أناجي ربي أن يعيد الأندلس وينصر المسلمين، وجعل يخطئني ومضى يقول لي : ليس بالدعاء وحده تعود الأرض، ويتحقق النصر !!..

وخجلتُ أني أقف حيث وقف أشرف الخلق محمد عليه السلام، الذي لم يلجأ إلى الدعاء بديلاً عن الأخذ بالأسباب، والصبر والمصابرة والجهاد، وهو أحق بالإجابة إذا دعا ربه...

وتذكرت شدة البلاء والأذى الذي تعرض له وصحبه في مكة والطائف، وحصار قريش له ولبني هاشم في شعبٍ جدباء

جرداء...وتذكرتُ هجرته سرًّا إلى يثرب، واختباءه في غار ثور مع صاحبه أبي بكر الصديق...

وهو في كل هذا لم يَدْعُ قط على قومه، ولم يقبل أنْ يطبق جبريل عليهم الأخشبين بل توجه إلى ربه داعياً : ((اللهم اهدِ قومي، فإنهم لا يعلمون)).

وحين قامت للإسلام دولته الأولى في المدينة المنورة، وأذن الله لرسوله بالقتال، لم يكن دعاؤه بعيداً عن ميدان المعركة، فقد كان يطلب النصر للقلة المؤمنة المجاهدة في غزوة بدر بقوله: ((اللهم إنْ تهلك هذه العصابة، لن تُعْبَدَ في الأرض بعدها أبداً))...فرسم بذلك خط الرسالة المستقيم الذي اتسعت بسببه رقعة الأرض، وعظمت أمة التوحيد والوحدة عددا، ومكانةً ، وعمرانا...

وقد أثلج صدري أني سمعتُ خطيب الحرم المكي وهو يعنف الذين اطمأنوا إلى انقطاعهم للعبادة في الحرم، ولا عمل لهم سواها في وقتٍ تنتهك فيه حرمات الأمة، وتستباح بيضتها، خاصة وأنّ البرتغاليين يهددون من حينٍ لآخر ساحل جدة، ولا ينجدها إلا أمير البحر التركي، قائلاً : ألاَ لاَ يطمعنّ أحد بقربه من ربه أنه جاور الحرم، واعتكف فيه للعبادة، تاركاً حرمات الله تنتهك، ودماء المسلمين تسفك، والأعراض تستباح، ودين الله يجتث، فذاك هو اللعب بعبادة الله، وأخذ يُعنّفُ الحكام والأمراء الذين تولوا أمر الأمة وهم يتقلّبون بين أعطاف النعيم، وملذات الترف، ولا يتحرك لهم ساكن، أما إنّ حياتهم هذه أضحت حياة مستنقعات،

وستكون وبالاً عليهم في الدنيا، وحسرة وندامة يوم القيامة...فما قيمة المال والثروة والنعيم وهي تهدر على الشهوات، وتراق عبثاً على الأهواء؟!...

....

والمشَاهدُ في مكة المكرمة كثيرة... وبها قطعتُ المسافة في عمق الزمن الشامخ بصاحب الرسالة والرعيل الأول...وقفتُ على غار حراء وأول سورة تنزلت على رسول الهداية...ومررتُ بدار الأرقم بن أبي الأرقم الخلية الأولى للدعوة، وشعب أبي طالب القائم في عرض جبلٍ عذَّبَهُ الجفاف وأحْرقت صخوره الكالحة سياط شمس لاهبة...ونظرت في غار ثور الذي يؤوي الهوام والحيَّات..وكيف أقام به الرسول العظيم وصاحبه الصديق متخفيين من بطش قريش في طريق هجرتهما على المدينة المنورة..

وفي كل هذه المشاهد ظل ((هاتف الميزاب)) يطرق سمعي مذكراً : ((ليس بالدعاء وحده تعود الأرض، ويتحقق النصر))، ولم يبارحني حتى توجهت إلى الحاج شريف الفاسي صاحب مضافة المغاربة أقترح عليه عقد ندوة نستنفر فيها همم حجيج المغرب الإسلامي، ولينذروا قومنا عند عودتهم...

....

وفي الطريق إلى المدينة المنورة آثرتُ خط سير هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام...صحراء قاحلة، مستعرة الرمال والحصى...لا ظل فيها لشجر أو سحاب...

مررنا بسهل بالقرب من الموضع الذي عقد فيه ((صلح الحديبية))، وقد هوّن علينا شدة الصحراء أنفاس المهاجرين والأنصار الطيبة وظلال سيوفهم التي ما فارقت هذه المواضع...

وإذْ نحن على همة من أمرنا ألفينا المسافة تطوى بيسر، فمررنا بموضع ((عفان)) و ((أمج))، فالخرّار، فالأبواء حتى انفرجت أسارير الصحراء عن واحات متناثرة انتهت بنا إلى موضع يُدعى ((رثم)) سرنا من بعده إلى ((قباء)) فبساتين المدينة المنورة...ومنها إلى المسجد النبوي الشريف الذي طبع المدينة وأهلها بخلق المحبة والمودة ورقة الطباع، ووضع الله فيها البركة وجعلها هاشة باشة..حتى جبل (أحد) الذي قال فيه الرسول الكريم : ((هذا جبل يحبنا ونحبه)).

وعلى الرغم من انتقال حاضرة الخلافة إلى مدن خارج الجزيرة العربية لكن المدينة المنورة ظلت حية عامرة، مزدهرة، يؤمها المسلمون في كل حين، ولطالما استهوت قلوب وعقول العلماء والفقهاء والمصلحين.

وقد كانت النواة الأولى لتأسيس المدن الإسلامية كالفسطاط والكوفة والبصرة، والقيروان، وبغداد، والري، وغزنة، وقرطبة، وأشبيلية، وغرناطة، وفاس، ومراكش، والرباط بكل ما يعنيه قيام المدن من نزوع إلى الاستقرار والعمران، وتقليص لمظاهر البداوة والارتحال.

....

الطريق إلى بيت المقدس

وفي الطريق إلى بيت المقدس، اجتزنا الطريق الصحراوي الذي اختطه الرسول العظيم (ﷺ) إلى تبوك، في غزوة العسرة آخر غزواته

التي كان الرجلان يقتسمان تمرة، والعشرة يعتقبون البعير الواحد، وحين اشتد بهم الحر شربوا الفرث!..

وقد أدركت عن بينة أنّ طريق الفاتحين إلى الأندلس بدأ من هنا بصبر هؤلاء المجاهدين ومصابرتهم وتضحياتهم الجسيمة...

وكنا مررنا على مقربة من مدائن صالح «الحِجْر»، وهو حصن بين الجبال بيوته منحوتة في الصخر، به بئر ثمود...

وفي تبوك أرحنا من المرحلة الشاقة..وهي أقصى أثر رسول الله(ﷺ) بين الحجر وبلاد الشام، وفيها بنى مسجداً مازال قائماً إلى الآن، وعقد مع أهلها صلحاً، وأتاه إليها «يوحنا بن رؤبة» صاحب أيلة، وصالحهُ، وأعطاه الجزية.

ومن تبوك يممنا صوب «أيلة» على رأس البحر الأحمر، وهي أول حد الحجاز، وآخر حدود مملكة الروم في الزمن الغابر...ويقال أنها المدينة التي كانت «حاضرة البحر» وسميت أيلة نسبة إلى أيلة بنت مدين.

وهي مدينة جليلة القدر، كثيرة النخل والزرع، وبها علم كثير، وآداب ومتاجر وأسواق عامرة...وأهلها أخلاط من الناس، وتَستقبل الحجاج القادمين من مصر والمغرب، وهي من أهم الموانئ التجارية، وعن طريقها تنقل السلع بين الغرب والشرق، وقد كانت في عهد الفاطميين حاضرة إقليم فلسطين.

وبين أيلة وإيليا «بيت المقدس» أرض طيبة مباركة، وفيها قرى ظاهرة يسير فيها المسافرون ليالي وأياماً آمنين...ولم نجد في مسيرنا صعوبة تذكر، سوى مشقة صعود عقبة أيلة التي أُصلحت في عهد أحمد بن

طولون ثم في عهد قانصوة الغوري..ومن بعدها مررنا ((بالحُميمَة)) التي كانت مركز الدعوة العلوية المناهضة لحكم الأمويين، ومسقط رأس أبي جعفر المنصور وتنقلنا بين الوهاد والوديان، واعتلينا هضبة تقوم عليها مدينة ((أذرح)) التي بايع فيها الحسن بن علي بن أبي طالب، معاوية بن أبي سفيان.

ومررنا بمدينة ((سلع)) الأثرية حاضرة الأنباط، وتعرج بنا الطريق لنقترب من قلعة الشوبك، وليفضي بنا من بعدها إلى ((مؤاب)) أول مدن الشام التي فتحها المسلمون في عهد أبي بكر الصديق بقيادة أبي عبيدة...وقد كانت إلى يميننا مدينة ((مؤتة)) التي دارت فيها رحى أشرس معركة للمسلمين مع الروم وحلفائهم، كان فيها جيش المسلمين لا يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل، بينما بلغت حشود الروح مائتي ألف مقاتل....أو هكذا يُهيأ له!...

وقد كرمت أرضها الطاهرة برفات الشهداء...ويكاد السائر فيها يسمع صرير سيوفهم في جوف الليل!...

وعلى مقربة من مؤتة، يقع حصن ((الكرك))، وهو من أعظم حصون النصارى، يحتل موقعاً مسيطراً، وموضعاً مكيناً عظيم الاتساع، وهو من القدس على مسافة يوم، وقد فتحه صلاح الدين الأيوبي بعد حصار طويل...

وسرنا من بعده في هضبة بالغة الخصوبة، من أرض البلقاء، وأشرفنا على وادي الموجب، الواقع في منخفض عميق، شديد الانحدار، واتجهنا معه صوب الغرب حتى صرنا في أخفض منطقة من أرض ((الغور))، وفيها بحيرة لوط، وتسمى بأكثر من اسم تدعى بحيرة ((زغر)) أو

بحيرة ((سدوم وعامورا))، وهما كانتا مدينتي قوم لوط عليه السلام، فغرّقهما الله، وجعل مكانهما هذه البحيرة الميتة التي لا أثر فيها للحياة، وماؤها حار، كريه الرائحة، وطولها ستون ميلاً، وعرضها قرابة اثني عشر ميلاً، وإليها ينتهي نهر الأردن الذي يستقي ماءه من نهر اليرموك وبحيرة طبريا ومنحدرات جبال البلقاء، وبيسان، ونابلس، وبيت المقدس...

وسرنا بمحاذاة البحيرة الميتة التي تنتشر عليها سفن صغيرة تحمل الغلال وصنوف الثمر إلى ((أريحا))، وسائر أعمال ((الغور))...

قلت لصاحبي:

قد كان فيما غبر يعرف هذا الجزء من الغور بالأرض المسخوطة، ولكنه غدا بعد حين، من أخصب بلاد النخيل، والثمار والنيل.

قال لي صاحبي مؤكداً:

- وهو على هذه الخصوبة، ووفرة الخيرات حتى أعالي الغور من جهة طبريا واليرموك...وقد أكرم الله الغور برفات عظماء صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام، ممن أبلوا بلاء حسناً في فتوحات الشام يتقدمهم أبو عبيدة عامر بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، ومعاذ بن جبل، وضرار بن الأزور وعامر بن أبي وقاص، وغيرهم ممن توفوا بمرض الطاعون المعروف بطاعون عمواس.

....

وندخل مدينة ((أريحا)) على الجانب الغربي من نهر الأردن، وهي إحدى المدن الكنعانية القديمة التي تعاقب سكناها الأموريون، والكنعانيون والحثيون والجرجاثيون والحوريون واليبوسيون...واحترب أهلها مع العبرانيين، ومن جاء بعدهم من الأقوام حتى كان الفتح الاسلامي الذي أمّن

أهلها، وعاشوا في ظله حياة طيبة، وهي اليوم أرض الثمار ومجمع الغلال...

ويتعرج بنا الطريق صعداً إلى ((خربة التّل)) فمدينة ((رام الله)) حتى بلغنا بيت المقدس.

ولا يسع من يدخل بيت المقدس قاصداً المسجد الأقصى، أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، إلاَّ أنْ يخر ساجداً لله، وقد تملكه الخشوع، وعمته السكينة، فهو في البيت المقدس الذي بنته الأنبياء، وسكنته، وما فيه موضع شبر إلاَّ وقد صلى فيه نبي، أو أقام فيه ملك، على نحو ما قال ابن عباس رضي الله عنه...فبيت المقدس مدينة جليلة القدر، قديمة العمران، تقوم على نشز من الأرض، ولها سور عظيم جدد بناءه الناصر صلاح الدين وله أبواب عدة منها باب الرحمة، وباب الأسباط، وباب المغربة، وباب العمود، وباب الخليل...وتحيط بها المزارع والبساتين، وتكثر فيها أشجار الزيتون..وتنبت في مروجها ضروب النواوير، وأصناف الأزاهير، وأجناس الأفاويه والعقاقير، وتتصل بهجة نباتها باعتدال هوائها، وكثرة أندائه...

دخلنا المدينة من باب المغاربة، وأقمنا ضيوفاً بحي المغاربة، وهو حي مجاور للمسجد الأقصى، يصلنا به بابٌ بطرف ((حائط البراق)) وهو الجدار الغربي للمسجد الأقصى، وفيه موضع الحلقة التي ربط بها البراق!...

وظللت أتردد على المسجد وقبة الصخرة المشرفة...وما رأيت في الأرض مسجداً بمثل اتساعه إلاَّ جامع قرطبة المعتدى عليه، وصحنُه أكبر من صحن جامع قرطبة..

ويبلغ طول المسجد الأقصى سبعمائة وخمسة وخمسين ذراعاً سليمانيا. وقد بناه عبد الملك بن مروان حين كان عامله على بيت المقدس عمر بن عبد العزيز والذي حمل إلى بنيانه خراج مصر سبع سنين، وجعل فيه من الأساطين ستمائة وأربعاً وثمانين أسطوانة، وخمسة آلاف قنديل توقد فيه ليلة كل جمعة.

أما الصخرة المشرفة فقد كانت مغطاةً بمزبلة عظيمة حتى دخل عمر بن الخطاب بيت المقدس، وسخّر أنباط أهل فلسطين في كنس بيت المقدس، وحفروا موضع الصخرة حتى ظهرت، وبنى عليها مسجداً وجعل القبلة في مقدم المسجد صوب المسجد الحرام بمكة...ثم بنى عبد الملك بن مروان القبة على الصخرة، وجعل على أعلى القبة ثمانية آلاف صفيحة من نحاس مطلية بالذهب، في كل صفيحة سبعة مثاقيل ونصف من ذهب، وأفرغ علىرؤوس الأعمدة مائة ألف مثقال ذهباً، وخارج القبة كلها مليس بصفائح الرصاص.

وقد جرت إصلاحات عدة على المسجد الأقصى في العهود الإسلامية المتعاقبة، فعندما زار الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور المدينة المقدسة أمر بإصلاحه، وفي عهد ابنه المهدي رُمّم ما تصدع من جدرانه، وقام الخليفة الفاطمي ((الظاهر لإعزاز دين الله)) من بعد، ببناء أقسام عديدة من المسجد ومنها القبة والأبواب الثلاثة الوسطى، وأقواس الرواق الكبير، وأركان القبة والأبواب السبعة، وعندما فتح الناصر صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس أمر باجراء العمارة اللازمة في المسجد، وبنى المحراب، وأمر بنقل المنبر الشهير الذي كان قد أمر بصنعه سلفه السلطان نور الدين زنكي خصيصاً، ليوضع في المسجد الأقصى من مدينة حلب.

وطفت بالمدينة المقدسة فوجدت فيها في الجانب الغربي كنيسة القيامة، وهي الكنيسة العظمى التي يحج إليها النصارى من جميع بلاد الروم، وهي من عجائب الدنيا، لها باب في غربيها يجد الداخل منه القبة التي تشتمل على جميع الكنيسة ولها باب من جهة الشمال ينزل منه إلى أسفل الكنيسة على ثلاثين درجة، وتلقاه مقبرة عيسى عليه السلام فيما زعموا، ولها بابان، وعليها قبة محكمة البناء، وعلى الباب في يسار الكنيسة منحرفاً بشيء إلى الجنوب الحبس الذي حُبِس فيه المسيح عليه السلام، والقبة الكبيرة قوراء مفتوحة إلى السماء، وبها دار فيها صور مَاثّلُوا بِهَا هيئة الأنبياء!!...وعلى المقبرة ثلاثة قناديل من ذهب معلقة على المكان.

وقد قامت ((هيلانة)) والدة الامبراطور قسطنطين ببناء كنيسة القيامة، وتلاها في القرن الثاني الميلادي قيام كنائس عدة منها: كنيسة المخلص، وكنيسة يوحنا المعمدان، وكنيسة المسيح، وكنيسة مرقس، وكنيسة القديس يعقوب.

وقد رأيت إلى جوار كنيسة القيامة المسجد العمري في الموضع الذي صلى فيه عمر بن الخطاب، بعد أن أعطى لأهل إيلياء ((بيت المقدس))، عهداً أن يصون الأموال والكنائس، ويرعى الحقوق والذمم، حتى أنه عرف بينهم بالفاروق، وقد جاء في العهد الذي أعطاه لهم ما يلي:

((هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم، وصلبانهم، سقيمها، وبريئها، وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينقص منها، ولا من خيرها، ولا من صلبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يُسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى

أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يُخْرِجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منها فإنه آمنٌ على نفسه وماله، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمنٌ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة)).

ومنذ دخل عمر بن الخطاب المدينة المقدسة وحكام المسلمين لا يفرقون بين أصحاب الديانات السماوية الثلاث، كما لا يفرقون بين أحد من رسل الله، واطمأن الناس بكل فئاتهم ومللهم، وصارت لهم ذمةٌ ترعى، وعهدٌ يحفظ، ولم يحدث قط أن هدمت معابد وكنائس ولا طمست آثار الأنبياء، ولا حيل بين أهل دين وعبادتهم خلافاً لما يتعبد به يهود في توراة محرفة بنهب المدن وسلبها فقد جاء في سفر التثنية:

((إني سأسوقك إلى مدن عظيمة جديدة لم تبنها، وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها، وآبار محفورة لم تحفرها، وكروم زيتون لم تغرسها، وأكلت وشبعت..)) وجاء في موضع آخر نص بطرد الشعوب من مدنها:

((إلهك يطرد هؤلاء الشعوب من أمامك قليلاً قليلاً، لا تستطيع أنْ تفنيهم لئلا تكثر عليهم وحوش البرية)).

على حين أنَّ يهود الأندلس الذين طردهم نصارى الأسبان، استوعبتهم سماحة المسلمين في بلاد المغرب، بل وفي بيت المقدس.

ومثل حقد اليهود كان الصليبيون يعيثون في بيت المقدس فساداً، وحروب إبادةٍ وتنكيلٍ بالمسلمين، وهو عين الحقد الذي مارسوه في الأندلس!!..

ويعلمنا التاريخ أنَّ الحقد باطلٌ لا تدوم دولته، وأنَّ التسامح والمحبة حق تنتصر في النهاية دولته...ودليلنا في ذلك بيت المقدس الذي استبد به باطل الصليبيين قرابة قرن، ولم تستطع أيٌّ من الدولتين الفاطمية والعباسية إخراجهم بسبب ما حل بهما من ضعف ووهن، حتى قيض الله للأمة القائد القوي المؤمن صلاح الدين الأيوبي الذي وحدها، وأعلن فيها الجهاد، وخاض مع الصليبيين معارك ضارية، وقهرهم في موقعه حطين، واستعاد بيت المقدس، وأعاد إليها روحها وأمنها.

....

وفي حيِّ المغاربة، تعرفتُ على فتى المروءة والشمم سعد الطرابلسي، الذي توثقت صداقتي به، لتصبح رافداً لعمل جهادي سألته باعتبار معرفته ببيت المقدس:

- كيف تكوَّن حي المغاربة؟

- حين تأهب الصليبيون لحرب صلاح الدين وتتابعت أساطيلهم إلى الاسكندرية، أرسل يطلب النجدة من السلطان يعقوب المنصور الموحدي، فأمده بمائة وثلاثين سفينة حالت دون استيلاء الصليبيين على

سواحل الشام، وفضل عدد كبير ممن قدموا للنجدة البقاء في بيت المقدس، وانضم إليهم آحاد من القادمين إلى أرض الحجاز للحج عند كل موسم.

وقد وجدوا في البقاء بغيتهم من المرابطة، كما لم يدركوا فارقاً في الأرض والإنسان، حتى أنَّ عدداً من أسماء الأسر والقرى والمدن الأندلسية والمغربية تتشابه مع ما هو موجود في فلسطين.

– لا غرابة، فجند فلسطين كانوا ممن شارك في فتح الأندلس...وعدتُ أتساءل باحثاً عن جواب:

– ترى من يرشح القدر لاستعادة الأندلس؟

– إنْ كنت تقصد السلطان سليم الأول، فقد مرَّ بالأرض المقدسة، وما رأينا منه ما يبعث على الأمل! فقد طغت عليه أخلاق السلاطين، التي لا شكَّ تُبَاعِدُ بينه وبين شرف استعادة الفردوس المفقود...إننا بحاجة إلى أخلاق القادة وحملة الرسالة...وعنهم نبحث، ومعهم نجاهد...والشعوب قائمة، دائمة... وهنا على أرض فلسطين الطاهرة دارت كبرى المعارك، وأشد الحروب ضراوة، وكان القادة العظماء هم أهل العزم والحسم...

وإنَّ الأمة التي اعتزت بصلاح الدين الأيوبي، لتنظر بعين الاعتزاز إلى السلطان قطز والظاهر بيبرس في موقعة «عين جالوت» حين دحرا جحافل التتار التي لم يوقف سيلها العارم أيٌّ من أمصار المشرق أو حاضرة الخلافة العباسية.

– إذن فهل في الأفق بوادر أمل قريب، غير الدولة العثمانية الفتية؟

– إنّ استعادة الأندلس مسئولية أمة الإسلام بأسرها...

– ولكن في التعميم متاهة وإطالة لطريق النصر!!..

- ولا يكون كذلك، إلاً حين تكون أداتـه اللـوم، والنـوح، والدعـاء الأجـوف ومنـابر القـول دون الفعـل...أمـا حيـن تكـون للعـدوة المغربيـة وحدتهـا، وقوتها، فإنَّ عون الأمة وحشدها قوة ومهابة، وسند، وظهير، تماماً كمـا كان الأمر هنا في فلسطين في مواجهة الصليبيين..
- ولكن لا تقاتل الأمة بدون قيادة، وحال بلاد المغرب لا تخفى عليكم..
- نعلم تفاصيلها المؤلمة، ولكن جهاد الكلمة يغربل الأمـة، ويظهـر القيـادة، فادعوا واعملوا على رفع المظالم، وأزيحوا حجابة السلاطين وأسمعوهم الحـق وذكروهـم بـه، وسـددوا وقـاربوا، آخـوا بيـن النـاس، وصـافحوا، وسامحوا...فلا نصر للحق، دون انتصـار له فـي النفـوس والصفـوف... وتوقف عن الحديث فجأة كأنما طافت في ذهنه فكرة مفاجئـة، ثـم التفت إليّ قائلاً:
- لقد تذكرت أخاً لك، وافته المنية هنا في بيت المقـدس، بعـد جهـاد طويـل حمل فيه همَّ الأندلس في حله، وترحاله، وسأصطحبك إلى مرقده...ولقـد سفر لأبي عبد الله الصغير عند ملوك المغرب يستنصرهم على الأسبان الزاحفين على غرناطة، ولكن لا حياة لمـن تنـادي...وحتـى إذا استولى الأسبان على غرناطة، رحل أخوك إلى تلمسان، ثم إلى المشرق، وحـجّ، ورجع إلى مصر، وحل أخيراً بالقدس حتى توفاه الله فيها عام ٨٩٥هـ.
- أتقصدُ : الفقيهَ القاضي ابن الأزرق؟
- هو ذاك...أبو عبد الله محمد بن علـي بـن محمـد بـن الأزرق الغرنـاطي المالكي الأصبحي، صاحب كتاب ((بدائع السلك، في طبائع الملك)).

وانتقلنا إلى الموضع الذي دُفن فيه رحمه اللـه، ووقفنـا علـى علمـه وفقهه، وشعره، وأدبه وقبل هذا كله على جهاده..

قلت لصديقي:

- لقد أعياني البحث عن مؤلفه الذي ذكرت في مختلف الحواضر التي مررت، دون أن أحظى بنسخة منه.
- لقد أقبل القراء على اقتنائه، ولديَّ على أية حال نسخة، قرأتها أكثر من مرة، سأهبها لك.
- إذنْ فأوجز لي مؤلفه..
- إنه قريب في أفكاره وآرائه واستنتاجاته من ابن خلدون في المقدمة، ولعلها استحوذت على جمَّاع فكره، ولو كان في زمن ابن خلدون لما شك أحد في تتلمذه على يديه... عموماً فالكتاب ينقسم إلى مقدمتين وأربعة كتب، كل كتاب يشتمل على بابين.

في المقدمة الأولى يتناول الأسباب العقلية الداعية للنظر في المُلْك وموجباته، ويذكر عشرين سبباً، منها أن الإجتماع الإنساني ضروري. وفي المقدمة الثانية يعرض لموجبات المُلْك شرعاً، ويذكر أيضاً عشرين مسألة مثل أنَّ من اللازم وجود السلطان الوازع، وفي الكتاب الأول يتناول حقيقة الملك والخلافة، وسائر أنواع الرئاسات، وأسباب وجودها وشروطها.وفي الكتاب الثاني يتناول أركان المُلْك، وقواعد مبناها من حيث الضروري والكمالي، والأعمال التي تقام بها صورة الملك مثل نصيب الوزير، وإقامة الشريعة، وإعداد الجند، وحفظ المال، وتكثير العمارة، وإقامة العدل، وتولية الخطط الدينية، وترتيب المراتب السلطانية، ولوازم صدور الأفعال على أفضل نظام مثل العقل، والعلم، والشجاعة، والعفة، والسخاء، والجود، والحلم، وكظم الغيظ.

وفي الكتاب الثالث يتناول ما يجب أن يقوم به السلطان من أجل تشييد أركان الملك، وتأسيس قواعده مثل حفظ الدين، وإقامة حدوده، وتنفيذ الأحكام، ثم جوامع ما تقوم به السياسة المطلوبة، سواء في سياسة السلطان التي تنقسم إلى سياسته للرعية، وسياسته للأمور العارضة، مثل الجهاد، والشدائد النازلة، وسياسته للخاصة مثل الوزراء.

وفي الكتاب الرابع يتناول عوائق الملك وعوارضه حيث العوائق هي حصول النِعم، والترف، والمذلة، والانفراد بالمجد، والحجاب الواقع بين السلطان والرعية، وتطرق الخلل إلى العصبية والمال...

- أدركتُ إذن سرّ نفاد نُسخه في كثير من الحواضر، وسأحرص على استنسَاخ أكثر من نسخة فور عودتي لأقدمها هدية غالية للأصدقاء، ويبدو من عنوان مؤلفه أنه آثر التفرغ للعلم والكتابة في ما غاب عن أمراء الأمة، فغابت معه البلاد، عسى أنْ يأتي يوم تتوفق فيه الأمة بأمراء علماء يجمعون بين المعرفة والسلطان.

وقلت في نفسي:

- أما وقد أكرمني الله بشد الرّحال إلى المساجد الثلاثة، فقد آن أوان العودة، بهمة من وَعَى الرسالة، وأيْقَنَ ألاّ عودة للفردوس المفقود إلاّ بوحدةِ المغرب الإسلامي، وائتلاف قيادته وإخلاصها لِلّه...

....

مدن الساحل الليبي

قبل ركوب البحر لابد من الوصول إلى غزة هاشم، وفي طريقي إليها، ترددت بين طريق ((لُد)) -التي جاء في حديث مسلم، أنّ الله تعالى

يبعث عيسى عليه السلام، فيطلب الدجال حتى يدركه بباب ((لُد)) فيقتله..وهو الطريق الذي سلكه الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب إلى مدائن الساحل، لكنه طريق طويل- وَبين طريق الحجاج من جهة مدينة إبراهيم الخليل عليه السلام، وهي الأقصر، وكان سعد الطرابلسي الذي سعدت بصحبته، قد حسم الأمر حين آثر الطريق الأخير...

فمررنا بـ ((بيت لحم)) وبِها كنيسة المهد، والمغارة التي قيلَ أنّ المسيح عليه السَّلام وُلد فيها، وإلى الشرق من بيت لحم على بُعد فرسخين، أديرة، منها ديرٌ، يُقال له ((طور زيتا)) وإلى جانبه جبل يُصعد إلى قمته في قدر ستمائة مرقاة، يقال إنّ هذا الجبل صَعَدَ منه المسيح إلى السماء!..

وبين بيت المقدس و((جبرون مدينة الخليل)) غياضٌ، وأشجارٌ فاكهةٍ، وزيتون، وكروم عنب...وعند مدخل جبرون من جانب الوادي تستقبلك برك الخَضر، وأطلالُ أعمدةٍ ضخمةٍ من الحجارة.

في حبرون، قبر إبراهيم عليه السلام، ومسجده المبني من حجارة كبيرة يبلغ طول بعضها أربعة عشر ذراعاً، وعرضها أربعة أذرع، ويعجب المرء كيف رفعت إلى مواضعها!!...

من حبرون أرض الكنعانيين اتجهنا صوب الغرب إلى غزة هاشم الواقعة على ساحل فلسطين، وهي مدينة الإباء، والصبر على الشدائد ولازالت ميناء هاماً، وحلقة اتصال بين المشرق والمغرب، وبها قبر هاشم بن عبد مناف، وهي مسقط رأس الإمام محمد بن إدريس الشافعي مؤسس علم الفقه وصاحب علم الأصول الذي وضع قانوناً كلياً يُرجَعُ إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع.

....

السفن والمراكب الشراعية تنتظر في الميناء عودة الحجاج إلى الأقاليم المغاربية...ويدور بين أصحابها حديث عن أخطار القرصنة التي تزداد كلما اتجهت غرباً من تونس....ويفضل المغاربة أن يصلوا إلى الاسكندرية، ثم يسلكوا طريق البر! ولا يجد حجاج تونس ما يثنيهم عن ركوب البحر...وخُيّرتُ بين السفر إلى المغرب، ومقابلة السلطان الوطاسي، وبين المرور بتونس والمكث فيها قليلاً وَسط الأهل والولد ثم مواصلة السفر برًّا إلى فاس...

وتذكرتُ هول السفر براً ذات مرة بين فاس والقاهرة، إذْ تمتد ما بينهما الصحراء الليبية الكبرى حيث لا تعرف رمالها نهراً ولا ماء سوى بعض آبار ذات الماء المالح الأجاج، وكم كنا نضل الطريق إلى مكان الماء بسبب خطأ الدليل، وأحياناً نجد العدو يحتل الممرات المؤدية إلى الماء، فنضطر إلى ادخار الماء لنكتفي منه طوال عشرة أيام باستعمال ما كنا أعددناه لخمسة أيام فقط...

ناهيكم عما يعترض الناس في أودية الهلاك من حيوانات ضارية، وحيات وعقارب كثيراً ما يموتون من عضها أو لسعها في فصل الصيف.

ويستقر بي الرأي أخيراً على ركوب البحر إلى تونس...وقد حبذ رأيي رفيق السفر ((سعد الطرابلسي)) الذي أخذ يقول وهو يتفجر حيوية وشباباً:

- إنّ كثيراً مما تبحث عنه في بناء الجماعة -يا أبا زينب- ستجده في مدن وأقاليم ليبيا الواقعة على طريقنا البحري وامتداداتها في الصحراء فيما بين الاسكندرية وجربة...فمازال أهلها يتنسمون عبير الحرية، ويعيشون حياة الانعتاق، ويديرون شؤون حياتهم بأنفسهم...

وهم أهل تجارة وثراء...ولعلهم إذا ما استنفروا يكونون خير مستنفر...

....

ونستقل مركبنا إلى ((الاسكندرية)) وفيها السفن واردة، وصادرة، والأسطول العثماني يجوب ساحلها، ويؤمنه من هجمات القراصنة...وتقتُ إلى ذلك اليوم الذي يبلغ الساحل الأندلسي ويطوف بجزر ميورقة ومنورقة ويابسة تلك الجزر الأندلسية التي يوشك أن تصبح منسية!..

....

ثم واصلنا سفرنا بمحاذاة الساحل الليبي وهو ساحل طويل، لم نجد فيه أثراً لبشر حتى وصلنا مرسى صغيراً بدرنة، كان بداية لجمال الطبيعة، فإذا الأرض غير الأرض خصوبة وعطاءً، وإذا بنا نجاور ساحلاً مخضوضراً، زها جماله، وعذب ماؤه وطاب هواؤه، كان مقدمة لثورة الجمال في الجبل الأخضر الذي لم أرَ أخصب منه ولا أغدق خيراً، ولا أكثر إداماً فيما عرفت من البلاد المحيطة...وهو قريب الشبه بالجبل الأخضر الواقع بين ((دكالة)) و ((تادلا)) من بلاد المغرب الأقصى، وكلاهما مكسو كثيراً بأشجار البلوط والصنوبر، والزيتون.

ويحتضن عند سفحه المعشوشب على الساحل مدينة ((سوسة)) الوادعة، الناعمة بالعيش الرغيد...

وهي مدينة قديمة، فيها آثار للأُوَلْ، عامرةٌ بالسكان، وتقع في سندٍ عالٍ، تُرى دورها منه، ويقال لها ((البيضاء)) تمييزاً عن مدينة ((سوسة)) بتونس، التي ركب منها، أسد بن الفرات، البحر فاتحاً ((صقلية))...

....

وينثني بنا الساحل في استدارة خفيفة حول الجبل الأخضر انتهت بنا إلى مرسى ((ابن غازي))، وهي مدينة ساحرة الجمال، حسنة المرفأ، تصبُّ فيها أودية السَّمن والعسل، والشحم والودك، من داخل الجبل الأخضر...

وسكانها أهل كرم وخلق عظيم، لم يعرفوا للدرهم قدراً إلاّ في زمن متأخر...فزهاء القناطير من السمن يقابلها ثمن تافه من زاد عروض أو غير ذلك من الحوائج!..

ويدخل إلى بلادهم التجار من أهل طرابلس، ومسْراتَة لشراء الإبل والبقر والغنم والصوف والإدام...ولا حُكم لأحد من عمال صاحب طرابلس على أهلها...

وقد أشفقتُ على سعد الطرابلسي الذي لم يَقْوَ على كتم عواطفه وافتتانه بوجوه أهلها الملاح، والعيون السقيمة الصحاح، ورشاقة القدود، وحُمرَة الخدُود، وسواد الطرر، وبياض العرر، إذْ أخذ يصيح : لا حاجة للدواء بعد البُرْء والشفّاء..ولا يجوز التيمم بوجود الماء!..

وإذْ لم أنكر عليه اندفاع عواطفه، فقد مضى يحدثني عن تفاصيل الجمال الذي يختص به كل بلد حلَّ به، لكنه يعطي لمدينة ((ابن غازي)) صورة جمالية متفوقة، وراودته نفسه في مفارقة خطيبته، في مسقط رأسه بجبال غريان، والبحث هنا عن فتاة أحلامه...

وأخذت أهدئ اتقاد عواطفه، وأُذكره بما هو أسمى وأقوى من حالة إعجاب عابرة، لم تشهد اتفاقاً وخطبة، كتلك التي تنتظر الوفاء، وهو خُلُقٌ أقوى...وجعلته يغالب أحاسيسه حتى وصلنا الساحل المجاور لمدينة ((سرت)) فشدَّتنا إليها كثرة نخيلها ومزارعها البعلية، واهتمام أهلها بأشجار

التوت والتين والزيتون والأعناب، وهم أهل رفاهية ...يعيّشون آمنين مطمئنين داخل مدينتهم القديمة المحروسة بسور من تراب...ثم مررنا بإقليم ((مسراتة)) الذي يبعد عن طرابلس نحو مائة ميل، ويشتمل على قصور وقرى، بعضها في السهل، وبعضها في الجبل...

وأهل ((مسراتة)) أغنياء، يتعاطون التجارة، حيث يأخذون ما تحمله إليهم سفن ((البندقية)) ويحملونها إلى ((نوميديا)) ويستبدلون بها قطط الزَّباد، والمسّك، الواردة من الحبشة والسودان، ويحملونها إلى تركيا محققين أرباحاً من رحلة الذهاب والإياب...وهم أشداء، ولا يؤدون أية إتاوة لأحد....

وإلى الجنوب الممتد داخل الصحراء، تقع واحة ((فزّان)) المجاورة لأكدز وصحراء ليبيا المتاخمة لمصر، على بعد مسيرة قرابة ستين يوماً من القاهرة وهذه الواحة حدثني عنها سعد الطرابلسي في سياق حديثنا عن مجتمع الحرية والانعتاق قائلاً:

- إنّ سكان هذه الواحة اتفقوا على أن يكون من بينهم أمير هو بمثابة القاضي الأول للشعب، ويتصرف في جميع موارد البلاد لفائدة الجماعة.

ومن بعد ((مسراتة)) مررنا بمدينة ((زليطن))، وهي منطقة خصبة كثيرة السكان والقصور، والنخيل...ويتمتع أهلها برخاء نسبي ويعملون في التجارة مع المصريين والصقليين...

وبدالنا من بعدها إقليم ((مسلاتة)) وهو يبعد نحو خمسة وثلاثين ميلاً عن طرابلس، وفيه عدد من القرى، والقصور العامرة بالسكان الأثرياء، لكثرة ما فيه من النخيل وشجر الزيتون...

ويعيش أهل هذا الإقليم في حرية تامة، ويختارون رئيساً من أنفسهم يقوم مقام الأمير، ويدير بالتشاور معهم شؤون السلم والحرب...وفي هذا الإقليم قرابة خمسة آلاف مقاتل ...وإلى الجنوب منه جبال ((بني وليد)) على بعد نحو مائة ميل من طرابلس وتسكنها قبيلة شجاعة غنية، تعيش حرة، متحالفة مع سكان جبال أخرى في تخوم صحراء نوميديا...ومثلهم في الحياة الحرة، أهل ((غدامس)) في العمق الصحراوي على بعد نحو ثلاثمائة ميل من طرابلس، وهم أغنياء من عملهم بالتجارة مع السودان، ولهم أموال ونخيل، ويديرون شؤونهم بأنفسهم.

....

ونصل ((طرابلس)) فتستهوينا أسواقها الحافلة المنسقة، ونبقى فيها يومين...وهي مدينة كبيرة أزلية على ساحل البحر، يضربُ ماؤه في سورها، وهو من حجر جليل من بناء الأولْ ...قيل في أصل تسميتها أنها تعني ((ثلاث مدن))، وقيل ((مدينة الناس))..وقد جلنا في أسْواقها المفصولة بعضها عن البعض بحسب اختلاف الحرف، لاسيما حرفة النسَّاجين وتكثر فيها الحمامات، وتنتشر المدارس، والبيمارستانات...وأهلها تجار يُسافرون براً وبحراً، ويتعاطون التجارة مع نوميديا وتونس ومالطة وصقلية والاسكندرية، وفي شرقيها بساتين كثيرة فيها فواكه كثيرة، وخيرات جمّة..وتقوم بالقرب منها مدينة ((تاجورة)) التي يعمل العثمانيون على اتخاذها قاعدة لهم، وحاضرة أخرى.

ويحظى العثمانيون في هذه البلاد بتأييد، أساسه الموقف العدائي من نصارى الأسبان، وكانت فيما مضى ضمن الوحدة السياسية الكبرى للمغرب الاسلامي في عصر ((دولة الموحدين)) حين أشركوها في معارك

الأندلس، واتبعوا معها سياسة تخفيض العشور بمقدار الثلث إغراء لقبائلها على الولاء لحكمهم، ومع ذلك لم تتعدَّ سيطرة الموحدين على طرابلس حدود الولاء الرمزي!..

وقد فتحها القائد عمرو بن العاص رضي الله عنه سنة ثلاث وعشرين هجرية حيث حاصر فيها الروم أشهراً، حتى كان موسم الجَزْر، وغاض البحر من ناحية المدينة فأقبل عمرو بجيشه، ولم يكن للروم مفزع إلاّ سفنهم، ولم يفلتوا إلاَّ بما خف لهم في مراكبهم، وولوا إلى غير رجعة...وقد بَنى سور المدينة ((هرثمة بن أعين)) في ولايته.

ولعل ما يميز عرب هذه البلاد الممتدة بين درنة وطرابلس وما جاورها وفي الصحراء الممتدة بين القاهرة وجبال غريان ووادي الآجال وما بينها من أقاليم وواحات، نزوع أهلها إلى التحرر من حكم الفرد أو الجماعة واتباعهم نظاماً مباشراً لحكم أنفسهم في أغلب الأحوال، ولا ينحو منحاهم سوى بعض من أقاليم المغرب وإنْ بتعبير أقرب إلى الفوضى منه إلى النظام.

وقد كانت مدينة ((طرابلس)) محطة الافتراق المؤقت، تودعنا فيها، لأتّجه إلى تونس، ثم ألحق به إلى غريان لنتحرك سويًا لعمل عظيم نحشد فيه، لوحدة المغرب الكبير.

....

الاختطـاف إلــى رومــة

بضعة أشهر كـان لابد أن أقضيها بيـن الأهل والولد أطفـئ ظمـأ الأشواق، ولهيب العاطفة، ودفق الحنين المختزن في الفؤاد، وفـي الضلـوع على مدى الغربة والبعاد!..

وإذْ أوشك بُعْدي عن (فاس) يقترب من عامين منذ غادرتهـا لسـفارة المشرق، كان عليَّ أنْ أتهيأ للسفر إلى فاس لمقابلة السلطان الوطاسي محمد الشيخ، يدفعني إلى ذلك حضّ العلماء وأهل الرأي للعمل على تهيئة النفوس للتقـارب والتـآلف ورصّ الصفـوف، وتوحيد الأقـاليم، والإمــارات، دونمـا انتظار عون، أو مدد من بلاد المشرق...

وكان علَيَّ أنْ أعبر خليج قابس، إلى جزيرة ((جربـة)) لأنتقل منهـا إلى البر الليبي، في الطريق إلى غريان..

وإذْ كنت على مقربة من جزيرة ((جربة)) عند انتصاف ليلٍ قمـري في تمام بدره، داهمتنا على حين غرة، ثلةٌ مسلحة، يبدو أنهـا كـانت تترقبنـا خطوة خطوة...وأحاطت بنا فـي سرعة خاطفـة لـم نجد فيها مـلاذاً سـوى استسلام مَنْ ضعفت حيلته، وتلاشت قوته أمام بطـش الغدر والمباغتـة فقد دارت معركةٌ لا أعادها الله على إنسان، ولا ابتُليَ بها مؤمن!...

قراصنة متمرسون على الاختطاف، تقافزوا علـى قاربنـا الصـغير ككلاب متوحشة جائعة تنبح غريباً أعزل، شاهرين أسـلحة المـوت الـذي لا يمهل، وانهالوا علينـا ضربـاً وركـلاً، وبلمـح البصـر أضحـى كـلّ منـا فـاقد الوعي..ولم نفق إلاّ ونحن في قبو مركبهم، تخنقنـا الروائح النتنـة لجـرذان

متفســخة، وبقايــا هــوام ومخلفــات حيوانــات، ونجاســات وقــاذورات ...واستحكمت حلقاتها بدوار البحر، الذي لم يفارقنا إلا ليعود من بعد أن تطوى بطوننا أعطافاً...

قلت لصاحبي الجديد رفيق الشقاء مخففاً عليه هول الفاجعة:

- ولكننا مازلنا في المركب الذي هم فيه، وإن كنا في الدرك الأسفل منه...هوى بنا الشقاء إليه...

رد عليَّ وقد امتزجت علامات الدهشة الحزينة المرتسمة على وجهه ببرد الإيمان والتسليم بقضاء الله وقدره قائلاً:

- بل نحن الأعلون، وفوق قوتهم قوة الله ...ولا تنس أنّ مع العسر يسراً، وأن دعوة الشاكي من الكرب العظيم مستجابة، شأن ما دعَا بِه النبي يونس، وهو في جوف الحوت، **﴿فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين﴾**(الأنبياء/٨٧)، **﴿فاستجبنا له وكشفنا مابه من ضر﴾**.

عظم في نفسي قدر الرجل، فقد ذاق حلاوة الإيمان، واستحضر قوة الله....

وهذا هو الفارق بين من نشأ في مجتمع الإيمان، وبين أولئك الوثنيين الذين يُساقون كالسائمة في ساحل السودان الغربي، وهم لا يفقهون ديناً، ولا يملكون حيلة...

ورددتُ معه استغفار يونس عليه السلام، ونحن في ظلمات قهر، وقبوٍ تتلاطم جدرانه الصدئة بأمواج هائجة وسط بحر لُجِّيٍّ في منتصف ليلٍ بهيم...

وتقضت تلك الليلة الثقيلة بشدائد ظلماتها حتى أدركنا صباح، تنفسنا معه لطائف هوائه وشمسه الناعمة بفضل لفتة طمع من القرصان بسلامة حياتنا بعد أن أوشك قبوه اللعين أن يودي بنا...

وإذْ شرعت نسائم الحرية تمد إلينا أذرعها حين اقتربنا من مدينة ((بلرم)) حتى عجَّل بإعادتنا إلى القبو، فيما ظللتُ أبحث عن إجابة على سر اختطافنا...

ماذا يريدون من اختطاف اثنين أعزلين، لا مال معهما يغري، ولا تجارة تربح؟!... وعمامتي، ولحيتي وكهولتي المنسوجة من مسائل الفقه ومناظراته واستنباطات الأحكام، وأشغال القضاء، ومغامرات الترحال..ماذا سيحقق لهم ذلك حتى في أعمال الخدم أو فلاحة الأرض أو حمل الأثقال وغيرها من الأعمال الشاقة؟!.. ثم إنَّ هيئتي هذه لا ينطبق عليها أن تكون من نوع الرقيق الأبيض أو الأسود، ولا هي مما تستلطفه القصور...يا إلهي!! ماذا يريدون باختطافنا؟ هل يريدون أنْ يبادلوا بنا أسرى لهم؟ ما أظن ذلك...فليس في ممالكنا سلطان خاض معهم معارك سوى حُروب العثمانيين في بلاد البلقان!...

إذن ليس من هدف لهم في القرصنة إلا أن أباع عبداً، فهذا حال علاقات عصر التدهور والانحطاط...

يا للمذلة، والمهانة!!... أهذه خاتمة العمر؟!

وبإحساس من لبسه عار العبودية الذي ما توقعته في يوم من الأيام، قلت لصاحبي:

- ما ظنك بفقيه، قاضٍ، رحالة وسفير، يشريه قريباً تاجر أو نبيل أو أمير من العلوج، فيلاحقه خزي العبودية وأهله وذريته من بعده.... قاطعني مشاركاً أحاسيس الألم وعذاب النفس قائلاً:
- والأنكى من ذلك، بل الأدهى والأمرّ أنْ نباع في أرضٍ لم تعرف من شعبنا وأمتنا إلاّ أحراراً فاتحين...

عدت أتحدث ولكن في المفارقات الأليمة قائلاً:
- هذه جزيرة صقلية فتحها الفقيه، القاضي الأمير «أسد بن الفرات» سنة اثنتي عشرة ومائتين، على رأس جيشٍ من قريش والعرب والبربر تظللهم جميعاً راية التوحيد...

وجاء من بعد ذلك زمنٌ من العمران نهض به أحفادهم، واعترف لهم بذلك النورمانديون الحكام الجدد لهذه الجزيرة، الذين اعتمدوا على أصحاب الفكر والعلم والفنون من العَرب..فهذا العالم البلداني والفلكي/أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، يفد إليهم من العدوة المغربية، استجابة لدعوة من «روجار الثاني» صاحب صقلية الذي وفّر له مختلف الإمكانات والفضة الخالصة، فأنجز له بها قبة سماوية، وخريطة على شكل قرص فضي للعالم، بيَّن فيها مناطق العالم المعمور، وأماكنه، بعد أن استقصى المعلومات واستقاها من الرحالة والتجار وأهل البحر...ثم جعلها في كتاب سماه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»...

وأنجز كتاباً آخر سماه «حديقة الحضارة، وإقناع الروح» بناءً على طلبٍ من وليام الأول...

ثم يكون من بعد ذلك زماننا هذا الذي نُساق فيه عبيداً...فيا للعار!...

ردَّ عليَّ صاحبي محاولاً تخفيف مرارة ما نحن فيه قائلاً:

- ما أظن فقيهاً وقاضياً ورحالة وسفيراً مثلك يسقط في شباك العبودية، فإنَّ حاجتهم إليك حين يعرفـون حقيقتك ستجعلهم يتوددونك، ويكلونَ إليك أعمالاً تليق بمكـانتك...وعندهـا تـأتي مسؤوليتك فـي تخليصـي مـن رق مؤكد ومؤبد!..

وأخذنا كلما أمكننا التحدث نعيد طـرح التساؤلات، ونفترض لهـا الإجابات...ولستُ أذكر حالة من القلق والأرق والفزع والإحسـاس بالخيبـة كالتي نحن فيها والقراصنة يقتادوننا في عرض البحـر إلـى وجهـة مجهولـة لنا، وإلى هدف مازالوا يضمرونه في صدورهم...

وفي خضم الهموم وسحب الكآبـة حـاول صـاحبي أن يشـق بحديثـه سبيلاً إلى التفاؤل، وتناسي ما نحن فيه قائلاً:

- لقد زرت هـذه الجزيـرة أكثر مـن مـرة، كمـا زرت جزيـرة مالطـة، فـي مراكب البنادقة، وهم أهل تجارة وسمعة حسنة ومهـارة فائقـة...قاطعتـه قائلاً:

إنْ كـان ولابـد مـن حديث مفيـد، فليكـن عـن جزيـرة صقليـة التـي زرتها...

تبسم وقال:

إنها أقرب برٍّ من مالطـة، تبعُد عنهـا ثمـانين ميـلاً...وهـي جزيـرة عظيمة حصينة فيها أكثر من مائة وثلاثين بلداً بين مدينـة وقلعـة، غيـر مـا فيها من الضياع والمنـازل وطولهـا إنْ شئت بالأيـام سـبعة أيـام وعرضـهـا خمسة أيام...وهي كثـيرة الـزرع والضـرع والفاكهـة، وفيهـا بركـان عظيـم يذكر بنار الجحيم في قوم غلف القلوب...إذا هبّت الريـح الجوفيـة سـمع لـه

شهيق وزفير، ودوي هائل كالرعد القاصف...وما أظن قوماً جاوروا هذا الجحيم، وتمادوا في أعمال القرصنة، وبطروا ما أنعم الله عليهم من الخيرات، إلاَّ لأنَّ اللعنة قد حلَّت عليهم وستظل تلاحق الأجيال التي بعدهم...فهم كالنار تأكل بعضها إنْ لم تجد ما تأكله...

وإذْ صرنا على مقربة من ساحل «نابلي» أطلق القرصان لنا أنفاسنا الحبيسة ثانية، فعجبت من أمره، لكنه بادر هذه المرة بحديث مقتضب بغية تبديد ما قرأه على وجهي من استغراب، وبعربية مكسرة، ولكنةٍ إيطالية قال:

– لقد مررنا بجزيرة صقلية، وهي أرض أعطت الولاء والحكم لأسبانيا، ولو رآكم الأسبان لانتزعوكم منا...فبينكم وبينهم ما صنع الحداد...

تحاملت على نفسي المتميزة من الغيظ وقلت مخاطباً القرصان:

– ولكن ما الذي بيننا وبينكم من العداوة حتى تختطفونا؟...

لكنه تركنا لمساعديه يعيدوننا إلى القبو، وكأنه يريد أنْ يجيب على سؤالي من خلال قسوتهم وألفاظهم البذيئة المنكرة على أمتنا رسالة الهداية....

متمتمين بذكر الحروب الصليبية المقدسة...ثم قاموا بتكبيلنا وربط أيدينا إلى ظهورنا حتى بلغنا ميناء نابلي، فاقتادونا إلى مفرزة القراصنة، ومضوا بصاحبي من بوابة غير البوابة التي سلكتها مع القرصان في الطريق البري إلى رومة...

وأصبحت عبداً، أسيراً، مكبلاً، وحيداً من الصحبة والرفقة، يهيم بي القرصان اللئيم في أرضٍ موغلةٍ في الحقد والجهل، استبد بها حكم الإقطاع مئات السنين، مسلوبة الإرادة يحكمها ملوك، وتتعاقب على إدارتها

أسر من خارجها، حتى قام النزاع بين فرنسا وأسبانيا يدَّعي كلٌ منهما حق وراثة العرش في مملكة نابلي..

ولأول مرة كنت أمضي أسيراً غير حافل بمن حولي من البشر الذين استخفهم أمراؤهم، وباتوا لا ينكرون مظاهر العبودية والاستعباد على أنفسهم قبل غيرهم...

وإذْ نقتربُ من ((روما)) كان القرصان قد تمكَّن من الإحاطة علماً بقدراتي، وحدَّد في ضوئها وجهته إلى قصر ((القديس أنجلو)) ليقدمني هدية إلى حبر روما العظيم البابا يوحنا ليون العاشر، تفكيراً عما اقترفه من ذنوب تنوء بحملها الجبال!!...

وأستغفر الله أن يُشرِّع الرب للاستعباد...فما عهدتُ الكفارة في الإسلام إلاَّ في عتق الرقاب، وغيرها من أعمال البر والمعروف...

....

في قَبْو السِّجن

خلوة وحوار

وفي قصر القديس أنجلو حبست في قبوب بأسفله..كابدت فيه مشقة الحبس الانفرادي شهراً كاملاً حيث لا أنيس ولا جليس، ولا ما يصلني بعالم الأحياء إلاَّ ما يمدني به حارس –معقود اللسان، منزوع الفؤاد، غائب العقل– من طعام وشراب كما يُعلف خروف العيد!... لا أُميّزُ بين أوقات الليل والنهار...واستوى في حبسي وقتي..وتداخل أمسي، بيومي، وغدي،..وبتُّ لا أدري هل غدا يوميَ أمسي؟ أم مازال أمسي

يومي؟ أم قد أدركت بشائر صبحي؟...إني في شك من وقتي!!... وافتقدت الأذان إذْ صمَّت أذناي نواقيس وأجراس لم أُهْدَ منها على وقت، وليس في اصواتها كلامٌ يفهم...ولو أنَّ أذاناً يرفع لحددتُ به الأوقات، وأنستُ مع ندائه في التذكير بوحدة الخالق، وسواسية الخلق، فلا كبير إلاَّ الله، ولا إله في الكون يعبد سواه...

ويقبل القرصان اللعين كالكلب يتبع سيده الفلورنسي آمر القصر، حتى إذا اقترب السيد مني دفع القرصان إلى الوراء، وحيَّاني باعتذار شديد أزاح عني كوابيس شهر الوحشة والعزلة القاتلة...

كان يعاني صعوبة كبيرة في التحدث بالعربية معاناتي في التحدث بالإيطالية....

وعلى الرغم من هذه الصعوبة لكنها لم تحل دون وقوفه على حقيقتي ...وتهلل وجهه، وانبسطت أساريره، وقال كلاماً فهمت منه أنه وجد فيَّ ضالة البابا...

وعندها عاد بضع خطوات إلى الوراء حتى إذا كان بمحاذاة القرصان التفت إليه يمنحه التقدير، ويبدي له كامل الارتياح ويخاطبني قائلاً:

- لكأنما أرسل الله القرصان للبحث عنك في البحار والأمصار على نحو ما يتمنى حبرنا الأعظم!...

ثم أمر بتحسين معيشتي، وتلبية طلباتي، واستبدل الحارس بمراقب دمث الأخلاق يصطحبني في ردهات القصر وحدائقه السفلى....ووفَّر لي ما طلبت من لوازم الكتابة، والثياب النظيفة...

وساعتها صار حبسي خلوةً جعلتها للقراءة والكتابة والعبادة...واجتهدت في الاطلاع على ما ينشر، وقراءة ما يكتب، وسماع ما يهمس به أو يُتحدَّث ...وتبيَّن لي أن بلدان أوروبة تموج بالحوادث، وتموج بالوقائع...دُولٌ تتحد، وأخرى تنفصل، وممالك تتحالف، وأخرى تتحارب، وتبرم اتفاقيات، وتنقض معاهدات، وتقوم أسر، وتزول أُخَر، ويقوى أمراء، ويؤسر ملوك...

وإذْ يدور الصراع وتحتدم معاركه بين كل من فرنسا واسبانيا وانجلترا لكن رحاه غالباً ما تكون في البلاد الايطالية والجرمانية التي انقسمت إلى دويلات، وإمارات مستقلة بعضها عن بعض، وفي خصومة دائمة فيما بينها مما جعلها قطوفاً دانية في متناول القاطفين المتنافسين عليها...ووجه الشبه كبير بينها وبين ما كانت عليه ممالك الطوائف الأندلسية، ارتبط ضعفها بالتناحر والفرقة على الرغم من نمو التجارة والصناعة، وازدهار الأدب والفن فيها، وأضحت مدن فلورنسه ورومة والبندقية وميلان مراكز للثقافة والإشعاع الفكري، والأدبي والفني.... واشتهر فيها عمالقة في مختلف الفنون...وكان عليَّ أنْ أحيط علماً بسيرهم الذاتية وأعمالهم التي أكسبتهم الشهرة....

قرأت رائعة دانتي ((الكوميديا الإلهية)) ووجدتها متأثرة برسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وبنصوص الصوفي الأندلسي ((ابن العربي)) التي وصف فيها عروج النبي عليه الصلاة والسلام إلى السماوات العلى...

وتأملتُ في فكر النهضة العلمية فوجدته ينزع نحو التفكير العلمي الحر الذي اتسمت به مراكز الحضارة الإسلامية التي اتصل بها الأوربيون وفي مقدمتهم الإيطاليون عبر صقلية، وأسبانيا، وأثناء الحروب الصليبية...

وقرأت في أسس النهضة العلمية الأوروبية فوجدتها تعتمد إلى مدى بعيد على علوم الفلسفة والطب والهندسة والرياضة والانسانيات لعلماء مسلمين درسوا علوم الإغريق، وبسَّطوها بعد أنْ نقدوها، وصححوها، وأضافوا إليها من نتاجهم أمثال الكندي، وابن سينا، والفارابي والرازي ومسكويه وابن الهيثم، وابن طفيل، وابن رشد...

وتعمقت في قراءة فنون الرسم والنحت والتصوير، فوجدتها أوروبية بحتة في معظمها..حاكى بها الفنانون آثار الإغريق والرومان في الروح والتعبير، وأبدعوا بمواهبهم إضافات عدة، وغلّبوا عامل الرغبة في الكمال الفني على العامل الديني في الوقت الذي أغدقت فيه الكنيسة عليهم كما الأمراء جزيل العطايا، وحفتهم بالتكريم وعاشوا في رعايتها...

ويمكن لقادم مثلي من بلاد الإسلام أن تكون له نظرة مختلفة إلى روائع عباقرة الفن الأوروبي...ففي الوقت الذي يشهد لهم بالنبوغ والإبداع لكنه يرى في مقاصد فنونهم ما لا يتفق والقيم النبيلة، فالصور العارية، والتماثيل المنحوتة من الرخام، إذا ما زينت بها جدران الكاتدرائيات والكنائس أعطت بعريها شكل الخارجين من الحمامات إلى حجرات التجفيف مما لا يليق بدور العبادة!...

وإذا ما زُيِّنت بها الميادين العامة ومداخل القصور، فإنّها أدعى لمن له حسٌّ فني مرهف ألاّ يراها عاريةً تعذبها الثلوج، وزمهرير الشتاء وأمطاره الشديدة، وإذا ما جاء الصيف لفحتها أشعة الشمس، واتخذت الطيور من بعض أجزائها أو كاراً، ومن البعض الآخر مواضع لنفاياتها...

صحيح أن الصور والتماثيل مجسمات من جماد لا يحس، لكنها رسمت ونحتت لتتعامل معها عيون المشاعر والأحاسيس، ناهيك عن كونها محاكاة لصنع الخالق!...

ورائعة [ليونارد دفنشي] ((موناليزا)) الشهيرة أو ((جيوكوندا)) التي استغرقت لرسمها منه أربع سنوات، تبدو عملاً فنياً عظيماً بابتسامتها الغامضة التي يصحبها بريق في عينيها، وانثناء إلى أعلى من شفتيها ينم عن السرور الذي لم تحاول كبته...لكن دلالة قصتها تخدش حياء الحياة الزوجية، فالصورة لسيدة شابة جميلة زوجة ضابط يكبرها سناً ..وكان حاكم فلورنسة معجباً بجمالها الهادئ الحزين، فأمر الفنان ((ليوناردو)) برسمها!!...

ومن روائع فنه لوحتان بديعتان إحداهما سماها ((عذراء جروتو)) والأخرى ((العشاء الأخير)).

ومثله نبغ في النّحت الفنان [ميشيل أنجلو] حتى غدا أحد عمالقة الفن وقد ذاع صيته عندما قام بنحت المجموعة الرخامية التي تمثل فيها ((العذراء والطفل)) وهو فنان متعدد المواهب فقد تفوق في التصوير، وهندسة البناء، وكتابة الشعر... وقرأت عن الفنان [روفائيل] الذي تعلم من [بيروجينو] إدراك الأبعاد، ومن [ليونارد دافنشي] أساليب توزيع الضوء والظل في إبداع الصور، ومن [ميشيل أنجلو] دراسة الجسم البشري...واتسم فنه في قدرته الإبداعية في توافق الألوان...واستحق أن يحظى بحماية البابا...

على أنّ الإنصراف إلى ممارسة الفن لغرض الفن، والإنفاق عليه بسخاء بالغ في وقتٍ تعاني فيه رومة ضائقة اقتصادية، وغلاء معيشة،

وأعداداً متزايدة من الفقراء والمعوزين يغدو استضعافاً لشأنها وتهديداً لنظامها!...وهو من ثم بطرٌ للنعمة، واستخفافٌ بالإنسان....

وكان على رجلٍ حبيسٍ في قصرِ القديس أنجلو مثلي أن يحيط علماً بحياة البابا والكرادلة حتى يحسن التّعامل معهم، ويعرف كيف يحرك لسانه وأين يضع قدميه، فأخذتُ أستقصي الأخبار، وأستشف المعلومات، وما أيسر أن تتدفق دونما عناء طالما ساد الإحباط حياة الناس!...

ولم يعد خافياً على أحد حياة البذخ، واقتناء النفائس، واتخاذ الخليلات من قبل أمراء الكنيسة وكرادلتها والذين تشبه الكثيرون منهم بحياة الملوك والأمراء المترفين...

وليس في ذلك ما يدعو إلى العجب طالما أقدم البابا على بيع المناصب الكهنوتية لمن يدفع أكثر من غيره حتى وصل الثمن إلى ثلاثين ألف دوكا...وأضحى هَمُّ موظفي البابا في الولايات البابوية فرض الضرائب، وجمع الأموال وإرسالها إلى رومة التي تعيش عالة على المدن الأخرى، وتستنزف خيراتها في بناء القصور والكنائس والإغداق على محميي البابا من الفنانين والنحاتين والشعراء...وإذ لم تف تلك الأموال بتغطية تكاليف إنجاز كنيسة القديس بطرس ولا بتلبية نَهَم المؤسسة الكنسية فقد ابتُدع لذلك موردٌ ماليٌّ في صورة صكوك عرفت بصكوك الغفران، والتي تعود نشأتها إلى فكرة الاعتراف أمام القسيس لقبول توبة المعترف الذي لا يدخل الجنة بعد موته مباشرة بل تمر فترة من الزمن بما يسمى ((المطهّر)) وفيه يقضي المذنبون حكم الله بالعذاب حتى يتطهروا من ذنوبهم...وقد ابتكرت الكنيسة صكوك الغفران لتخفيف عذاب المطهر هذا

..بل ذهبت في الاستخفاف بالعامة مدى أبعد، حين أقدمت على بيع صكوك الغفران لمن يريد غفران خطاياه القادمة...

وإذْ لم يحقق البابا من اجتماع السلطتين الدينية والدنيوية، كنيسة متبعة، ودولة مهابة، فقد أخذ مذهبان في النمو...أحدهما سياسي يتجاوز رجال الكنيسة ويحتقر الرهبان، ويدعو إلى ممارسة السياسة من خلال أمراء وطنيين..ويتزعم هذا المذهب ((نيقولا مكيافللي)) الذي ألَّف كتابه ((الأمير)) وضمَّنه رؤيته عن أصول الحكم وفن السياسة معتقداً فيه أنَّ خير حُكْمٍ مُنْقِذٍ لإيطاليا من الانقسام والغزو الأجنبي هو الحكم الاستبدادي المستتير الذي يتجاهل المثل الخُلُقية والدينية، إنْ رأى فيها ما يعرقل نجاحه أو يوقف تقدمه، فالغاية تبرر الوسيلة!...

وقد أقبلتُ على قراءة الكتاب بكل ما تضمنه من غثٍّ وثمين...فهو ينادي بضرورة وجود جيش وطني عوضاً عن الجنود المرتزقة، فإنَّ على الأمير أن يجند جيشاً وطنياً يرهبه ويخلص له، وأن يختار وزراءه، وحاشيته من أفاضل الرجال وحكمائهم، ويفتح بابه لأصحاب المواهب والكفايات حتى تصبح حكومته جمهورية مثالية تخشاها وتلتف حولها...

وينصح الأمير بأن يكون إنساناً وطاغية في آنٍ واحد معاً، وإنْ لم يكن كذلك فلا بقاء له، وعليه أنْ يكون مخادعاً عند اللزوم، ولا يرتبط بوعدٍ بذله، ولا لعهدٍ قطعه على نفسه، وألاّ يعطي الحرية للناس إلاّ بقدر، لأنهم في كثير من الأحيان يسيئون استعمال الحرية، ويستغلون مراكزهم... ويطلب من الأمير أن يتخذ الحزم والقسوة أسلوباً يحكم به الرعايا حتى يخشوا بأسه، ويحذروا بطشه، وفي الوقت نفسه يعمل على إسعادهم بالسعي

في إقامة مصالح نافعة تدر عليهم الخير الوفير، فيرهبونه ويحبونه في وقتٍ معاً...

وإذا كان هدف الأمراء والحكام سلامة مواقعهم، والاحتفاظ بسلطانهم بعيداً عن الخطر، ولفترة طويلة، فلا بد لهم أن يعرفوا الحالات التي تتطلب ارتكاب الأخطاء، وعليهم أنْ يمارسوا كل عمل مما قد يعتبر من وجهة نظر الداعية الأخلاقي أنه لا يمكن التسامح به و غفرانه!...

ومهما كانت أهدافه النهائية ترمي إلى توحيد البلاد، ورأب الصدع، وجمع شتات الوطن الإيطالي الممزّق،وتحقيق المصلحة العليا للبلاد، إلاَّ أنَّ إطلاق مقولته ((الغاية تبرر الوسيلة)) على عواهنها من شأنها أنْ تعالج الأخطاء بأخطاء، وتشجع الوصوليين والانتهازيين، والمغامرين، وعشاق السلطة على صنع المؤامرات، والقيام بالانقلابات التي تزيد في فوضى الأوضاع، وإزهاق الأرواح، وانتهاك الأعراض...

وما أخال هذه المقولة إلاّ طمراً للأخلاق، وقد أسس [مكيا فللي] مذهبه فعلاً على أساس الفصل بين السياسة والأخلاق...وما فصلت السياسة عن الأخلاق إلاّ قادت إلى هاوية الحروب ودمار الشعوب...فالأخلاق أساس العمران..

وعندما حاول جنكيز خان أن يسوس الناس بتشريعات تترية وفارسية بصيغة توفيقية مع أحكام من الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية سماها ((الياسة)) وجمع العلماء في ((ماردين)) لإقرارها ومباركتها، رفضها علماء المسلمين وقالوا إنّ (الياسة) ليست سياسة...وأسرع شيخ الإسلام ابن تيمية إلى تأليف كتاب ((السياسة الشرعية في إصلاح الرّاعي والرعية))..

وتوخى مؤلف كتاب ((رقائق الحلل في دقائق الحيل)) الذي قُدِّم للأمير سعد الدين سنبل بن عبد الله البدري أنْ يعطي المعنى الدقيق للسياسة على أنها الحيلة التي توفر الجهد والوقت، ولا تعني المكر والخديعة...

وعندما تحدث العلامة ابن خلدون عن الدولة والملك في مقدمته، ميَّز بين السياسة الشرعية والسياسة الدنيوية، فالأولى هي التي تتغيا بتدبير عمران الدنْيا تحقيق سعادة الآخرة، وإنسانها خليفة الله يتعبده بسياسة العمران الدنيوي، فهو عبد الله وحده، وسيدٌ لكل شيء بعده.

بينما السياسة الدنيوية التي تقف بمرجعيتها عند عقلاء الدولة وأكابر بصرائها، فإنها تتغيا مصالح الدنيا فقط!...

ولئن جنح مكيافللي بالسياسة بعيداً عن الأخلاق، وجعلها تحت رحمة الحاكم الذي قد تستبد به شهوته فتسطو على كرامة المحكومين، وحقوقهم، وحرياتهم. فقد أخذ يظهر على نقيضه مذهب ديني احتجاجي شرعَ يُبَشِّرُ بِهِ مصلحٌ ديني من سكسونيا يُدعى [مارتن لوثر]...

وفحوى مذهبه أنَّ الإيمان المطلق برحمة الله يكفل النجاة من عقابه، وأنَّ الصلاة والعبادة بجميع طقوسها وأشكالها ليست كافية للخلاص من الخطايا، وإنما يتخلص الإنسانُ من خطاياه بإسداء الحمد والشكر من قلبٍ طاهر سليم إلى العلي القدير...

وقد اهتدى مارتن لوثر إلى هذه العقيدة من دراسته للكتاب المقدس ورسالة الرسول بولس إلى مسيحيي روما، وسميت بعقيدة التبرير بالإيمان، وظل يبشر بها بين تلاميذه في هدوء وسلام، حتى قدم إلى ألمانيا موفد البابا ليوزع صكوك الغفران، فأثار ذلك [مارتن لوثر] وأعلن احتجاجاً

طويلاً يشتمل على خمس وتسعين مادة ضد صكوك الغفران وعلّقها على باب الكنيسة، وأوضح فيها أنّ الغفران رهنٌ برحمة الله وحده، وأنّ البابا لا يملك لنفسه حق التدخل في غفران الذنوب.

ووجدتُ في سلسلة كتاباته الدينية -التي مازالت تتواصل، وتعبئ العامة، وتثير حفيظة الخاصة- وجدت فيها دعوة إلى الناس أنْ يبحثوا بأنفسهم عن الحقيقة في الكتاب المقدس، وأنّ البابا ليس وحده صاحب الحق في احتكار الكتاب المقدس، وأنّ ادعاء الاكليروس بأنهم أصحاب الكلمة الأخيرة، وأنهم يختلفون عن عامة الناس ما هو إلاّ محض ادعاء كاذب...

وقد أهاب بأمراء ألمانيا وفرسانها أن يتزعموا حركة الإصلاح الديني، وبنى دعوته لهم على أساس أنّ رجال الدين خاضعون للسلطة الزمنية.

من جانب آخر طالب بوجوب إنقاص عدد الأديرة، وبعدم ضرورة الحج إلى رومة، ووجه أعنف النقد للكرادلة على حياة البذخ والرفاهية والإسراف والتشبه بالملوك والأمراء العابثين، ونشر رأيه بإباحة الزواج لرجال الدين معرضاً بأولئك الذين ابتدعوا رهبانية انتهكوها سراً بما لا تبيحه الأخلاق والشرائع.

....

وهكذا بدا لي عالم أوروبة من خلوتي....

شعوب تتلوى في آلام المخاض بين المذاهب...

وحكام يعيشون على أسنة الرماح.....

وبابا فتح على نفسه صراعاً متعدد الأطراف والخصوم، وبات في وضع لا يحسد عليه....

قال لي مراقب حبسي الذي أضحى صاحباً وجليساً:

- لا تحزن حالك!...فكل رومة حبيسة الكرادلة!...والناس في مشقة وقد بلغت القلوب الحناجر...والأمراض تفتك، والموت يحصد..والفرار على أشده إلى المدن الأخرى..والأيام حبالى، وقريباً تضع أحمال الخلاص!...

- قاتل الله القرصان اللعين، أيختطفني لمثل هذا الوضع المتردي؟

- بل لتشهد بأم عينيك فترةً من أدق فترات أوروبة بحلوها ومرها..وأما تردي الأوضاع في رومة بالذات، فإنها لن تطول، ولعل في ذلك خيراً لك فتكون محل اهتمام البابا الذي بات يعتقد بالقشّة خلاصاً من الغرق...

....

ولم تمض سوى بضعة أيام حتى أقبل عليَّ مهرولاً يبشرني بمقابلة البابا بمناسبة عيد القديس [فالنتينو]، وأسرع يعلمني مراسيم المقابلة، حتى وصل آمر القصر، فأحسن هندامي، وسار بي إلى البابا، فوجدتُ القرصان اللعين جاثياً قبلي عند قدميه إيذاناً بتقديمي هدية منه عسى أنْ يغفر له البابا ما تقدم من ذنبه وما تأخر أخزاه الله! ودُفعتُ لأجثو مثله، وما جثوتُ طيلة عمري إلا سجوداً لله الواحد الأحد...وما أصعبها من مكابدة ومعاناة أن يكره المرء على الركوع والسجود لغير الخالق...

وإذْ أحسست بالمهانة كانت قد امتدتْ إلى ظهري يدٌ متلَطِّفة..إنها يد البابا الذي ظل محتفظاً بها على ظهري تخفيفاً لوقع ألمٍ أدركه فيَّ، ولم يشأه لي لولا تظاهرٌ منه أمام القرصان قائلاً بعد كلمات شكر له:

- [ربّ طهر الرّجسُ من أركانه].

ففهمت لحظتها أنه لا يقر القرصنة، ولكنه بررها لغاياته، كما صنع في صكوك الغفران لإنجاز كنيسة القديس بطرس!..

وما أن خرج القرصان وإلى غير رجعة حتى أنهضني البابا بنفسه، وقربني منه متودداً، وأخذ يحادثني بلطف، ويشعرني أنـي لست خادمـاً بـل أحد محمييه إذ قال:

- مثلك علماً وأدباً وخبرة في الحياة، وصلة بالملوك والأمراء، لا يختَطف، ولا يُعَرض لمهانة، ولكن ضلال القرصان، وخطاه الموغلة في الرذيلة عرفتنا بطهرك ونبلك..شأن الكثيرين من العظماء يتعرضون لفتنة التمحيص والابتلاء أليس كذلك؟

قلت له وقد استويت من الإنحناءة القسرية:

- بلى أيها الحبر العظيم...وفي القرآن الكريم تحدثنا سورة يوسف عن قصته المأساوية على يد إخوته الذي ألقوه في غياهب الجب، ليلتقطه بعض السيارة ليباع في سوق النخاسة، ليغدو خادماً في بيت امرأة العزيز التي راودته عن نفسها وغلقت الأبواب وقالت هيت لك، ليسجن بسبب عفته، ونبل قيمه، فيستقبل قرار القصر الجائر برضى المنتصر لمبادئه وقيمه قائلاً: السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه...ليدور بينه وبين السجناء لأسباب أخرى حوار العقيدة التي آمن بها ولم يتخل عنها في أحلك الظروف قائلاً : يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير؟ أم الله الواحد القهار؟ ليعرف عنه قدرته على تأويل الأحلام، ليكون اقتراب العزيز منه مكتشفاً فيه كفاية عالية في إدارة المال، ليمكنه من خزائن مصر، ليقصده إخوته على غير معرفة أنه غدا صاحب هذا

المقام المحمود، فقد كانوا ألقوه طفلاً في تلك الغياهب وجاءوا على قميصه بدم كذب اتهموا فيه الذئب.

حاول أن يستدرك تشبيهه بعزيز مصر قائلاً:

- لكن عزيز مصر كان صاحب سلطة زمنية..ثم أراد أنْ يستوثق من رأيي متسائلاً: أم أنك ترى ضرورة الفصل بين السلطة الدينية وبين السلطة الزمنية؟

- لا أرى سوى ما ورد في كتاب الله في سورة المائدة في قوله تعالى : **﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونور، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء، فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾** وفي قوله تعالى : **﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيمناً عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾.**

وعلى هدى كتاب الله حكم الرسول محمد والخلفاء الراشدون من بعده بالعدل والشورى، والسهر على مصالح الرعية، وحققوا المساواة وأشاعوا حياة المودة والتراحم والتكافل، وجعلوا من أنفسهم قدوة حسنة، فسعدتْ بهم الأمة، وتأسست في ظل حكمهم أركان العمران، والازدهار، ويوم استبدت السلطة الزمنية بالحكم، وغدا ملكاً عضوضاً واكبه طغيان القوة التي اضطربت في ظلها حياة المجتمع، ودبت عوامل انهيار العمران شيئاً فشيئاً حتى أتت على بنيانه من القواعد.

سُرَّ لما قلتُ، والتفتَ إلى الترجمان معرباً عن ارتياحه قائلاً:

- قبل أنْ أجد إجابةً من كريم الأصل عن تسمية السورة بالمائدة، أبلغه أننا نسير في طريق واحد...

قلت له مؤكداً رأيه:

- وإنّ النور الذي يضيء طريقنا ينبعث من مشكاةٍ واحدة...وليت الأتباع والأشياع يسيرون على نهج أنبياء الله..أما ((المائدة)) فالمقصود بها مائدة العشاء الأخير التي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء، قال: اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا: نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا، ونعلم أن قد صدقتنا، ونكون عليها من الشاهدين. قال عيسى ابن مريم: اللهم ربنا أنزل علينا مائدةً من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا، وآية منك وارزقنا، وأنت خير الرازقين. قال الله: إني منزلها عليكم، فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾.

وإنّ يهوذا الاسخريوطي أحد الحواريين كان غدر بالسيد المسيح وكفر بنعمة المائدة فعذبه الله عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين...

نظر البابا في وجهي طويلاً دار لها رأسي...لكنني سرعان ما تمالكت نفسي مبدياً ثقتي الكاملة بما قلت...فإذا نظرته كانت بعيدة عما تبادر إلى ذهني حين سمعته يقول : أكرموا وفادته...وأحسنوا ضيافته..وأفسحوا له قدراً أكبر من حرية الحركة في القصر...والتفت إلي متسائلاً:

- هل تقبل أن تكون أحد سفرائي يوماً ما؟

- حيث يضعني الحبر الأعظم يجدني مخلصاً لله والحق الذي صدع به أنبياؤه....

- إذنْ فلنبدأ المشوار بخطواته الأولى:

تتعلم اللاتينية، والمسيحية والانجيل، والعبرية، والتركية وتُعلِّم نفراً من الكهنة العربية...ولك لقاء ذلك العمل ((دوكا)) ذهبية في كل شهر...وسألتقي بك مرة كل شهر...

وتعلمت الألسن التي حددها لي البابا، وتعلمت المسيحية واللاهوت والانجيل على يد الكهنة من قبيل المعرفة لاكما أرادوها تربية لفقيه، وقاضٍ مثلي جاوز الأربعين سنة.. غير أني لم أظهر لهم تبرماً، ولا دخلتُ معهم في مماحكة...فإني أسعى صابراً إلى نيل حريتي التي لن أجدها إلاَّ إذا اعتقدوا أني صرت على دينهم...وإنهم ليسعون حثيثاً للبلوغ بي إلى يوم التعميد...

ولشعوري الذي لم يراوده شك أني سأكره يوماً ما على النصرانية ولا يمكن لي أنْ أعيش عيشة إسلامية في بؤرة المسيحية، وإذْ بات من الضرورة بمكان أنْ أتظاهر بالتمسح تستراً، وعملاً بقوله تعالى: **﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلاَّ من أكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان﴾**.

فقد وَطَّنتُ نفسي طيلة حياتي في إيطاليا على العمل لإسلامي، ولساني العربي ما وجدتُ إلى ذلك سبيلاً، مقتنصاً الظروف المناسبة، ومنتهزاً الفرص السانحة، بالتأليف تارة، وبالتدريس تارة، وبالحوار والنقاش تارة وبتوظيف عملي تارة وبسلوكي تارة...

وقد وفقني الله أن أنجزت كتاباً في العقيدة والشريعة الإسلامية على مذهب الإمام مالك بن أنس، وأنجزت كتاباً في التاريخ سميته ((مختصر تاريخ الإسلام))، وكتاباً في التراجم باللاتينية عرّفتُ فيه بثلاثين شخصية بارزة من فلاسفة العرب وأطبائهم، وكتاباً في الجغرافية العامة،

أعدتُ كتابة جزئه الثالث بالإيطالية وسميته ((وصف إفرايقية)) اعتمدت في كتابته على مشاهداتي وخبراتي الشخصية بما علق في ذهني مما رأيت منذ فترة طويلة، وليس لي من مرجعٍ مكتوب سوى ما استوعبته عن ابن الرقيق القيرواني، وعبد الرحمن بن خلدون...

وقمتُ بتدريس العربية للخاصة من رجال الكنيسة كما أمَر البابا، ومضيتُ أُدرسها فيما بعد لعامة الطلبة في مدرسة بولونيا، بحسبها روح وعاء فكر الأمة الإسلامية...أولَم يتنزل القرآن الكريم بلسانٍ عربي مبين؟!...

وينتظم لقائي بالبابا..وفي كل لقاء جديد أجده يزداد ارتياحاً إلى ما قرأته من علوم الدين المسيحي...

وإذْ ظنّ أنّ حصيلة هذه العلوم الدينية باتت تؤهلني للقب [مرزبان] فقد كان ذلك إيذاناً بتعميدي.

....

مرزبان وتعميد بالإكراه

وإذْ ظن البابا أن حصيلة العلوم الدينية باتت تؤهلني للقب [مرزبان] فقد كان ذلك إيذاناً بتعميدي في صبيحة اليوم التالي ...وودعني، والبهجة تغمر وجهه قائلاً:

– أنت منذ اليوم حُرٌ، وواحد منا...وغداً نحتفل بك في كاتدرائية القديس بطرس.

قلت في نفسي مزدرياً ما سمعت:

- حرٌّ؟ ومتى كنت عبداً؟ أَلَمْ تلدني أمي حرًّا؟ أم أنّ القرصنة عمل مشروع؟ عجباً للحبر العظيم يرهن حريتي باعتناق دينه...

جلّ الله، وسما دينه، وعظم رسله...فقد جاء في القرآن الكريم:﴿لا إكراه في الدين﴾.

﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟﴾

وأمضيتُ ليلة قلقة مهمومة، ضاقت بي أرضها، وأطبقت عليّ سماؤها...

فأنا الذي فررت من الحبر الجبار المتعصب الكردينال ((خمنيس)) أسقف غرناطة أقع هكذا بيُسْرٍ أسير الحبر الأعظم البابا يوحنا ليون العاشر؟!

أنا الذي جاوزت من عمري الأربعين، حرًّا في ما ألبس... أرتدي غداً ملابس النصرانية، وأحضر القداس؟

أنا الفقيه القاضي المتبصر بديني أساوم على حريتي بالارتداد عنه؟

وأخذت أقلب الأمور، وأبحث عن المداخل والمخارج، وأتلمس سبل الخلاص... ولم يكن أمامي سوى مواجهة قدري على مذهب أهل التقية!...

احتفل بي في عيد الغطاس في كاتدرائية القديس بطرس...

وارتديت لذلك ثوباً فضفاضاً من الصوف الأبيض، وسرت وسط حشد مهيب من الكرادلة والمطارنة والسفراء، ومحميي البابا..وعبق البخور ودخانه الأبيض يملأ المكان، حتى بلغوا بي موضع المذبح لتقديم قرباني وكان عليّ أن أجثو قبالته ريثما تفرغ طقوس التعميد التي بدأها البابا بكلمة أعلن فيها على الحاضرين سروره الذي لا يحد باستقبال

مرزبان جديد قدم من بلاد البربر!... وكأني قدمت باختياري ولم أكن مختطفاً من قبل قرصانه اللعين...ولكن ما عساي أفعل والقرار بيده؟!...

ثم التفت إليَّ يدعوني باسمي الجديد، وكأنه هبة من السماء في ظنه ومن حوله من الحشد:

- أصبحتَ منذ اليوم من آل مديتشي...واسمك ((يوحنا ليون))...

وتنهمر مني دموع الاستياء، وقد ظنها الأعلاج دموع الفرح!

وما دروا أني أبكي زمناً تطاولت لياليه، وأكفهرت أيامه، وانقلبت على أمتي أوضاعها...حتى اسمي أخص خصوصياتي وحقي الذي ما انفك يلازمني منذ ولادتي حتى كهولتي أنازعُ عليه باسمٍ غريبٍ على ملتي واعتقادي،وفكري وبيئتي..فلا شيء بات فينا بمنجاةٍ من سلطان الآخر!!..

ومع كل هذا حنانيك، فبعض الشّر أهونُ من بعض...وما أنا فيه أخف وطأة مما عليه أهلنا في الأندلس، بل إنّ أموراً عديدة يمكنني أنْ أسخرها في خدمة الأندلسيين...

ولستُ أزعم لنفسي قدرة خارقة، وقوة مغيرة لكن بقائي في رومة وفي كنف البابا يُيَسّر عليَّ مدَّ جسور التعاون بين رومة والقسطنطينية، وبين رومة وملك فرنسا وتأليبهم على الملك شارلمان ملك أسبانيا المغرور...ثم إنَّ حركة الإصلاح الديني هي الأخرى ذات أثر فعال في مواجهة التعصب الكاثوليكي الأسباني...

وأخذت أمهد للوصول إلى السلطان سليم أذكره بالعهد الذي قطعه على نفسه لتحرير الأندلس، لكن يد المنون كانت أسبق إلى انتزاع روحه...واعتلى عرش امبراطوريته ابنه السلطان سليمان، فتمهلتُ حتى إذا

قرر البابا إيفادي إلى القسطنطينية لحمل تهانيه، اشتدَّ عليه المرض الذي لم يمهله، فقد توفاه الله في غيبوبة الألم الحاد في معدته.

وكان لوفاة البابا وقع مؤلم في الوسط الأدبي والعلمي والفني ومن كان لهم حُظوة من أهل الوجاهة وأعمال التجارة، فقد ماجت بهم جنبات القصر، وكنتُ لا أرى واحدهم إلاَّ متأوهاً على فراق البابا الذي اعتقد أنه بوفاته قد طُوِيت صفحة الحياة الفكرية والأدبية، وأُلقي بمفاتيح خزائن الكنيسة في قعر البحر...أبصرتهم والذُّعر يجلد ظهورهم وهم يولون مدبرين من رومة يهيمون على وجوههم في الإمارات المجاورة وخاصة إمارة فلورنسة لعلهم يجدون فيها أسباب المعيشة الرغيدة التي اعتادوها في كنف البابا الكريم!

وعلى النقيض من ذلك استقبل فقراء رومة وضعفاؤها وكثير من الرهبان والقساوسة نبأ وفاته بين من لزم الصمت وبين من كان ينتظر تلك اللحظة التي تأتي بالبديل الزاهد الصالح لكرسي البابوية..وقد غلبت إرادة هؤلاء، ووجدت استجابة لدى مجلس الكرادلة الذين انتخبوا القديس أدريان، المتِّسم بالزهد والتقشف الذي أخذ يعيد بناء بالحياة البابوية على أساس من الزهد والتخلص من مظاهر الترف والبذخ والنعيم، وأشكال الزخرفة والرسم والنَّحت...لكنه غالى في الزهد، وتمسك بقشوره...

صحيح أنّ الزّهد مطلب أهل الآخرة، لكنه يكون خراباً حين يقتل ملكةَ الإبداع والابتكار، ويحول دون البناء والإعمار، وما جاء الدِّين إلاَّ لصلاح الدنيا وعمارة الأرض، وجعل هذا الهدف بوابة الآخرة...

وإذْ كنتُ أحد مَحْمِيِّي البابا ((يوحنا ليون)) بل واكتسبتُ اسم أسرته، فقد حمّلني ذلك وزر مرحلةٍ، نقم منها عهد أدريان الزاهد...لكني لم ألجأ

إلى مغادرة رومة على نحو ما صنع الآخرون..ولم أعبأ بالمتاعب التي واجهتني، لكنني في ذات الوقت لم أقف ساخطاً على العهد الجديد...وصاحبت بإخلاص شديد نهر التيبر، وغابات رومة، وسهولها الممتدة الممرعة، وآثارها القديمة الشامخة..وحاولتُ أنْ أقضي معظم أوقات النهار خارج المدينة بعيداً عن دخان الفتنة حتى أُوقِفَ راتبي الذي كان أجراه لي البابا يوحنا، لجأت إلى التجارة، ووجدت في استيراد التبغ من أشبيلية، وتصديره إلى القسطنطينية، عملاً مربحاً وسبباً في علاقات حسنة أقمتُها مع القادمين من بلاد الأندلس، وخدمة لها.

وفيما أخذت تتأجج نيران الفتنة، وتزداد الصراعات حدة بين خصوم أدريان من الإيطاليين والفرنسيين، وبين أنصاره من الرهبان الأسبان والهولنديين كان منزلي يبدو بسبب زواره كأنه خلية نحل، وهم بين أصدقاء يأتونني بالأخبار، ويعرضون عليَّ منشوراتهم الساخطة على البابا الهولندي الدخيل!!...وبين تجار يكملون صفقاتهم...

وذات مساء أقبل بين التجار صديقي الشاب سعد الطرابلسي والذي لم يخطر ببالي أن أتوقع حضوره، ولا صدقتُ عينيَّ حين رأتاه...وصحتُ: ألنت هو؟ قال : نعم أنا هو سعد الطرابلسي!

وإذْ عبَّر شوق الأخوة عن نفسه بعناق طويل، وتحايا قوية جيَّاشة العاطفة، صادقة الانفعال...بادرني بما أردتُ أن أبادره؟ قائلاً:

– الحمد لله ...أخيراً وجدتك..

فأدركتُ أنه ما قدم بقصد التجارة، وإنما بحثاً عني بعد إذْ استبطأ قدومي إلى جبال غريان، فتوجه إلى تونس، وهناك عرف القصة...وأردف قائلاً:

- لقد ترددت على تونس عدة مرات...وترددت على رومة بحثاً عنك في غير جدوى عدة مرات...وكدتُ أيأس من العثور عليك...ولشدَّ ما آلمني معرفتي بأخبار أهلك وجهلي بموضعك ومصيرك..الحمد لله أن قد رأيتُك ...ثم انتحى بي جانباً من المكان واستعجل يسألني بصوتٍ خفيض لا يسمعه غيري كما لن يفهمه إن سمعه - قائلاً:

- ألم يكن بوسعك العودة وأنت على هذه الحال؟

قلت : بلى..

قال : وما الذي أغراك بمنفاك الاختياري هذا؟

قلت : إذا ما استثنيتك وأهلي ومجتمعي فإنَّ الذي يغريني في هذا المنفى الاختياري حرصي على التحرر من المتحكمين برقاب العباد، وقطع كل صلة بمن استرخصوا قيم الأمة وفضلوا عليها نزوات حكام المدن وخورهم، وغوائل قطاع الطرق وهجمات الأعراب وتطاول المعتدين، وكبت أنفاس المصلحين، فقد أُحبطت حياتنا، وأُورِثْنا المذلة، وفقْهَ الهزيمة!...صحيح أنني اختطفت وعُمّدتُ ، وبُدّل اسمي ..ولكن ذلك كله لم يثنني من عقيدتي، بل زادني تمسكاً بها، وقد آليتُ على نفسي أنْ أجعل من اختطافي سبباً في خدمة عقيدتي وأمتي وإنَّ ما أقاسيه هنا من مرارة الغربة والاغتراب يظل دون وقع ظلم ذوي القربى الذي هو أشد مضاضة، وأنكى جرحاً، وأقوى إيلاماً...ولن أسترسل في الحديث فأنت واصل، وحاجتك للراحة أبدى..وسأتزود منك بالأخبار غداً، فأمامنا فسحة كافية لما هو أكثر من الأخبار...لنعمل سوية للمستقبل من هنا، فإنك في بلاد تشهد ميلاد عصر نهضة لا يتحسس بُنَاتُها من مشاركة أهل الفكر

والعلم..بل إنهم لينظرون بعين الفخار إلى ابن رشد والإدريسي وابن الهيثم وأمثالهم من علمائنا، ويؤسسون بنيان النهضة على مداميك أفكارهم...

قاطعني قائلاً:

- وهذه الفوضى..وحياة الرعب..وتناقص سكان رومة كيف تتفق مع ما تقول؟

- إنها فترة مخاض لن تطول، وإرادة التغيير هنا أقوى من إرادة الجمود التي آلت إليها حياتنا!... وما تراه من تردي الأوضاع تحكمه سنن التغيير..وهذه الأوضاع غير قابلة للبقاء والاستمرار..وهذه البلاد لا شك تعيش مخاض نهضة...

وعدتُ أحدق في صاحبي...وأنا لا أكاد أصدق..أفي بلاد سلطان الآخر نلتقي؟ حقاً...الدنيا مازال فيها خير، ولن يطمسه أهل الشَّر مهما تكالبوا فهذا سعد الطرابلسي عرفته رفيق سفر، وما ظننتُ أن تتوطد صحبتنا وتغدو قوية تدفعه لأنْ يجتهد في البحث عني في غيْرِ بلد، التزاماً بعهد قطعناه على أنفسنا أنْ نعمل من أجل وحدة المغرب الكبير، واستعادة الأندلس..وغامر بنفسه متحدياً مخاطر القرصنة، حتى التقينا ..إنه الوفاء وخلق المثابرة التي غابت عن الكثيرين...

....

نقل إليَّ صورة كاملة عن أخبار الأهل والأمصار..وبشرني بارتزاقي مولوداً ذكراً إثر سفري ببضعة أشهر واسمه يوسف على نحو ما اتفقت وزوجتي، وأنَّه غدا اليوم طفلاً ينادي أباه الغائب، وهو في حضن

أخته زينب...وعزاني بوفاة والدي الذي أوصى بالبحث عني هارون، وشدد بضرورة عودتي إلى تونس..

....

التفت إليَّ سعد الطرابلسي ذات مرة ونحن نحاول الابتعاد عن الأنظار التي تلاحقنا بحقدها الإسباني دونما جناية سوى أننا عرب مسلمون وقال معاتباً:

- يا أبا يوسف...أما زلتَ مكابراً ومُصراً على رأيك ، فلا تتزحزح عن هذه البلاد؟ حتى متى تظل أسيراً في منفاك الاختياري بعيداً عن الأهل والوطن؟ ألا تَرى بأم عينيك هذه المطاردة..ما نهايتها؟ فكِّر جدّياً بالعودة إلى تونس، وهناك نفكر بحرية كاملة في أمور الأمة، ووحدتها...
- أمر العودة إلى الوطن مفروغ منه ولا غنىً عنه، لكن التفكير بحرية كاملة داخل الوطن غير مسموح به سوى ما يعتمل في صدر الإنسان مما يمكن اعتباره الحرية الداخلية التي يمتلكها الانسان كنفسٍ حرّة أينما كان، أما الحرية الخارجية فهي مصادرة هنا وهناك على حدٍّ سواء..ومع ذلك تظل وصية أبي، ووجود المخلصين والمصلحين، والأهل والولد والأصحاب جميعكم تشكلون الخيوط المتينة التي تشدني إلى تونس..
- وتونس ..وبجاية وقسنطينة وتلمسان وفاس ومراكش وسائر مدن المغرب الكبير ألا تشدك إليها؟!
- بلى ..وتشدني مثلها سائر المدن الأندلسية، وكل أرجاء الوطن الكبير الذي من أجله التقينا، وتعاهدنا، ولئن ضاقت فيه أخلاق الرجال، فلن

يضيق بها، أو يلفظ أهلــه مهمـا جفوه وفرطـوا فيـه..ولـن تجدنــي بعيـداً عنكم، وقريباً بإذن الله يلتئــم الشـمل...ودعنـا نفكـر الآن فـي أمـر كنـت عزمت على بلوغه لولا أنّ الأحداث جاءت بالبابا ((أدريان)) فتوقفت عن السَّير فيه..وأرى أنك مرشح له.

- ما هو هذا الأمر؟

- الذهاب إلى القسطنطينية، والاتصـال بالسلطان سليمان الـذي حـاصرت أساطيله الباسلة جزيرة ((رودس))، والتمهيد للتحالف بينه وبيـن كـل مـن رومة وفرنسا لضرب الأسبان..ويبدو أنــه سيلقى تجاوبـاً فـي كثـير مـن البلدان الأوروبية خاصة وأنـه يميـل إلـى التّسـامح، ولا يَسـتهويه منظـر الدماء، وقد وضع حدًّا لذلك.

....

وإذْ ودعته مع مجموعة مـن تجـار التبـغ إلـى القسـطنطينية، عـدت لعملـي لأجد أنَّ الرقابـة التـي ضربـت علـيّ قد اسـتحكمت حلقاتهـا، حيـن داهمني نفر من الأسبان من أنصار البابا أدريان، وكتّفوني واسـتاقوني إلـى زنزانة في قصر القديس أنجلو دون أنْ أعرف لذلـك سـبباً سـوى الدسيسـة، ومكر مكروه..

ومكثتُ في السجن بضعة شهور، حتى أمات الله البابا أدريـان فـي ظروف غامضة، ولعلـه مـات مسـموماً..فـإذا الإفـراج عنـي يـأتي علـى يـد رجـال مـن أسـرة آل مديتشـي، وحضـرت معهـم انتخـاب القديـس يوليــوس دومديتشــي لكرســي البابويــة، وســمي مـن يومهـا البابـا ((كليمـــان))، والـــذي تضـاعفت ثقته بـي حيـن تعرضـت للمطـاردة والاعتقـال فـي عهـد أدريـان،

وقربني منه كثيراً، وكلفني مع أهل خاصته بالسفر إلى ملك فرنسا في مهمة سفارة...

....

مهمة في سفارة إلى ملك فرنسا

مثل تكليفي في مهمة سفارة اختباراً عملياً لمدى انتمائي إلى أسرة مديتشي، وإيماني بالبابوية، وهو اختبار يضعني في ذات الوقت أمام اختبار النفس ومدى انتصاري لأهدافي ومبادئي الحقيقية...

لن تكون هناك صعوبة في الجمع بين المهمتين والنجاح في الإختبارين..إنما الصعوبة في مقابلة ملك عرف عنه الميل إلى المغامرات الحربية، فمنذ توليه عرش فرنسا اخترق جبال الألب حتى وصل إلى مدينة [مارجنانو] بالقرب من ميلانو، وانقض على حاميتها ودخل مع الجنود والمرتزقة السويسريين في معركة حامية الوطيس سحقهم فيها في مدى يومين، وانتهت إلى عقد معاهدة مع سويسرا قضت بعدم تدخلها مستقبلاً في أي حرب ضده، وأتبع ذلك في عنفوان قوته اتفاقه مع البابا ليون العاشر على نقل حق تعيين رجال الدين في الكنائس الفرنسية إليه مقابل دفع الأموال التي كانت تؤدى إلى البابا والتي توقفت منذ مائة عام، ثم هو يخوض الآن صراعاً مريراً مع منافسه الملك شارل الخامس الذي حمل لقب امبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وعليه أن يقوض أركانه، فأسرع إلى تحريك جيشٍ لمحاصرة مدينة [بافيا] حصاراً تتضارب فيه الأنباء بين الكر والفر، والقوة والعجز، والنصر والهزيمة...وإذن فهو في كل هذا

وذاك متوتر الأعصاب، مشدود الذهن، مقبوض الفؤاد، ألقى على نفسه تبعات شعاره ((ملكٌ واحد، ودينٌ واحد، وقانونٌ واحد)).

غير أنَّ الذي أجزم بترحيب الملك لسماعه مني هو الحديث عن كل ما يؤلم خصمه او يضعف من هيمنته على الامبراطورية ..وإذن ففي جعبتي من ذلك ما ينشرح له صدره، ومن ثم أجد مدخلي إليه للتأثير عليه...

هكذا أمضيتُ مسافةً من الطريق أقطع بها مسافة في الكيفية التي أخاطب بها الملك فرانسوا الأول، وصاحبي الفلورنسي من آل مديتشي إلى جواري يحدثني عن رحلاته إلى الشمال، وعن مغامراته التي لا تنتهي، وبطولاته التي لا أرى لها من الواقع إلاّ لسانه الناطق بها...فما أن اقتربنا من أسوار بافيا، حتى أشار عليَّ صاحبي بتجنب المسالك القريبة من المدينة المحاصرة...وكان علينا أن نسلك طريق الذئاب، وهو ممر وعر موحش مقفر ضيّق كأنما تتفطّر صخوره عن ذئاب فاغرة الأفواه، أخذت تتقاطر عادية علينا كأنما أدركت فريستها من بعد حرمان، فجعلت أعمر بندقيتي وأطلق منها البارود المدوي تباعاً حتى ولت هاربة، وسقط منها مضرجاً بدمه ما سقط واشتد عزم الخيل، واطمأنت في مسيرها، فلم تُصادف من بعدها سوى كلاب وثعالب.

وإذْ جاوزنا طريق الذئاب، وعادت إلى صاحبي سكينة نفسه المضطربة قال:

– تعلم أنّا سنقابل ملكاً فيه من الشراسة وهو أشد من تلك الذئاب الضارية...ويعتقد أنه ليس ملك الإفرنجة فحسب بل والامبراطور الذي

يجب أن يتوج على البلاد الأوروبية رغم إخفاقه في ترشيح نفسه لاعتلاء عرش الامبراطورية! وإني لأحمل همَّ مقابلتنا له..

- أعلم بذلك، وبالأوضاع المعقدة التي تكتنفُ هذا الملك، وأدرك مدى الصعوبات التي ستواجهنا..وأخذتُ أشرح لصاحبي الفلورنسي تفاصيل ما ارتأيتُ في حسن مخاطبته.

تهلل وجه صاحبي، وأمَّن على ما قلت مضيفاً القول أنَّ نقل رسالة البابا لن يحسنه سواك.

اعترضتُ على إضافته موضحاً أنَّ نقل الرسالة إنما هو من كلينا سوية، ولكن المتحدث بها لا يكون إلاَّ هو، باعتبار سحنته الأوروبية، ولسانه المتقن للغته...

ونقترب من الأراضي الفرنسية، ونمر بقرية نبحتنا كلابها واستقبلنا فرسانها، وأكرمنا أهلها...فهي على مشارف مضارب الخيام التي يقيم فيها الملك فرانسوا الأول يستقبل ضيوفه، ويدير منها المعارك في بافيا...

وتنعقد المقابلة في خيمة الملك المخصصة لاستقبال الوفود ونجتاز اللحظات العصيبة بنجاح حين حل الله عقدة لسان صاحبي الفلورنسي وهو يستهل حديثه بزخٍ وابل من دعوات البابا أن يمُنَّ الرّب على الملك فرانسوا الأول بالنّصر على المرتزقة الجرمان ويدحرهم في بافيا، كما اندحر من قبلهم من مرتزقة سويسرا ثم أخذ يحدثه بما يعتزم قداسة البابا عمله في مد جسور التعاون مع القسطنطينية خصيمة الامبراطور شارلمان الخامس ومن آل إليه في المجر وفينا...

ولم يكد صاحبي يختتم الرسالة حتى تبدل نمط الاستقبال وساده جوٌّ مفعم بالود والتكريم، فقربنا الملك منه، وإنْ كان اهتمامه يبدو متميزاً

بصاحبي أكثر مني فهذا لا يهم فقد وطنت نفسي قبل الوصول إليها على ألاّ أفاجأ بمثل هذا التفضيل.

....

ارتحتُ كثيراً عندما ردَّ الملك على رسالة البابا بالتأييد والتقدير لما سيقدم عليه من التعاون مع القسطنطينية، وزاد ارتياحي عندما قال أنه أيضاً لمثل هذا الغرض ينتظر قدوم رسولٍ من القسطنطينية، تمهيداً لمد جسور التعاون قريباً بينه وبين السلطان سليمان..وقد رجوت ساعتها في نفسي أن يكون سعد الطرابلسي قد بلّغ الرسالة، ومهَّد لنجاح مثل هذا اللقاء، المُوصلِ إلى قيام تحالفٍ، وتطويقٍ للإمبراطور شارلمان...

....

نكبة رومة

ما كدت، وصاحبي الفلورنسي نلتقط أنفاسنا، ونستعيد جانباً من الراحة التي سلبها منا عناء سفر طويل في مهمة السفارة، حتى فاجأتنا الأنباء بمزعجاتها إذْ مُني الملك فرانسوا الأول بهزيمة نكراء على يد الجنود الألمان في بافيا، وسيق أسيراً إلى أسبانيا..أما أنا فقد كان وقع الهزيمة عليَّ كنزول الصّاعقة التي أوشكت أن تحرق كل آمالي لولا أنّ البابا كليمان السابع سارع إلى تأليب الدول الأوروبية على الامبراطور شارلمان للحدّ من غلوائه، وإضعاف مخاطر النصر الذي أحرزه وتطويق شره...

وإذْ أدرك الامبراطور التفافاً على انتصاره أسرع يضغط على الملك الأسير ويساومه على إطلاق سراحه لقاء توقيعه على معاهدة مدريد عام ١٥٢٦هـ، والتي خسرت فرنسا بمقتضاها أجزاء واسعة من أراضيها، وتنازل الملك عن كل ادعاءات بلاده في ميلانو ونابولي وجنوة، الأمر الذي هدد مكانة فرنسا كدولة كبرى، لكن وقوف بقية الدول إلى جوارها جنّبها المضاعفات، إذْ نجح البابا في الحضّ على تكوين حلف مقدس بينه وبين البندقية وفلورنسة مؤيداً من هنري الثامن ملك انجلترا ضد الامبراطور شارل الخامس...وقد أدى قيام هذا الحلف إلى تشجيع فرنسا لنقض معاهدة مدريد التي جرت تحت الضغط والإكراه...وانهالت مطارق الهزيمة على الامبراطور الأسباني...فها هو السلطان سليمان في [موهاك] يقترب من أسوار فيينا...ويدهَمُ الموت ملك المجر أقرب المقربين من الإمبراطور..وتزداد اضطرابات الهراطقة في بلاد الجرمان...

ويطول انتظار الجيش الإمبراطوري لتسلم المرتبات دون جدوى..فيدفعه ذلك إلى القيام بحركة عصيان أخذت تشتد وتتسع ..وكثرت معها أعمال السلب والنهب..واكتسح الجيش نهر [ألبو] وزحف على بولونيا وفلورنسا... ولما لم يجد بغيته في هذه المدن المحصنة قرر الزّحف على رومة التي لا أسوار لها ولا حصون...

وهنا لم يعد الأمر متعلقاً بالامبراطور، وإذْ أضحى الخطر يحدق بالمدينة الآمنة، ويتهدد من فيها وما فيها، فقد تبدلت وفقاً لذلك المواقف والحسابات...

تشكلت العصابات السوداء بتزعمها قائد شجاع من آل مديتشي خرجت تناوش الزاحفين، وتصدهم عن رومة، وقاومت ببسالة نادرة لكن

الاجتياح كان أكبر منها خاصة بعد أنْ أصيب زعيمها في ساقه بقذيفة أودت بحياته...

وإذ أضحى الجيش الامبراطوري قاب قوسين أو أدنى من مدينة رومة عجل البابا ((كلمنت السابع)) إلى ربه يدعوه، وإلى سكان رومة يحرضهم على الدفاع..فتدافع المتطوعون، ومن تبقى من العصابات السوداء، جنباً إلى جنب مع الحرس الحجاب، يشكلون خطوطاً دفاعية لمواجهة هذا الاجتياح التتري اللعين...

واختلط الحابل بالنابل، وانضم إلى الجيش الامبراطوري الغوغاء من الإيطاليين الجياع، وتعرضت المدينة المسكينة الهادئة لأقسى صور التدمير والتخريب، والذبح والتنكيل، وهتك الأعراض والحرمات، وما أشد على النفس أنْ تغتصب الراهبات، ويقتلن، وأنْ تحرق الكنائس والأديرة وتهدم على الرهبان، ما ذنب مثل هؤلاء المتبتلين المنقطعين للعبادة؟!..ما الغنائم والأسلاب التي سيخلفونها سوى ما عُلّقَ على رقابهم من الصلبان، والسُّبح الطويلة؟!

وإذا كان هذا حال الراهبات والرهبان وأديرتهم. فأي حال توصف بها المتاجر والقصور؟ وأي حال صارت إليها نساء المدينة ورجالها؟!

لم تعرف رومة عبر تاريخها الطويل خراباً كالذي تتعرض له اليوم، حتى في أحلك أيام غزوات البرابرة من قوطيين، ووندال، ولمبارديين، في العصور الوسطى...

لقد كنت أطل من السور الحصين لقصر القديس أنجلو الذي اخترت أنْ أشرف على سلاحه وذخائره، فأرى بالمدينة المنكوبة ترتفع في سمائها أعمدة الدخان الكثيف، وأجزم أني لم أشهد ذعراً، أو نكبة حلت بمدينة

كالذي أصاب رومة اليوم سوى ما سجله التاريخ عند اجتياح بغداد من قبل المغول!...

لم تقو المقاومة على صد الهجمة التترية الغوغائية، واستنفد البابا خزائن القصر، وكل ما في وسعه أن يصنعه لمزيد من الصمود حتى أضحى في وضع لا يحسد عليه...

خذله الصديق، وجبن عن نصرته الحليف ولم يبق في حوزته سوى القصر الذي يتحصن داخله، ولم يكن له من بد عندئذ إلا القبول بالتفاوض الذي لا مناص منه، لكن الجيش الامبراطوري أراد التفاوض الراكع الذليل، فعمل على أسر البابا ليكون تحت رحمة الامبراطور وجبروته يناوره ويكرهه، وقد ألّب هذا الحدث كلاً من فرنسا وانجلترا والبندقية، فعزمت على تحرير البابوية، وكسر شوكة الامبراطور...غير أنّ الرياح اتجهت بخلاف إرادتهم، ووجد البابا نفسه مضطراً إلى مهادنة شارلمان، وعقد معه معاهدة برشلونة، والتي أعقبها تتويجه إمبراطوراً...وبمقتضاها أعاد الامبراطور المتوج للبابا الولايات البابوية فيما عدا نابلي...

....

قـــرار العـــودة

بعد خراب رومة تغير كل شيء وبالنسبة لي عدت إلى غربتي.

تبدلت الأحوال...فقدت الأصحاب والأنصار...ولم يبق معي سوى الكردينال العجوز الطيب ((جيل دي فيتري)) الذي علمتُه العربية فعَشق علومها وآدابها، وازداد تمسكاً بي إلى جواره...

أسررتُ عليه أني لم أعد أطيق البقاء بعد أنْ أطبق على رومة وإيطاليا بأسرها كابوس الامبراطور!...

قال : لا تضق ذرعاً بما يحدث، فلكلّ ضيق مخرج!

قلت : قد يكون المخرج بعودتي إلى الأهل والعشير..

قال : كل الحق معك، ولكن دعنا نرقب تسارع الأحداث، فالامبراطور في شهر إبريل القادم من عامنا هذا (١٥٣٠) سيغادر ايطاليا إلى ألمانيا للقضاء على الهراطقة..ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً...

وإذْ كان سروره بالغاً بقراءة كتابي ((وصف أفريقيا)) الذي فرغت من تأليفه في وقتٍ سابق وتحديداً في العاشر من مارس لعام ١٥٢٦م، أشار عليّ بشغل وقتي بالكتابة والتأليف.

....

حملت الأخبار إلينا نبأ اجتياح العثمانيين الأراضي المجرية، وسيطرتهم على معظمها، وتأهبهم لاقتحام فيينا..لكن الامبراطور شارلمان سارع إلى مهادنة البروتستنت، وقاد جيشاً كبيراً واجه به العثمانيين، ودحرهم...

وعاد مزهواً تغمره نشوة النصر إلـى إيطاليـا ويـزور البابـا، ويعقد المعاهدات الدفاعية مع معظم الولايات الألمانية حتـى إذا اطمـأن إلـى بسـط هيمنته، غادر إلى أسبانيا وهو أقوى شخصٍ في أوروبا..لكنني بـالرغم مـن كل ما جَدَّ لم يفت ذلك من عزيمتي وعاودتُ العمل على إحياء الأمل...

وتحرك الملك فرانسوا الأول يُقوي ساعده بالتحالف مع البروتستنت في ألمانيا، ومع السلطان سليمان، وبمباركـة البابـا...إلاَّ أنَّ القدر اسـتوفى أجل البابا كلمنت السابع..واستوفيتُ معـه إقـامتي فـي رومـة...رومـة التـي دخلتهـا مختطفـاً أسـيراً...ودافعـت عنهـا وهـي أسـيرة، وحميـت الزنزانـة والقصر اللذين أُسرت فيهما...

وإذْ كبر سني، ولم أعد أحتمـل المزيـد مـن الغربـة، وضنـى البعاد، وإذْ برّحني الشوق إلى الولد والأهل والعشير، وإذْ لم يعد في البقاء من مستطاب، وليس للرسـالة مـن مستوعب.. فهـاأنذا أعـود إلى الشاطئ الآخر..إلى دفـء الأهل، وديار المغرب الإسـلامي، إلـى أرض تونـس الحبيبـة كهـلاً مـن بعد شـباب، واسـتقراراً مـن بعـد ترحال...أعود وفي جعْبتي الكثير من عبر الأسفار وأخبار الأمصـار التي جبتها من جهة إلـى أخـرى ببرهـا وبحرهـا، وسـهلها وجبلهـا، وحرها وقرها، وعواصفها الرملية والثلجية، واختلطـت بناسـها مـن ريـف وباديـة وحضـر..وعـرب، وبربـر، وسـودان، وعجـم، وطليـان وفرنجة..وخالطتُ الزُّهاد والعباد والنساك، وغشيت مجالس الفقهاء والعلمـاء وارتـدت بـلاط السـلاطين والملـوك، وعشـت مـع العامـة والخاصة، والفقراء والأغنياء، وأهل الملل والنحل المختلفة، وذقتُ

الحياة بحلوها ومرها، وبؤسها ونعيمها، وصفائها وكدرها..وتعلمت الكثير الكثير في فقه الحياة التي استوعبت إنسانها بالحب والتسامح، إذْ يضعف أو يقوى..وإذْ يخطئ أو يصيب.... وإذْ يهبط أو يسمو....ولقد مررت بكل أحوال النفس وتقلباتها..وبما استهواها، وما أكرهت عليه وقاسيت محنة الزنزانة وسلطان الآخر...وسعدت بالحج وزيارة مسجد المصطفى عليه الصلاة والسلام، وببيت المقدس...وفي كل الأحوال عشتُ الأندلس وسأظل أعمل من أجلها حتى ألفظ أنفاسي الأخيرة...

ولئن ألقيتُ من يدي عصا الترحال فسيمسك بها السائرون من بعدنا على درب الرسالة، حتى تبلغ القافلة مداها...ويا قافلة سيري دونك مراحلْ طوالْ !

الشاهد على عصر المحنة الأندلسية

الحسن بن محمد الوزان

الغرناطي الأندلسي

((ليون الأفريقي))

فهرس

الموضـــوع	الصفحة

تطلب جميع منشوراتنا من

بيروت - شارع سوريا
بناية صمدي وصالحة
هاتف ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢
صندوق بريد ٧٤٦٠
برقيا: بيوشران